

كانت ملكة علي مصر

ونفرد هولمز

ترجمة: سعد أحمد حسين

مراجعة: د. أحمد فخرى

كانت ملكة على مصر



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

كانت ملكة على مصر

ونفرد هولمز

ترجمة: سعد أحمد حسين

مراجعة: د. أحمد فخرى

عن سلسلة الألف كتاب

الغلاف:

الإشراف الفني:

للغنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلمتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

SHE WAS QUEEN OF EGYPT

تأليف :

Winifred Holmes

مقدمة المراجع

عرفت السيدة وينيفرد هولز عندما كانت تقيم في مصر مع زوجها وأطفالها اذ أنهم قضوا في القاهرة بضع سنوات عندما كان زوجها يعمل في شركة شل بالقاهرة .

كانت السيدة هولز دائمة التردد على المتاحف وعلى جميع المحافل العلمية واتصلت بأكثر المشتغلين بالتاريخ والآثار ، وكان لها هي وزوجها أصدقاء عديدون يأسون إليها ويحبون صحبتها ولا يذنون على مسر هولز بأى مساعدة لأنها كانت مخلصة حقا في اقبالها على القراءة ، وتحب اذا قرأت شيئا أن تلم بأطراف موضوعه .

وكنت أحب كثيرا أن أسمعها تتحدث عن مشاهداتها في مصر وعن قراءاتها كما كنت أحب بنوع خاص أن أسمع منها ذكرياتها عن الهند لأنها أقامت مع زوجها هناك بضع سنوات قبل حضورهما الى مصر بزمان غير قصير ، وكنت أحب حديثها عن الهندو الذين كانت تحبهم من قلبها ولم أسمع منها الا عطفًا قويا على قضاياهم وعلى حياتهم وأمانيتهم واعترافا بفضلهم عليها ، وكانت رغم مشاغلها الأسرية كثيرة السفر الى جميع أرجاء مصر في الصعيد أو في الوجه البحري أو في الصحراء ، تبحث عن أسواق القرى ومواسم الحصاد ، وتوزع اهتمامها بين تاريخ البلاد وحياة أهلها . واهتمت اهتماما خاصا بالأديار القبطية وبخاصة ديري الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا ولهذا كنت أتوقع أن يكون كتابها عن مصر خاصا بالأديار أو على الأقل عن ناحية

من نواحي التاريخ في العصر القبطي لأننى أعرف نشاطها في الكتابة وأعرف أنها كانت تكتب كثيرا من المقالات في الصحف والمجلات الانجليزية وأنها كتبت كتابين عن الهند .

وغادرت أسرة هولمز مصر عام ١٩٥٥ بعد أن انتهى عمله في شركة شل ولم يعرف أحد من أصدقائهم شيئا عنهم الا أنهم عادوا الى منزلهم في لندن ، ثم ذهبت الأسرة الى سنغافورة وظننا أنهم نسوا مصر الى حين ولكن مسز هولمز لم تنس مصر ، وها هو كتابها عن ملكات مصر الأربع حشيشوت وفرتيتي وكليوباترة وشجرة الدر خير شاهد على أنها لم تضيع وقتها في مصر عبثا كما فعل ويفعل الألوف غيرها ، وقد سررت عندما وصلتني نسخة من كتابها منذ أكثر من عامين فقرأته بامعان وأحببت أسلوبها الجميل ، لأنها تحب دائما أن تكتب لمن هم في سن الشباب ، وإذا كان التوفيق الكامل قد جانبها في بعض التفاصيل التاريخية ، فإن ذلك لا يغير أبدا من أهمية الكتاب وأهمية موضوعه . والزاوية التي كانت تنظر منها الى حياة كل ملكة من هذه الملكات . ويسرني أن أقرر أن المؤلفة تستحق التهنئة ، لأنها نجحت في الاحساس بكل عصر من عصور أولئك الملكات بالرغم من تفاوت الزمن بينهن ، كما أنها حافظت بأمانة على الوقائع التاريخية قدر استطاعتها ولم تطلق لخيالها العنان أو تخلق شخصيات خيالية تفكر على المؤرخ الجاد صفو قراءته وتسبب له الضيق ، فإذا اضطرتها التحلية الأدبية الى اضافة شيء من عندها أضافته في رفق وحرص حتى لا يؤثر ذلك في قليل أو كثير على الموضوع الأصلي .

وكثيرا ما فكرت بيني وبين نفسي وتساءلت عما يمنع كتابنا من تناول الموضوعات التاريخية بمثل هذا الأسلوب ، وتمنيت أن يكون بين أيدي أبنائنا في المدارس وفي المنازل كتب من هذا النوع ، فلما

أسندت الى الوزارة مراجعة ذلك الكتاب قبلت عن طيب خاطر لأنى
أومن بفائدته عند ظهوره مترجما الى اللغة العربية .

قد اضطرت اضطرارا لحذف أشياء قليلة والتعليق على بعض
ما ورد فى صلب الكتاب لا انتقادا له أو تهوينا من شأنه ، بل على
العكس من ذلك للرفع من قيمته والاستزادة من الفائدة المرجوة
من ترجمته .

وخير ما أختتم به هذه المقدمة هو تحية السيدة وينفرد هولز
على اهتمامها بتاريخ بلادى وشكرها على كتابتها فيه ، وأرجو رجاء
صادقا أن يستمتع بقراءته أكبر عدد ممكن من شباب الجمهورية
العربية المتحدة ليعرفوا حياة أربع من النساء اللاتى امتزن بقوة فى
الخلق وشجاعة فى الكفاح ، وكانت كل منهن ملكة على مصر ، وفرضت
اسمها فرضا لا على عصرها فحسب بل وعلى التاريخ ، وستظل ذكراهن
باقية ما بقى النيل جاريا فى البلاد ، وطالما بقى سكان مصر يحنون الى
سماع تاريخ من عاشوا قبلهم فى هذا الوادئ الكريم .

أحمد فخرى

المقدمة

في جميع أنحاء مصر يجتمع الناس ليستمعوا الى الراوى ، وهو ينتقل من قرية الى قرية في جميع الأراضى الخضراء الخصبة الممتدة بين النيل والصحراء • ويفتن الراوى مستمعيه مثلما كان يفعل الشاعر في الأيام القديمة ، لما يرويه من قصص عن أبطال وملوك وملكات مصر القديمة العظام • ويفنى الراوى بمصاحبة ربابة بدائية « كمان الشاعر » ويقص الثنى الكثير عن الفراعنة الذين بنوا الأهرام ، وكان نفوذهم يشمل القطرين البحرى والقبلى ، ويقص قصص تحوتمس ورمسيس المحاربين العظمين اللذين أتت فتوحاتهما بالأموال الوفيرة من ممالك عديدة كانت تأتى بانتظام لمدينتهم الجميلة « طيبة » ذات البوابات المائة • ويقص قصة الاسكندر الأكبر والفارس صلاح الدين وقصص أبطال أحدث منهم مثل أبو زيد وعنتر ، وقصص أسطورية عن أبطال من العرب ، وقصص الملكات •

ولكن قصص أربع من ملكات مصر أسرت خيال الشاعر والفلاح على حد سواء وأقدم أولئك الملكات عهدا هى حتشبسوت « زعيمة النبيلات » التى حكمت باعتبارها فرعون وشيدت أثرا من أعظم آثار العالم وهو معبد الدير البحرى ، وتليها نفرتيتى وترجمة اسمها « الجميلة قد أتت » والتى لايزال جمالها يأخذ بأنفاسنا بعد أن مضت على أيامها آلاف السنين ، ولكن التاريخ يحدثنا عنها أنها لم تكن امرأة قوية الخلق شجعت زوجها على الثورة ضد كهنة آمون رع

وشاركته في شجاعته بل مخاطرته التي قضى عليها بالفشل ، وظلت أمينة ووفية حتى النهاية • وتليها في ترتيب الزمن ، كليوباترة « حبة النيل » التي كانت أكثر من شخصية روائية رائعة ، ولكنها حاربت بشجاعة ، حاربت بكل ما تملكه من امكانيات لتحفظ مصر حرة ومستقلة وبعيدة عن متناول قوة روما الناشئة • وأخيرا شجرة الدر تلك المرأة المحبوبة التي كانت محجبة وتعيش في حريم زوجها سلطان مصر ، والتي استطاعت باخفائها خبر موته أن تحرز النصر في معركة المنصورة ضد الصليبيين ، وقد توجت بعد ذلك كأول وآخر امرأة حاكمة لعصر الدولة الاسلامية •

وعندما تكشف القصص عن نفسها في مصاحبة الموسيقى الحزينة التي تؤديها الربابة ذات الوتر الواحد يزداد اعجاب جماعة سكان القرى - فلاحى مصر - ويصيحون منفعلين « ياسلام » ويبدءون في التحيز ويشند غضبهم على أعداء الأبطال والبطلات والملوك والملكات ويفرحون لفرحهم ويكون علانية لآلامهم ويتأوهون لمصائرهم المفجعة •

ولا يوجد ما يربط هذه القصص الأربعة معا ، اللهم الا أنها قصص تروى عن ملكات حكن مصر وحفرت شخصياتهن لنفسها أمكنة في قلوب الرجال والنساء والأطفال في كل الأجيال في بلادهن وفي غير بلادهن •

وتتقدم المؤلفة بالشكر لأصدقائها العديدين في مصر الذين ساعدوها على جمع البحوث العلمية ومن ألهموها لوضع هذا الكتاب وتخص بشكرها الدكتور أحمد فخرى أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بجامعة القاهرة والدكتور عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى بالقاهرة والدكتور باهور لبيب مدير المتحف القبطى بالقاهرة

والمسيو كنافاجو أمين مكتبة الجمعية الجغرافية بالقاهرة والسيد
على الجزار والسيد أبو النجا وكثيرين غيرهم • كما تقدم شكرها
للآنسة نيلسن أمينة مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية في لندن والآنسة
جوان كويل أمينة مكتبة المعهد البريطاني برانجون (وأمينة مكتبة
المعهد بالقاهرة سابقا) •

كما أتقدم أيضا بالشكر للناشرين الذين سمحوا لى بنقل
عيارات من المؤلفات التى أثبتتها فى نهاية كل فصل من الفصول وأعبر
أيضا عن شكرى لجمعية الآثار المصرية بلندن ولسكرتيرها الآنسة
وينفريد كيفز لسماعها للرسام الذى قام بعمل الرسوم باستخدامه
بعض الصور فى مؤلفات لتكون أساسا للرسم المنشور فى هذا
الكتاب •

وينفرد هولز

حشيسوت زعيمة النبيلات

« تذكرى أن دماء الأخلاق هى التى ستجعل الناس يحبونك •
انهضى لوالديك وأولئك الذين هم أرفع منك مرتبة » هكذا كانت
تكتب فى مثابرة مرة بعد مرة تلك الفتاة الصغيرة ذات البشرة
الخميرية ، اللطيفة ، والأنف المعقوف قليلا ، والذقن المستدير الذى
ينم عن صلابة •

لم تكن تكتب ذلك على صفحة كراسة بقلم ومداد ، ولكن على
قرطاس من البردى وفى يدها بعض أعواد سويت أطرافها من نوع من
أنواع البوص • أما الكتابة التى كانت تكتبها فلم تكن الا الكتابة
الهيراطيقية التى استخدمها المصريون القدماء ، ولم تكن الفتاة
الا وريثة عهد الفراعنة ، والمكان هو القصر الملكى فى طيبة ، أما الزمان
فهو أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الآن •

ازدهرت تلك المملكة العظيمة التى أنشأها بناء الأهرام وهى التى
نسميها « الدولة القديمة » والتى كانت عاصمتها فى منف بالقرب من
القاهرة ، العاصمة الحديثة لمصر • ولكن الحروب والثورات أدت الى
زوالها منذ عهد بيد • وتلتها الدولة الوسطى ، ولكنها تحطمت بدورها
على أيدي المغيرين الأجانب القادمين من آسيا^(١) والذين سماهم

(١) فى الأصل الانجليزى « آسيا الصغرى » وهو خطأ لأن الهكسوس خليط
من بعض القبائل الهندو - أوربية التى هاجرت من اواسط آسيا واختلطوا بمن كانوا
فى غربى آسيا فى ذلك الوقت من شعوب سامية ، ثم تقدم هذا الخليط من الاقوام
الى الحدود المصرية • (المراجع)

المصريون الهكسوس • وأسماهم البعض ملوك الرعاة ، وبعد مائتي عام من حكمهم البغيض طردهم الأمير الطيبى المحارب ، « أحمس الأول » مؤسس الأسرة الفرعونية الجديدة المعروفة باسم الأسرة الثامنة عشرة ، ووحد البلاد مرة أخرى ووضع فوق رأسه التاج التقليدى الذى يزدان بكل من العقاب والحية رمز القطرين ، الوجه القبلى والوجه البحرى ، وأصبحت طيبة ، التى نعرفها اليوم باسم الأقصر ، عاصمة للبلاد • هكذا بدأت الدولة الحديثة ، وكان أحمس الأول هو الجد الأكبر للأميرة حتشبسوت •

أما جدها أمنحوتب الأول ، ثانى فراغة الأسرة الثامنة عشرة ، فقد أكمل أعمال أحمس وذلك بإعادة تنظيم البلاد التى انتشر فيها الخراب ، وتهديتها وتقويتها ، وتركيز القوة فى يديه بالعمل على تقوية الجيش • لقد ذهب الهكسوس مخلفين وراءهم ذكرى لا تنسى من الكراهية والمراة ، ولكنهم أيضا تركوا لمصر شيئا يشكرون عليه وهو معرفة الحصان وهو حيوان لم يكن معروفا للمصريين حتى وقت مجيئهم •

وتلاه الفرعون تحوتمس الأول ، والد حتشبسوت ، الذى استطاع بما كان لديه من أحسن الجياد فى العالم المشدودة الى عربات حربية خفيفة ، وبما لديه من رماة السهام المشهورين من أبناء وادى النيل ، استطاع أن يشن الحرب على أعداء مصر فى عقر دارهم وأن يطاردهم شمالا وشرقا حتى ضفاف الفرات ، مدعيا ملكية الأقطار التى أخضعها •

وحوالى نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد ، عندما كانت حتشبسوت تعيد كتابة القول المأثور الذى يأمرها بأن تنهض لمن هم أرفع منها فى المكانة كانت مصر قد بدأت أزهى عصورها كإمبراطورية،

وكانت حتشبسوت ، وهى تجلس القرفصاء على حصيرتها المصنوعة من نبات الحلفا ، لتكتب وهى جالسة فوق الأرض ، هى الأميرة الملكية « سيدة الأرضين وارثة عرش طيبة » .

وفى الواقع كان هناك شخصان فقط أرفع منها منزلة : أمها الملكة أحمس ، الزوجة الملكية العظمى ، ووالدها تحوتمس الأول الفرعون الحاكم ، ومع ذلك فكان لابد لها من أن تثابر على نقل وتعلم الحكم الماثورة عن الحكماء المصريين القدماء ، كأتى فرد من زملائها ، مثل أخبها غير الشقيق تحوتمس الأول والأمراء والأميرات الصغار . كان بعضهم من أبناء الملوك والملكات الأجانب الذين وقعوا فى أسر أيها فى غزواته الخارجية ، وعدد قليل من أبناء الوزراء والأسرة النبيلة الذين كانوا من أصحاب الحظوة لدى الملك ، وما من شك فى أنها كانت تخشى المعلم الذى كان يلقيها الدروس وتخشى أساليبه العنيفة مع تلاميذه مهما كانت منزلتهم ، اذ كان المعلمون الصارمون يعتقدون « أن أذننى الطفل انما توجدان فوق ظهره لا يسمع الا عندما يضرب » . ولكن المثل الأعلى للعدالة الذى كان يطبق على الجميع بالتساوى بدون خوف أو مطاباة ، قد أصبح جزءا أساسيا فى حياة المجتمع المصرى ولم يكن فى استطاعة حتشبسوت أن تطالب بأية امتيازات خاصة فى معاملتها ، وعلى هذا كان يتحتم على الأميرة حتشبسوت - ومعنى اسمها « زعيمة النبيلات » - أن تضبط مشاعرها الحادة المستبدة وأن تعامل غيرها بأدب ، وأن تقبل على تعلم علوم الأخلاق والسلوك الصحيح ، بالإضافة الى القراءة والكتابة والحساب والفلسفة والطقوس الدينية وقواعد اللغة والانشاء .

ولكن عندما كان يحين وقت الظهر وتنتهى الدراسة فانها كانت ، على الأرجح ، من أوائل الذين يلقون بالقلم ، وتقوم من الأرض لكى

تمشى قليلا . وفي هذا الوقت تكون الشمس في كبد السماء الزرقاء الصافية - وشمس الوجه القبلى شديدة الحرارة في الواقع - بالرغم من أنها وغيرها كن يلبسن أرق الأقمشة الخفيفة التي كانت من نسيج الكتان الفاخرة المصنوعة باليد ، وكانت تجمع أطرافها وتطوى عند الخصر ، وبالرغم من أن حلقات الدروس كانت تعقد في بهو أعمدة مكشوف يواجه الجهة الشمالية الباردة ، فإن الجو في تلك اللحظة يكون قد اشتد قيظه الى حد لا يسمح بالدرس وتركيز الذهن . ولهذا السبب كانت المدرسة الملكية في بيت فرعون كغيرها من مدارس البلاد تبدأ في وقت مبكر في الصباح وتنتهى عند الظهيرة كما تفعل الكثير من مدارس مصر في الوقت الحاضر .

فاذا ما انتهى اليوم المدرسى ، وذهب المعلم القاسى المتقدم في السن ، أصبحت حثشبسوت مرة أخرى وارثة للعرش . فاذا ما أحست بالظما ، كانت هناك جارية لتخضر لها جرعة ماء في الاناء الفخارى الطويل الذى كان موضوعا ليبرد عندما يمر عليه النسيم ، وعندما كانت ترغب في غسل يديها قبل وجبة الغداء كانت هناك جارية أخرى تقوم على خدمتها عند مكان الغسيل المرتفع في الغرفة ، وتصب الماء المعطر على يديها .

فاذا ما حان وقت الطعام كانت تذهب مع أخيها غير الشقيق تحوتمس ، وكان شخصا واهنا ضعيف البنية اذا قارناه بحتشبسوت ذات العقل المتأجج والبنية القوية ليأكلا مع والديهما .

وفي المناسبات الرسمية كان الملك وأسرته وضيوفه يجلسون على كراسى مذهبة مزخرفة ويقوم الخدم بتقديم الطعام لهم .

ولكن عندما كانت الأسرة المالكة تتناول طعامها في الجناح الخاص فانهم كانوا يجلسون دون كلفة فوق أرائك غير مرتفعة ، تنحى أمامهم

خادمت صغيرات السن يقدمن لهم الطعام المقدس في صحاف ممتلئة يأتون بها من المطبخ وهى ساخنة • وكانوا يأكلون بشهية ، وكان الطعام مكونا من قطع لحم البقر ولحم العجل الطرى وطيور الماء المشوية ، ومن البط والأوز التى كانوا يأتون بها من مستنقعات البردى القريبة من شاطئ النهر ، ومن أسماك النيل والأرغفة المستديرة الطازجة والفطائر المصنوعة من دقيق القمح والشعير والبلح ، ومن العسل والجبن وينهون وجبتهم بكميات كبيرة من الفاكهة الطازجة اللذيذة الطعم ، مثل التين والكنب والقثاء (١) والبلح وتزينها زهور وأوراق وسيقان اللوتس الزرقاء ذات الرائحة الذكية • أما شرايهم فكان من النيذ أو الجعة المبردة فى أواني الفخار ، وإذا حدث أن أحست ملكة أو أمير بنشوة الشراب كما كان يحدث للرجال فانهم لم يروا فى ذلك أمرا مستهجنا • وعند نهاية الطعام كانوا يتعطرون بعطر زيتى يغرفونه من أوانيه بملاعق طويلة محفورة حفرا جميلا • وفى الولائم كانت السيدات والفتيات يصفن شعورهن بحيث يجعلن فى أعلى الرأس مكانا لوضع العطر الذى يضعه الخدم فوق شعورهن ، وكن يلبسن حول رقابهن عقودا من زهور اللوتس الزرقاء التى كن يفضلنها لجمالها وطيب رائحتها •

لقد عرفنا كل هذه التفاصيل الدقيقة وغيرها من الصور والنقوش البارزة التى يرجع تاريخها الى ذلك العصر • فقد كان هؤلاء الناس الذين عاشوا قبلنا بزمان طويل يحبون الحياة ، وتمتعوا بحياتهم الى درجة كبيرة ، وظنوا أنهم بتكليفهم للفنانين ومهرة الصانع بتصوير

(١) فى الأصل « البطيخ » ولكن المصريين القدماء لم يعرفوا البطيخ ، وانبا كانوا يعرفون انواعا عدة من الخيار والقثاء ، كما جاء ذكر الرمان بين انواع الفاكهة ولكن الرمان لم يكن قد أدخلت زراعته الى مصر فى أيام حتشسوت بل زرع فى أيام تحتمس الثالث بعد ذلك • (المراجع)

تلك الحياة بصدق وبهجة على جدران مقابرهم يستطيعون أن يحصلوا عليها مرة ثانية في العالم الآخر . وفوق ذلك فإن الرمال الجافة ومناخ مصر الحار غير المطر قد حفظ لنا برديات لا يحصيها العد ، وهى مؤلفات كتبها علماء مصحوبة برسوم ، وتتناول الشعر ، وبعض صفحات من التاريخ ، ومؤلفات فى القانون ، والطب ، ونظام الحكومة ، والزراعة ، وكتب عن الديانة والسحر ، وقصص الحياة الشخصية لبعض الناس ، وبذلك استطاع العلماء فى عصرنا الحديث بما امتازوا به من الصبر أن يكشفوا لنا عن أسرارهم .

ومع أن القصر الملكى فى طيبة ، لم يعد له وجود اذ هدمه فى القرن السابع قبل الميلاد الملك الآشورى آشوربانيبال عندما غزا مصر (١) فائنا نستطيع بفضل هذه السجلات الرائعة أن نرى صورة ما حدث تقريبا فى ذلك اليوم من أيام الصيف القائظة فى ذلك الزمان البعيد .

ففى داخل القصر نجد البهو الملكى المظلم الرطب بأرضياته وجدرانه الملونة بالنقوش الزاهية ، وأعمدته المزخرفة ، بينما كان الفرعون تحوتمس الأول ذلك المحارب العظيم وأحد مؤسسى الامبراطورية ، وكان قصير القامة ممتلىء الجسم ، وكان أصلع الرأس متوسط العمر ، قد أخذ هو وزوجته وابنه وابنته فترة استجمام ، وقد ارتدى الأربعة ملابس بيضاء يأكلون ويضحكون ويتحدثون . . وكانت خادמות القصر الصغيرات يرتدين ملابس بيضاء ولكنها أقل حجما وأكثر شفافية . وكان رئيس الخدم يراقبهن بحرص ليقدم المزيد

(١) كان كل ملك يبنى قصره ، وكانت كلها من الطوب اللبن ، وبالرغم من أنسا تعرف على وجه العموم أن آشوربانيبال هدم الكثير من مباني طيبة وأحرقها فليس هناك أى دليل على أن قصر تحوتمس الأول ، أو حتى بقاياه ، كانت قائمة فى القرن السابع قبل الميلاد . (المراجع)

من الطعام ، وكان رئيس الطهارة يحوم على مقربة من الباب مؤملا
تقدير ما بذل من جهد •

وفي الخارج ، خلف الحدائق والأسوار المحيطة بالقصر ، كانت
تقوم مدينة طيبة عاصمة القطرين أى مصر العليا ومصر السفلى وقد
بنيت مساكنها بالطوب اللبن ، وكانت المساكن - كما هى اليوم -
وبداخلها صوامع الغلال المخروطة الشكل ، ذات سطوح مستوية
يجفف الناس عليها ملابسهم نهارا وينامون عليها فى ليالى الصيف •

وكانت مساكن رجال البلاط والقواد وأسر النبلاء ، تحاط مثل
القصر بأسوار مستطيلة عالية ، وفى داخلها الحدائق • وفيها تنمو
الأشجار الظليلة والنباتات المزهرة ، وكان لكل حديقة بركة تنبت
فيها أزهار اللوتس ينتعشون بمياهها الزاخرة بالأسمك التى تمنع
توالد البعوض •

وقد عرفنا من حياة حتشبسوت فيما بعد أنها كانت تحب الزهور
والحدائق والأشجار وكل شئ ذى أريج زاهى الألوان ، ولكنها كانت
طفلة فى ذلك الوقت ومن المحتمل أنها كانت تنهر بستانى القصر بشدة
وتأمر بجلدهم عندما يهملون ملء بركة أزهار اللوتس فى أيام انخفاض
النيل أو عندما ينسون رى النباتات ، فلاشك فى أن حتشبسوت
كانت طفلة محبة لإظهار سلطتها •

وخلف المساكن والضياع الكثيرة كان يقوم معبد آمون اله مدينة
طيبة الذى كان على هيئة الكبش ، وكانت تجرى فيه بعض عمليات
البناء ، وكان يقف بالمدخل جمع من أهالى طيبة وهم ينظرون فى دهشة
الى جذوع الأشجار الكبيرة ، وهى أشجار ضخمة لا ينمو مثلها فى
مصر ، ينظرون اليها وهى تنقل من السفن الى الشاطئ يدرجونها

فوق « ورافيل » الى حيث كان نحاسو الأحجار يعملون في كتل من الحجر الجيري الناصعة البياض ، وكان يمنع أولئك الناس من الاقتراب حراس متكئون على حراهم يراقبون في بلادة الأرقاء وهم يكدون في الجربال . وكانت الأرض كلها ملكا لفرعون ، وعلى كل فرد أن يقوم بنصيبه من العمل في المباني العامة سواء في المعابد والقبور التي يشيدها ويجملها « جلالتة » ، أو في مشروعات الري واقامة السدود .

ومن أقدم ذكريات حشيسوت ، ما أحنست به لأول مرة نحو سر معبد آمون وقدس الأقداس الداخلي الذي كان يسم « بيت الله » حيث يظهر الاله ذو الرأس التي على هيئة الكباش ، ومن بين الظلام يتقبل ، دون أن يتحرك ، قرايين الطعام والزهور والبخور التي يقدمها أبوها والكهنة .

وفي أيام الدولة القديمة عندما كانت عاصمة مصر في منف على بعد مئات الأميال نحو الشمال ، وفي أيام الدولة الوسطى ، عندما كان لكل اسيرة اقطاعية حاكمة الهها الخاص بها ، كان آمون الهها محليا فقط ، الهها محليا معبودا في مدينة لا أهمية لها من مدن الوجه القبلي . ولكن طيبة قد أصبحت الآن مدينة هامة ، وأصبحت مقرا للحكومة في الدولة الحديثة وعاصمة امبراطورية مترامية الأطراف ، وأصبح الهها آمون الهها مهما أيضا ، وكان الناس ينظرون اليه باعتباره واسطة تصل دعوات الناس وابتهالاتهم الى الآلهة الأخرى عن طريقه ، وكانوا يطلقون عليه لقب « ملك الآلهة » (١) .

(١) في الأصل الانجليزى وزير الآلهة ، ولكن لقبه الحقيقى هو « ملك الآلهة » .
(المراجع)

وعدد الآلهة والآلهات التي ترسم ولها رؤوس على هيئة رؤوس الحيوانات في مصر القديمة كبير جدا ، وسبب ذلك أنه في عصور ما قبل التاريخ كان لكل منطقة قبلية حيوانها الطوطمى ، فكانت بوسطة في دلتا النيل تتخذ القط ، وفي منف كان الثور ، وفي الفيوم التمساح ، وفي غيرها كان العقاب والبقرة وابن آوى والأسد والحية وطيور الأييس ، ... الخ •

وعندما تطورت الديانة أصبحت هذه الطواطم معبودات ، آلهة وآلهات يحمى كل منها المدينة وما حولها ، مثل آمون اله طيبة ، وانضوت كل هذه الطواطم القديمة تحت سيادة آلهة مصر العظام مثل رع اله الشمس وأوزيريس اله النيل والعالم الأسفل وإيزيس أخته وزوجه • ولكن الطواطم التي على صورة الحيوانات ظلت محتفظة بكل مميزاتها الخاصة • فكانت حتحور البقرة ، والتي كانت مقدسة للحب والجمال ، تمثل اما على شكل بقرة واما على هيئة امرأة ذات وجه عريض ولها جدائل شعر ملتوية على شكل القرنين ، وأذنان كأذني البقرة • وأصبح الصقر الذى كان يمثل أحيانا في صورة نصفها طائر ونصفها انسان رمزا للاله حورس ابن أوزيريس ، وكان الاله ذو الرأس التي على هيئة ابن آوى رمزا لأنوبيس اله الموتى ، والعجل أييس اله الزراعة ، وطائر الأييس ذو المنقار الطويل رمزا للاله تحوت الرسول السماوى واله الكتابة والرياضيات والطب والسحر ، وقد سمي والد حتشبسوت باسم تحوتمس أى « تحوت قد ولد » نسبة اليه •

وكانت حتشبسوت تتابع انتصارات أبيها تحوتمس في النوبة وسورية وبلاد ما بين النهرين بالاعجاب والفخر وأحست وقتئذ أنه كان يجدر به أن يحيى ذكرى تلك الانتصارات بتوسيع وتجميل معبد آمون •

ويمكننا أن نتخيل فرعون بعد أن تناول وجبة الغداء وقد استدعى أنينى مهندس الأول ليعرف منه على وجه الدقة كيف كانت تسير عمليات البناء والوقت الذى ستنتهى فيه هذه العمليات ، ولا شك أن حشيسوت قد استمعت الى ذلك باهتمام ، وأحست بالحسرة لأنها لم تكن الالفة ، اذ لو كانت صبيا لتيسرت لها الفرصة فيما بعد لتبنى معابد ضخمة وتترك آثارا خالدة لتمجيد الالهة وتمجيد مصر .
انها لن تشيد أهراما ، لقد بنى الأجداد أهرامهم ليؤكدوا ألوهيتهم الأبدية ، ولكن بالرغم من كل المداخل الخفية والممرات السرية وغرف الدفن الوهمية التى ابتكرها مهندسونهم وبنوها لهم ، فانهم لم يستطيعوا منع لصوص المقابر من شق طريقهم الى أسرارهم الخفية والاعتداء على موميائهم الملكية للحصول على ما كان معها من أشياء ذهبية . لقد انتهت أيام تشيد الأهرام وأصبح الفراغة يعترفون الآن ، بتشيد معابد للالهة تحمل أسماءهم .

وكان تحوتمس وكبير مهندسيه أنينى يناقشان موضوع البوابتين الجديدتين اللتين تقرر تشييدهما أمام المعبد ليكون مدخل المعبد أعظم روعة ، وسيكون للبوابة برجان عاليان ، ييلون ، تنقش عليه انتصارات تحوتمس بالنقوش والكتابات . وسينقش على هذه المباني اسمه الملكى وشعاره باللغة الهيروغليفية داخل خانات (ونحن نطلق على هذه الخانات الملكية اسم خرطوش) وسوف يكون هناك بهو مستوف يربط بين البوابة الخارجية والداخل ، ويرتفع سقنه فوق أعمدة ضخمة من أشجار الأرز التى جلبوها من لبنان - احدى المناطق التى أصبحت تابعة لمصر منذ عهد قريب . وكان فى استطاعة أنينى أن يخبر صاحب الجلالة أن جذوع الأشجار الضخمة كانت فى تلك الآونة ترفع من السفن التى حملتها فوق مياه النيل آتية بها من عرض البحر ، وأن

أمهر حفارى الخشب وغيرهم من مهرة الصنّاع فى البلاد قد استعدو
فى موقع البناء ، وهم على استعداد بيّدوا العمل فى الحال • وأظهر
تحوّمس رضاه ، ولكن كانت لديه وقتئذ فكرة جديدة ليناقشها
مع أنينى • فلكى يزيد جمال المعبد الى أبعد حد كانت لديه الرغبة فى
اقامة مسلتين من الجرانيت تنتهى كل منهما برأس مثلثة مذهبة تتجمع
عندها أشعة الشمس ، وعلى هاتين المسلتين سوف يدون الى الأبد
كأحد الأفراغة اسمه وأعماله العظيمة • وحتى أنينى رأسه بوقار ، فإن
رغبات جلالته يكفى أن تذكر فقط • • وكل ما يستطيعه خادمه
المتواضع هو أن يرجو أن يعطى فسحة من الوقت ليكمل البوابات
وأبهاء الأعمدة ••••

وعندما أخذ النوم يداعب جفنى فخشيت بعد الطعام ، شرد
ذهنها بين الرجلين • وفى داخل القصر كان الضوء خافتا والمكان قليل
الحرارة نسبيا • أما فى الخارج فكانت الشمس فى عنفوانها وهى فى
كبد السماء الصافية ، وكانت الحرارة تعم وتذيب كل شىء وتحيله الى
صورة واضحة المعالم • وعندما تطلعت الى النيل العظيم كان من العسير
عليها أن تفرق بين المياه البطيئة الجريان الخضراء اللون وبين الأرض
اللهم الا أن المياه تبدو مرقطة ببقع بيضاء وهى القلوع التى تدفع
بالسفن وهى تمضى مصعدة فى النهر مستعينة بالرياح التى تهب من
الشمال ، أما عندما كانت تلك السفن تتجه نحو الشمال فانها كانت
تعتمد على التجديف ، اذ كانت لها مجاديف على الجانبين ، وكان لها
مجداف كبير لتوجيهها نحو اليمين أو اليسار وكانت مقدماتها
ومؤخراتها مرتفعة وتتجه نحو الداخل ، شبيهة بسنابل القمح المحزومة
وقد انحنت رءوسها عند هبوب الريح •

وكانت هناك معدية تنقل الفلاحين عبر النهر الى القرى والمزارع

على الشاطئ المقابل الذى كان على وشك أن يغمر بمياه الفيضان عندما يرتفع النهر بعد أسابيع قليلة ، وعندئذ يختفى ذلك الشريط الضيق من الأرض الخصبة الخضراء وتحل مكانه صحراء دهناء اللون لها قمم صخرية خشنة قاحلة لا زرع فيها ولا حياة ، وتختلط أغاني البحارة وهممة الكلام والضحك بصراخ الحداة وهى تحوم فى السماء • كان قدماء المصريين قوما مرحين بالرغم من أن حياتهم كانت ملكا للفرعون وكانت حريتهم محدودة كما نعرف تمام المعرفة •

ولم تعد حشيشبوت تسبح بعد الغداء هذه الأصوات البعيدة • وانتهى الحديث الذى كان يدور بالداخل أيضا • وانصرف أيني الى بيته القريب ونسج الصمت خيوطه على كل القصر فى ساعة القيلولة حتى أصبح تشبيها بقصر أسطورة الأميرة المسحورة ، حتى البواب ، فقد غلبه النعاس فى حجرته • والحراس ؟ حسنا ، فليس هناك من بينهم من ظل يقظا فيرى أو يروى • ان هذا هو الوقت الذى تدير فيه الشمس رءوس القوم وتضطرمهم الى النوم فينطفئ نشاطهم كما ينطفئ النور ، وبينما كانت تنام فى الحجرات الداخلية فى القصر ، ورأسها مستلقية فى راحة على مسند رأسها الخشبي المحفور فى ذلك الوقت الشديد الحرارة ، فهل كانت هذه الفتاة الملكية تحلم بما تتمنى أن تحققه من القوة والعظمة (التى كانت تنتظرها) وذلك المجد الذى لا مثيل له عندما تتوج وينادى بها ••• هى ••• المرأة فرعون على مصر ؟ أم أنها كانت تحلم بأشياء صبيانية ••• بقلادة جديدة من الأحجار الملونة المقطوعة على شكل أوراق الزهور ؟ أو بسوار من الذهب النوبى كهدية من هدايا العام الجديد ؟ أو بالتغلب على تحوتس الصغير فى لعبة الداما أو على والدها فى لعبة من ألعاب الزد ؟ ••• أم أنها كانت تحلم بالحب ؟ اتنا نستطيع أن نخمن وأن

يستولى علينا العجب ، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نفعله ما دمنا لم نحصل على يومياتها أو كتاب معترف به عنها ليرشدنا الى الحل الصحيح . ولكن الحلم بالوقوع في الحب لم يكن الا كروية السراب ، فقد كان حظها في الزواج مرتبطا بالمولد والتقاليد وليس لديها حق الاختيار . كان عليها أن تتزوج من تحوتمس ، أخيها من أبيها ، تلك الشخصية الواهنة الرقيقة اذا قورنت بشخصيتها الشيطنة .

ان زواج الأخ من أخته وغير ذلك من صلات القرابة الضيقة ، عند الفراعنة ، أصبحت أمورا تبدو أمامنا الآن بعيدة غامضة ، ومع ذلك فلها تفسير بسيط . كانت النساء في مصر هن أصحاب الحق في الملكية وكانت الوراثة تنتقل بينهن ، وحتى الملك يصبح فرعون حاكما عن طريق زواجه بالوراثة للعرش .

كانت أم حتشبسوت الملكة أحمس من السلالة الملكية القديمة التي كانوا يعتقدون أنها من نسل الشمس ذاتها . وقد استطاع تحوتمس الأول ، وكانت أمه من عامة الشعب ، أن يخلف أباه أمنحوتب الأول على العرش بصفة شرعية عن طريق زواجه بالملكة أحمس (١) . وقد أصبحت حتشبسوت ابنتهما الثانية هي الوراثة للعرش عندما ماتت أختها الكبرى الأميرة الصغيرة « خيننت - نفرو » ، ولم يكن لهما ابن ذكر ليتولى العرش على هذا سوف يتول تاج الفراعنة المزدوج الى تحوتمس أخى حتشبسوت من أبيها اذ كان ابنا لتحوتمس الأول من احدى الزوجات الثانويات ، وكان يتحتم عليه قبل أن يضع التاج على رأسه وينادى به الشعب فرعون لهم ، أن يتزوج من

(١) لا يوجد في الوثائق المصرية القديمة ما يثبت ان تحوتمس الأول كان ابنا لامنحوتب الأول او ان أمه كانت من عامة الشعب ، وكل ما يمكن أن نقوله منه انه كان من أمراء البيت المالكة . (المراجع)

حتشبسوت الوارثة الشرعية للعرش • وعلى هذا فانه — بالنسبة لها وله — لم تكن هناك فرصة أخرى للاختيار • فهل كانا يدركان ذلك ؟ من يدري ؟ فلم يصل إلينا أى دليل نعرف منه حقيقة احساسهما نحو بعضهما البعض • كان زواجهما وقتئذ فى طى المستقبل البعيد اذ لم يكونا غير طفلين فى ذلك الوقت يحلمان فى مثل تلك الساعات القائظة من الظهيرة فى القصر النائم فى ذلك الزمان السحيق •



والأطفال هم دائما أول من يستيقظ بعد نومة القيلولة • وهذا ما كان حادثا فى القصر الفرعونى بمدينة طيبة • كان لحتشبسوت رفيقات لعب كثيرات ، ونظرا لما كان فيها من نشاط وحيوية فمن المؤكد أنها كانت تتمتع باللعب معهن سواء فى قاعات القصر أو فى الخارج فى الحديقة • وكان هناك فى بركة اللوتس سمك يداعبه بأعواد من القش وربما كانت هناك ضفادع أيضا • وكان بعض الملوك يحتفظون فى برك حدائقهم بحيوانات أكثر غرابة ، فقد أرسل آخر ملك من ملوك الهكسوس شكوى الى أمير طيبة يقول فيها ان الصوت الذى تحدثه أفراس النهر الموجودة فى بركة قصره بضايقه وعليه أن يسكتها والا ••• وقد دخلت أفراس النهر هذه فى التاريخ ، لأن شكوى الملك الهكسوسى والاستحالة الواضحة فى امكان المحافظة على هدوء أفراس النهر ، كانت القشة التى قصمت ظهر البعير ، وأصبحت الشرارة التى ألهمت الثورة المصرية وأدت الى اثصرات جد حتشبسوت العظيم على هؤلاء الأجانب البغيضين الذين كانوا يعيشون فى مصر •

وربما كانت هناك حية لامعة الجلد قد شربت من الماء ثم انسلت بعيدا ، فقد كانت الحية مخلوقا مقدسا ، وكانوا يعبدونها وكان والد

حتشبسوت يحمل حية مرصعة بالأحجار الكريمة كجزء من التاج الفرعوني - « الأوريوس » - المعروفة باسم « سيد الحياة » ، وهي حية ذات درقة منتشرة وكانت على استعداد لتهمج وتقتل أعداءه ، وفي الاستطاعة أن تحمل حية مرصعة في تاجك ، ولكنه من الحكمة مع ذلك أن تتعد عن الحية التي تراها في الحديقة ، فقد تغضب الآلهة الحامية على بعض أتباعها أحيانا •

وكان من الممكن زيارة الاضطرابات الملكية عندما تقل بهجة الحديقة وفي ذلك اليوم كان ملاحظ الجياد قد أبلغ أن احدى الأفراس علي وشك أن تضع مهرا ، وربما يكون المهر قد تمت ولادته فعلا • فقررت حتشبسوت أن تذهب لترى ما هناك ، لأنها كانت تحب الجياد المتوقدة نشاطا ، المجلوبة من آسيا ، وكانت تستمتع بالركوب في العربات الصغيرة ذات العجلتين التي تجرها تلك الجياد ، وهي تسرع قدما وقد تطايرت أعرافها وذيلها في الهواء • وتحتاج قيادة هذه العربات الى فروسية وتوازن كبيرين اذ لا بد لك من أن تقف منتصب القامة عندما تركب مثل هذه العربة وتقودها ، وكانت حتشبسوت تمسك جيدا بأبيها عندما كانت تركب معه •

وكان يمكنها الاستماع الى فرقة موسيقى القصر ، وتصفى الى الفتيات وهن يلعبن على آلات وترية ذات رقاب طويلة وهي الطنبور (أو العود) وعلى آلات الجناك (الهارب) الصغير ليصاحبن أحد المغنين • كما كان هناك العازف الأعمى الذي كان يبدو رجلا كهلا للأطفال الذين كانوا يحبون الأغاني التي يغنيها أو قصص البطولة التي يرويها لمستمعيه ، ولادخال السرور على قلوبهم كان هناك آيسا راتون من الرجال والنساء ولاعبو الأكروبات والحواة والحيوانات التي تؤدي بعض الألعاب • ان الحياة لم تكن مملة أبدا في القصر الملكي بمدينة طيبة •

وعندما يكون لدى أيها فسحة من أعباء الحكم فانه كار
يستصحبها هي وأما عندما يخرج الى المستنقعات لصيد بط الماء •
كانوا يذهبون في زورق خفيف ويتقلون به في هدوء بين سوق
النباتات المائية الطويلة ، مثل البوص والبردى وذلك حتى لا يضيعوا
فرصة الصيد • وهناك كانت تكمن بعض الأخطار كما كانت تتيسر
المتعة فأحيانا توجد التماسيح وأفراس النهر التي يمكن أن تعك
عليهم صفوهم •

كانت حشيشسوت تستمتع بمثل هذه الرحلات وما فيها من
مغامرة • كانت تجلس في الزورق وتبد يدها الى الماء وتعبث بسيقان
اللوتس وتلتقط الأزهار الزرقاء والوردية اللون لتضعها في شعرها
الفاحم ولكنها لم تكن لتستطيع أبدا أن تشارك في الفرح العامة
عندما يصيب سهم هدفه ، ويفر طائر ويسقط ميتا ، فقد كانت تحر
الحياة والأشياء الحية ولكنها لم تكن محاربة أو صائدة مثل أبيها •

ولكن الحزن حل يوما من الأيام في حياتها السعيدة • فقد وقعت
أما الزوجة الملكية العظمى الملكة أحمس ، والتي كانت تحبها من
أعماق قلبها ، فريسة للمرض الذي أودى بحياتها • ووقتئذ تبدل كل
شيء أمام عيني حشيشسوت وعرفت لأول مرة فقط معنى الحزن •
كانت الملكة أحمس امرأة ذات روح مرحة وتتضح شخصيتها بجلاء
في الرسوم البارزة التي بقيت لنا لنراها بعد موتها بزمان طويل على
جدران المعبد الرائع الذي بنته ابتها الفرعون حشيشسون في الدير
البحري • ويبدو على ملامح وجهها الجد والرقرة والحزم واحساس
لطيف بحب المرح ، فاذا نظرنا الى صورة ابتها على مقربة منها يمكننا
أن نقول ان حشيشسوت قد ورثت عن أمها أنفها الأرستوقراطية وعينيها
المستطيلتين وذقتها المستدير • ولم تكن الملكة أحمس على جانب كبير

من الجمال ، وكانت حتشبسوت أكثر جمالا ولكنها كانت جميلة في
عينى ابنتها التى كانت تحبها • وهذه الصور المنقوشة على الحجر
ملونة ، ولا تزال الألوان واضحة ومحفوظة ، والبسمة الحانية التى
تعلو وجه الملكة تضىء الصحراء القاحلة ويتردد صداها فى الفراغ
المحيط بها • وفى واحدة منها ترى الاله تحوت وهو يقدم الملكة الى
آمون وينص نقش حتشبسوت « أن اسمها أحمس وهى أجمل من أية
امرأة أخرى » والآن ها هى قد أصبحت فى عداد الموتى ، وخلا القصر
من بسمتها وصوتها ، وضحكاتها لم تعد هناك لتلجأ اليها حتشبسوت،
ان ألم بها كرب ، أو عند حاجتها اليها لتشرکہا فى سر أو دغابة
وخلال تلك الأيام السبعين التى تحنط فيها الجثة ويقوم الكهنة
بالطقوس الجنائزية الى أن ينتهى الأمر بوضع التابوت الحجرى فى
المقبرة التى نحتت فى الصخور التى على الجانب الآخر من النيل
كانت حتشبسوت تلجأ على ما يظهر الى مربية عجوز باحثة عن الراحة
ولتشدد من عزيمتها ، وكانت هذه المربية أيضا من اللائى كن قد أحبين
الملكة الوديدة أحمس •

وكانا يتخيلان معا الملكة الراحلة وهى راكبة فى مركب الشمس
وهو يقوم بالرحلة فى بلاد الغرب الموحشة وفى أثناء الليل تسير نحو
الأفق الشرقى • وهناك يركب الاله رع من جديد مركب النهار
بينما تبقى هى لتصبح « روحا مضيئة » وكان الكهنة يرتلون عند
صلاة الدفن : « قولوا لها المرح لأنها قد وصلت الى الأفق » •

وكانا يتخيلان معا أيضا أحمس وهى واقفة فى ساحة المحاكمة بين
الآلهة ليوزن قلبها مقابل ريشة واحدة رمز الصدق والاستقامة ، فان
كانت خطاياها كثيرة الى الحد الذى تميل كفة الميزان فان الوحش
الغريب الخلقة « عمعت » الذى يقف الى جوارها ، والذى يبدو جزء

منه على هيئة تمساح وجزء على هيئة أسد وجزء على هيئة ضبع وجزء على هيئة فرس النهر ، يلتهمها في الحال • ولكن ابتنها ومريبتها كانتا واثقين تماما من أن قلبها كان تقيا وأنها لن تكون في حاجة الى الجعران الموضوع فوق صدر مومياتها ، وقد نقش على جعران القلب هذه الكلمات « يا قلبي لا تكن شاهدا ضدي » وسوف يكون قلبها أخف وزنا من الريشة التي في الكفة الأخرى من الميزان ، وسوف يسجل تحوت كاتب المحكمة ذلك على برديته ، وسوف يقودونها للمثول أمام كبير القضاة أوزيريس الجالس على العرش باعتبارها روحا بريئة ، وسوف يمضي الوحش عممت في ذلك اليوم جائعا •

وربما كانت وفاة أحمس هي السبب في تحول ابتنها بشكل واضح نحو الدين ابتغاء السلوى والعزاء ، اذ ترى في نقوش وكتابات حتشبسوت أنها كانت امرأة متدينة جدا وتحس بفؤادها بالقوى الكامنة وراء القوى الدنيوية التي تحيط بها احاطة تامة ، ونظرا لموت أمها « الزوجة الملكية العظيمة » أخذت هي مكان الصدارة باعتبارها الوارثة لعرش مصر • ولكي يستمر أبوها في حكمه بصفة شرعية وأن يظل الشعب راضيا ، عليه أن يشركها معه في الحكم • • ملكة تحكم الى جانبه بمقتضى حقها • وذهبت عنها في لمح البصر حرية طفولتها وأصبحت مرغمة على المشاركة في حمل الأعباء والمسئوليات التي تقع على عاتق كل ملك مطلق السلطة •

كانت أعمال الدولة التي يجب أن تمر بين يدي فرعون ثقيلة ومتشعبة وكان عليه في كل يوم أن يوقع كثيرا من أوراق الدولة ، كان عليه أن يعتمد عقود تسليم وهبات للمعابد والمقابر ، مقابل ما يقوم به الكهنة من خدمات وقرايين ، وكان عليه أيضا أن يسهر على الأشغال العامة من مبان وقنوات ومناجم ، وأن يسهر على قانون البلاد ، وعلى

الجيش ، وعلى الزراعة ، وأن يقابل البعثات الأجنبية ويتلقى الجزية وأن يطلع على تقارير الحكام ورؤساء الحاميات في الجهات البعيدة من الامبراطورية ، ويجب عنها •

• وكان هناك وزيران رئيسيان يقومان بعمل كل شيء له ، وكان وزير الشمال يعيش في منف (١) ، أما وزير الجنوب فكان في طيبة ، وكان هو القوة الكبرى في البلاد بعد سيده الملك ، وكان لمنصبه أكبر نصيب من المسئولية ، وكان عليه أن يقسم أمام الآلهة عند تنصيبه بالألا يسمى استخدام سلطته ووظيفته الكبيرة ، بل يعامل كل فرد معاملة عادلة صغيرا كان أو كبيرا فقيرا أو غنيا ، وأن يتأكد من أن جميع موظفيه يسرون على هذا السنة • لم يكن هناك برلمان أو جمعية عمومية لتختار الوزير وتعين من يساعده ، بل كان فرعون نفسه هو الذى يختارهم جميعا على أساس ما يلمسه فيهم من قوة خلق ومقدرة •

وكان وزير الجنوب يأتى الى مكتب فرعون في كل صباح ويقدم له تقريرا عن حالة البلاد ، كان يأتى اليه معه عرائض لا يحصى العدد ، ووثائق للبت فيها والتوقيع عليها ، وكان عليه أن يرتب رحلات يقوم بها فرعون على صفحة النيل ، الشريان الرئيسى في البلاد ، ليزور المدن في الشمال وفي الجنوب ليراه شعبه ويتأكد بنفسه من أن كل شيء يسير سيرا حسنا • وكانت حشيشسوت بصفتها شريكة في الملك تشترك في هذه الرحلات ، ونستطيع أن نقول ونحن واثقون أنها كانت مهتاجة الاحساس وتشعر بسعادة خاصة عند ترتيب إحدى تلك الرحلات

(١) في الأصل الانجليزى ان مقر وزير الشمال كان في « اون » مدينة الشمس ومكانها هليوبوليس ، ولكن الحقيقة انه كان في منف • (المراجع)

وكان تحوتمس الأول قبل كل شيء رجلا عسكري النشأة • لقد قاد بنفسه جيشه المكون من الرماة وراكبي العربات عندما قام بحملاته الناجحة خارج البلاد وكان رجاله يحبونه كل الحب لشجاعته ، وحسن زمالته ، وقيادته الملهمة وكان يهتم كحاكم للبلاد بحالة الجيش أكثر من أى شيء آخر ، وكانت ابنته هى التى أظهرت النبوغ فى حكم البلاد فى السلم والادارة الصالحة وهى السياسة التى استفادت منها البلاد فيما بعد فائدة كبرى •

وبعد انتهاء زيارة الوزير ، يأتى رئيس الخزانة ليقدّم تقريره اليومى عن حالة البلاد المالية • كانت الضرائب تدفع من المحاصيل نفسها وكان مقدارها فى العادة خمس المحصول إذا كان جيدا • كان جامعو الضرائب يستولون على خمس الزيت والحبوب والكتان والقمح والصوف والخضروات وجميع المحاصيل الأخرى التى ينتجها الشعب ، وكانت الحبوب تخزن فى أهراء كبيرة وتبقى تحت تصرف القصر • ومن الاختصاصات التى كانت تحت اشراف رئيس الخزانة موضوع الجزية الأجنبية فقد كان يتختم عليه أن يتأكد من أنها تدفع فى وقتها المحدد لها وأنها هى الكمية الصحيحة ، ومن الأنواع اللائقة ، قبل أن يقيد كبير الكتاب جميع مفرداتها وتنقل لايداعها فى مبنى خاص فى طيبة يسمى « البيت الأبيض » وكان هذا البيت فى تلك الأيام ممثلا الى آخره ولا يكاد يتسع لجميع أنواع الجزية التى كانت ترسل الى مصر من بلاد النوبة وآسيا منذ أن قام تحوتمس بحروبه •

كانت حتشبسوت وزميلاتها قد تعلمن أنه بينما كان للبلاد الأخرى نيل فى السماء « أى كانت تعيش على المطر فقد كان لمصر » نيل ينبع من العالم الأسفل « وأنه كان نهرا مباركا • انهن لم يعرفن شيئا عن منابعه فى الجبال التى تقع الى الجنوب • ففى « ليلة النقطة »

وهى تحدث مرة واحدة فى كل عام كانت الالهة ايزيس تذرف دمعـة واحدة ، وعند ذلك يفيض ذلك النهر الغامض العجوز وتزداد مياهه ويتحول الهواء الجاف الى هواء مشبع بالرطوبة ، وتصبح ملابس الناس وجلودهم لزجة الملمس ، ويكثر البعوض والحشرات الأخرى وينتشر المرض فى كل مكان ولكن لم يكن أحد يهتم بذلك فالنيل يرتفع لأن أوزيريس قد أرسل الفيضان السنوى •

وفى عيد « بدء النيل » كان الكهنة يضعون تمثال الاله آمون فى سفينة مقدسة ويخرجون به من معبده فى طيبة ويجدوفون به على صفحة النيل ليقدموا القرابين الى المياه • وقد ذكر اليونان بعد ذلك العصر بألف سنة أن القربان الأكبر فتاة حية ، وسواء أكان ما قالوه صحيحا أم غير صحيح أو أن تلك العادة لم تمارس الا بعد العصر الذى نتحدث عنه ، وهو الأسرة الثامنة عشرة ، فان ذلك شىء لا نعرف عنه شيئا لأنه لم تصل الينا أية وثائق خاصة به (١) • وما من شك فى أن فرعون ، وكان هو الآخر الها يعيش بين الناس ، وكان يقدم هو والكهنة المأكـل والزهور والتبـيذ والجعة الى أوزيريس عندما كانوا يتהלون الى الاله آمون ليكون الفيضان مباركا •

كان الناس يتهجون ويمرحون مرحا شديدا فى الاحتفال بالنيل (ومازال المصريون يحتفلون بذلك العيد حتى الآن ولكن فى صورة مختلفة) • كانت السفينة المخصصة لذلك الاحتفال سفينة فخمة تليق بالاله ، وكانت تظل فى مكانها فى المعبد طيلة أيام السنة ، ولكن الآن وقد سحب الناس جميع السفن العادية من الماء ووضعوها فى أماكن

(١) لم يتحدث الفراعنة أو اليونان عن تقديم فتاة قربانا للنيل ، وانما كان بذلك الوصف الغريب محض خيال تمخضت منه مخيلة كاتب مرقى وهو ابن عبد الحكم .
(المراجع)

أكثر ارتفاعا من المستوى الذى يتوقعون أن تصل اليه مياه الفيضان وتوقف سير السفن حتى تعود المياه الى هدوئها ، فان سفينة آمون خرجت وسارت على صفحة النيل فى عظمة ليقوم الاله بنزهته •

وأخذ النهر يرتفع بالتدرج حتى هدم شاطئيه ، وغطى الفيضان الحقول المزروعة فأغرقها ، وأصبحت القرى مثل الجزر فى وسط المياه ، وكثيرا ما اكتسحت مياهه الحمير والماشية والكلاب ، وفى بعض الأحيان الناس أيضا • ولكن الثمن الذى كانت تدفعه البلاد قليل اذا قورن بالخيرات المنتظرة وذلك الماء الأسمر المحمل بالغرين الذى يجلبه النهر معه ، كان النيل يجلب الطمى والحياة والخصب ، وهو أحد عجائب الدنيا • وبعد قليل ، عندما تصبح مياه الفيضان أشبه بمرآة تنعكس فيها السماء وبعد أن يكون باذر الجيوب قد خرج ليذرهما وقد جمع ملابسه ولفها حول خصره ، يأتى اليوم الذى يصبح فيه مكان تلك المياه مرة أخرى حقولا خضراء تتماوج زراعتها • حقا انها المعجزة •

ان كل شئ يعتمد على الفيضان ، ليست المحاصيل فحسب بل الحيوانات والناس • لقد قال هيرودوت المؤرخ الاغريقى ان « مصر هبة النيل » ومازال هذا صحيحا حتى اليوم كما كان بالأمس بالرغم من وجود الخزانات الحديثة التى تسيطر على الفيضان وتنظم تصريف مياهه •

وكانت التقارير الخاصة بارتفاع مياه النهر ترسل الى الوزير فى طيبة يوميا ليرفعها الى فرعون ، وكانت هذه التقارير تبعث بها المحطات المخصصة لقياس هذه الزيادة وتسمى « مقاييس النيل » أقاموها فى أماكن بارزة فى داخل النهر • ويمكن للانسان أن يرى مابقى من تلك المقاييس فى جزيرة الفنتين وفى أسوان وجزيرة الروضة بالقاهرة •

وكان يتوقف تقدير مقدار الضرائب في السنة القادمة ومشروعات الزراعة على ارتفاع الفيضان في هذه السنة ، اذ أن الفيضان القليل يعنى المجاعة أو الفاقة على الأقل ، ولهذا كانت الضرائب تحدد على أساس قيمة أقل من القيمة المعتادة ليساعدوا الناس على اجتياز ما يصيبهم من محنة • وكان فرعون هو الشخص المسئول عن جميع المشكلات التى تؤثر في كيان البلاد كلها وكان من المحتم على حتشبسوت أن تتلقى الدروس فيها وتلم بها في وقت مبكر من حياتها.



كان تنويج فرعون وطقوس اعتلائه للعرش على أكبر جانب من الأهمية من ناحية العقيدة الدينية ، لأنه لم يكن الحاكم المطلق التصرف في البلاد فحسب ، ولكنه كان أيضا الكائن الذى تجسد فيه الاله حورس بن أوزيريس الذى تعتمد عليه حياة البلاد وخصبها • وقبل أن يتم عمل الطقس الأخير من طقوس تنويج حتشبسوت ووضع تاج مصر المزدوج فوق رأسها في معبد آمون في طيبة كان على حتشبسوت أن تقوم برحلة تقليدية الى مختلف معابد الآلهة الأخرى في أماكن عدة في البلاد فيما بعد على جدران معبدها في الدير البحرى وذلك بعمل رسوم بارزة ومنحوتة في الحجر ، وبالكتابات الهيروغليفية •

وهذا هو وصفها لتلك الرحلة : « وكانت جلالتها فتاة جميلة • • بدأت جلالتها الرحلة نحو الشمال تابعة لأبيها ملك الوجه القبلى والوجه البحرى • • له الحياة الى الأبد • لقد ذهبت الى أمها حتحور أميرة طيبة والى الآلهة « بوتو » سيدة « توب » والى آمون رب عرش الأرضين • • وكانوا جميعا مسرورين منها » •

وعندما أصبحت ملكة على البلاد قدمت القرايين في المعابد وأقامت التماثيل وأصلحت كل ما كان مخربا ، وفي مقابل ذلك كانت تقدم اليها تلك المعابد شارات الملك التي كانت لمدنها عندما كانت عواصم الأقاليم مستقلة •

وعندما عادت الى طيبة ، تمت مراسيم تتويجها وجلست على العرش وكان اسم العرش الخاص بها « كا - ماعت - رع » بنت الشمس ، ونراها في رسوم هذه الطقوس التي نجدها في معبد الدير البحرى تقف بين كاهنين يمثلان الالهين حورس وست وهما يضعان تاجى الصعيد والدلتا فوق رأسها •

وعند ذلك عانقها أوها وقدمها الى كبار الموظفين وأشراف البلاد الذين كانوا مجتمعين هناك ، وفي هذا المنظر نراها في صورة شاب يقف أمام الملك وعلى احدى يبلونات تحوتمس في الكرنك نراه يكمل القصة قائلا : « تعالى أيتها (١) المباركة ، انك أنت الشخص الذى أخذ بين ذراعى ، لكى ترى جميع أوامرك وهى تنفذ فى القصر • • لقد تسلمت وظيفة التاج المزدوج ، وحلت بك بركة قوتك السحرية ، انك قوية بشجاعتك ، وصاحبة السلطان فى الأرضين عندما تشرفين فى القصر وجبينك مزدان بالتاج المزدوج الموضوع فوق رأسك لأنك أنت وريثتى » وبعد ذلك يخاطب المجتمعين : « ان هذه الابنة • • حشيسوت الحبيبة ، اضعها فى مكانى • • ومنذ الآن سترشدكم ، فاستمعوا الى قولها واخضعوا لأوامرها • • ان من يعبدها سيعيش ، وأما من يقل شرا ضد جلالته فانه يموت » ،

(١) من نقوش معبدها بالدير البحرى •

والآن وقد تم تنويع حشيشسوت فانها أصبحت حاكمة مع أيها ،
لا بالاسم فحسب ولكن في الواقع أيضا •



كان تحوتمس قد أخذ يحس بمتاعب التقدم في السن ، لقد
قارب الستين من العمر وأصبح أصلع بعد أن تساقط كل شعر رأسه
وكان يخيل لمن يراه أن أسنانه البارزة أصبحت أكثر بروزا عن ذى
قبل • وأخذ يترك مهام الدولة اليومية شيئا فشيئا لحشيشسوت ، وكان
يستعيز عن ذلك بصحبة زملائه الذين اشتركوا معه في حروبه • كان
أحدهم وهو « أحمس بن أبانا » قد حارب مع أييه أمنحوتب ومع
جده أحمس من قبله • وكان بحق من رجال الحروب القدماء ، وقد
قرر هذا القائد بعد حروب تحوتمس في آسيا أن الوقت قد حان ،
ليستريح من الخدمة إذ كان قد بلغ التسعين أو ما يقرب منها ، وكتب
في نقشه في مقبرته : « انى قد كبرت ووصلت الى سن كبير ، وسأرتاح
في المقبرة التى أعددتها بنفسى » • كان تحوتمس يجب الاستماع الى
ما يقصه ذلك المحارب القديم من ذكريات ، ولكن أحمس بن أبانا قد
ذهب الى مقبرة الأبدى وأحس تحوتمس ان الوقت قد حان ، ليفكر
في تشييد قبره الذى يدفن فيه ، وحان الوقت أيضا ، ليسجل تاريخ
حكمه على جدران الأماكن المقدسة في البلاد •

فعلى جدران معبد أوزيريس في أييدوس ، وهى تقع الى الشمال
من طيبة ، وهو أحد المعابد التى رُممها وأضاف إليها وجملها ، نراه
يترك مثل هذه النقوش على الحجر وهى مكتوبة بالهيريوغليفية ، انها
كلمات شخص يحدثنا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وهى لا تخلو من
المباهاة والاعتزاز : « لقد فعلت أكثر من أى ملك حكم قبلى • وكان

الآلهة مسرورين بحكمى وكانت معابدهم فى أعياد مستمرة لقد
مددت حدود « تامرى » (مصر) الى آخرها تصل اليه الشمس
وجعلتها فوق كل بلد آخر » (١) •

وكان موضوع اختيار مكان لمقبرته الشخصية يسبب له بعض
الهموم . ففى أى بقعة يمكن أن يدفن ومعه كل ما يوضع مع الفراعنة
من مظاهر العظمة والفخفة ، ويتفادى التعدى على تلك المقبرة
وسرقتها ، والاعتداء على تابوته وأثاثه الجنائزى الفخم ؟ انه لايمكن
أن يضمن الخلود الا اذا ضمن عدم الاعتداء على قبره لأن روحه
« الكا » يجب أن تتمكن من أن تعود مرة بعد أخرى الى بيتها لتتمتع
مرة أخرى بمباهج الحياة على الأرض •

فمنذ سنوات كثيرة كان أمراء وأشراف طيبة يدفنون فى الضفة
الأخرى من النهر ، على حافة الصحراء ، بعيدا عن متناول فيضان
النيل • ولكن مكان تلك المقابر كان معروفا ولم يكن خافيا على الناس
أو سرا عليهم • أليس يوجد مكان أفضل من هذا المكان بين تلك
المرتفعات والوديان فى تلك التلال الجرداء التى تصلها الشمس
بنارها ؟

فعلى الوزير اذن أن يعد حملة لتذهب الى الضفة الأخرى من
النيل فى الناحية الغربية منه ، وأن يترك مكان المقابر القريبة من
الزراعة وأن يتوغلوا فى أرض الصحراء التى تغرب فيها الشمس ، تلك
الصحراء التى يمرح فيها الغزال وطائر الأييس ، والغراب وتعلب
الصحراء ، ويعيش فيها العقرب والصل ، وهما سامان ويسببان الموت

(١) من كتاب إبيدوس الذى وضعه مارييب •

لكل من الانسان والحيوان • يجب ألا يكون هناك أى شخص ليراهم،
يجب ألا يعرف أحد شيئاً عن المهمة التى خرجوا فى البحث عنها •

بدأت الحملة الملكية السرية عملها فى وقت الفجر ، وذهب كل
من تحوتمس وحتشبسوت ومعهم الوزير الى المعديّة التى على
الشاطئ الآخر ، ولم يكن هناك أحد من الناس فيراهم ، لقد أدى
الوزير عمله كما يجب •

وعندما تقدمت الحملة فى سيرها وأخذت تقطع ذلك الشريط
المزروع متجهة نحو الصحراء كانت الشمس تلقى بأشعتها على الرمال
التى تلونت بلون شبيه بجلد الأسد وأحالت لون قمم الصخور بين
شعب التلال من اللون الأشهب القاتم الى لون النحاس • لم يعد
هناك موضع واحد فيه أثر للزرع لتلقى حتشبسوت بأنظارها عليه ،
ومع ذلك فعندما استدار بهم الطريق بين الصخور تجلّى أمامهم منظر
فيه جمال طبيعى ، منظر مكان غريب ولكنه على قدر من الجمال يجعله
صالحا ليكون مقرا لقبر فرعون • وكان يحوم فوق رؤوسهم صقر
عندما تركوا مكان المعبد الجديد الذى سيعتقد الناس جميعا أن
تحوتمس مدفون على مقربة منه عندما يأتى ذلك اليوم ، وسيقومون
بطقوس دفن غير حقيقية بينما تكون موميأؤه فى حقيقة الأمر مدفونة
داخل تابوتها سرا فى ذلك القبر الخفى •

وهناك ، عندما مروا بمقابر أمراء طيبة الأشراف فى المكان
المعروف الآن باسم القرنة ، اتجهوا نحو الشمال الغربى الى واد ضيق
شبيه بعنق الزجاجة تظللّه صخور التلال التى تلتوى التواءات متتالية
لا نهاية لها ، كما بدت لهم فى ذلك اليوم ، انهم كانوا يخترقون قلب
سلسلة الجبال •

لم يكن يسمع فى ذلك المكان أى صوت اللهم الا صوت الهواء الذى يهب فوق رؤوسهم والذى كان يزحزح أحيانا قطعة من الحجر أو يقذف ببعض الرمال فتتطاير فى الجو من بعض الفجوات الخفية بين الصخور . فالى أين يقصدون ؟ ألا يعطى تحوتمس إشارة ليتوقعوا عن السير ؟ لقد كانت حثشبسوت صامته ومنطوية على نفسها ، ان الكلام كان أشبه شىء بالتجديف فى هذا المكان البعيد الذى يسوده الغموض والوحدة . ولكن حالتها النفسية قد تغيرت عندما رأت يربوعا شب أمامها وسحلية ذات لون أزرق وأصفر تنقض على حشرة ، فلم تكن الا فتاة صغيرة . وبعد ذلك أوقفهم دليلهم لكى يتبع أثر صل ذى قرنين الى جحرة الذى اختفى فيه ويقتله بعصاه التى كان يحملها فى يده .

وأخذوا بعد ذلك يجدون السير حتى أخذ الوادى فى نهاية الأمر بتسع أمامهم ، فانبهرت أنفاسها . وفى اللحظة نفسها رأى أبوها ورأى الوزير ما وقعت عليه عينها . لقد كانت الجبال التى تحيط بذلك الوادى الضيق أشبه بالجدران الشامخة وفى أعلاه قمة ، انها هرم طبيعى ، الشكل المقدس الذى يرتبط بعبادة الشمس ، لقد لاحت لهم هذه البقعة غير المطروقة كأنها وجدت خصيصا ليكون فيها البيت الأبدى لفرعون ، لتكون فيها مقبرته .

اننا نعرف هذا المكان اليوم تحت اسم وادى الملوك ، وكان تحوتمس الأول الذى دفن فى ذلك الوادى فيما بعد هو أول من دفن فيه ثم تلتة حثشبسوت ، كما دفن فيه ملوك الدولة الحديثة تقريبا ، وهم فراعنة مصر عندما كانت فى أوج قوتها وسؤدها . ويمكنك أن تذهب وترى المقابر ذات التوايت (١) الخشبية والمنحوتة فى جوانب

(١) المعروف ان التوايت فى هذا المكان كلها من الحجر وليست من الخشب كما تقول المؤلفة .
(المراجع)

الجبل ، فى حجرات قطعت فى داخل الصخر فى نهاية سراديب طويلة مظلمة • وجدرانها وسقفها مغطاة بطبقة من الملاط وعليها صور ملونة غريبة للآلهة والآلهات المصرية ، ومن بينها صور لفرعون وهو فى سفينة الشمس التى تقطع السماء فى أثناء الليل وتستقبلها فى العالم الآخر الهة شجرة الجميز وفى يدها اناؤها المملوء بالماء المنعش ؛ لقد وزنوا قلبه فوجدوه طاهرا فأخذوه أمام الآلهة أوزيريس كروح مبهجة ، ان الألوان ما زالت جميلة حية وتظهر كما لو أنهم انتهوا من عملها اليوم فقط •

ولكن حتى هذا المكان الخفى ، الذى لم يستمر سرا خافيا مدة طويلة ، لم تسلم مقابره من السرقة ، وربما كان اللصوص هم أنفسهم الأشخاص الذين عملوا فى قطع تلك المقابر وزخرفتها • والمقبرة الوحيدة التى نجت من التخريب هى مقبرة توت عنخ آمون التى لم يكن العمل قد تم فيها عند دفنه ، والتى كانت صغيرة الحجم بالنسبة الى غيرها ، وقد عثر مكتشفها هوارد كلوتر الذى كان يعمل لحساب اللورد كارنارفون على موميائه سليمة كما عثر على حليته كاملة فى داخل تابوته الحجرى • وكان توت عنخ آمون فى تابوت موضوع داخل بضعة توابيت أخرى كل منها أصغر من الآخر ، كما عثر فى الصالة التى قبل حجرة الدفن على عرباته وأثاثه وحليته ووسادات رأسه ، وكلها من ممتلكاته الثمينة التى كانت روحه (الكا) تحب الاستمتاع بها عندما تعود من العالم الآخر لتتذوق ملذات الحياة فوق الأرض •

وقد سرقت المقابر الملكية الأخرى منذ عهد طويل وسرق اللصوص الموميات والكنوز التى فيها ، ولم يعثر على مومياء حتشبسوت ،

وما من شك في أن اللصوص حطموها عندما جردوها مما كان معها
من ذهب وحلى (١) .

وفي طريقهم الى وادي الملوك ألفت حتشبسوت نظرة على المكان
الذى قررت أن تبنى فيه معبدها الجنائزى فيما بعد ، وهو مدرج
واسع في أحضان الجبل الصخرى تقف صخوره كأنايب الأرغن ،
وتصلح صلاحية تامة لأن يشيد أمامها بناء ملىء بالأعمدة والأبهاء
المفتوحة التى يتخللها الضوء والهواء ، وتخيلت أنه يمكنها أن تسطر
هناك أمجاد حكمها وما ستحققه من انتصارات .

ويعرف معبد حتشبسوت في الوقت الحاضر باسم الدير البحرى
لأنه حدث بعد موتها بقرون كثيرة أن بعض المتوحدين في القرون
المسيحية الأولى اتخذوه مكانا يعيشون فيه ، وبنوا في أحد مدرجاته
كنيسة متواضعة من الطوب اللبن ليتعبدوا فيها ، ولكن هذه المباني
من الطوب اللبن قد أزيلت من مكانها كما نظف المعبد مما كان يغطيه
من رمال ، ونراه الآن قد وقع كثير من أحجاره من أماكنها
وتحطم الكثير من التماثيل ، سواء ما كان واقفا منتصبا منها أو على
شكل أبو الهول ، ولكنه رغم ذلك كله من أجمل المعابد في مصر كلها .
ومن دواعى المسرة لنا أنها كانت تحب الفخر والمباهاة كغيرها من
الفراعنة وكانت تحب تشييد المباني والتظاهر ، وإن فكرة التواضع
كمظهر من مظاهر العظمة لم تخطر لها على بال .

وبمجرد اختيار ذلك الوادى الموحش الذى تعلوه قمة هرمية
الشكل ليكون مقرا لتحتوس ، بدأ « أنينى » يخطط وينظم أمر

(١) عثر على مقبرتين لحتشبسوت ، ولكن لا يوجد أى دليل على أنها دفنت
في واحدة منهما ، أو دفنت في وادى الملوك على الإطلاق ، إذ أن نهاية حكمها كانت
نهاية حزينة نظرا لما كان بينها وبين تحوتمس الثالث من عداوة . (المراجع)

حفر المقبرة التى تحت سطح الأرض • وجاءوا بالصناع من طيبة على الضفة الأخرى من النهر وأسكنوهم فى مساكن أشبه بالسجن بنوها لهم فى مكان بين تلين حتى يسهل وضع الحراس على كل ناحية من الناحيتين ليمنعوهم من الهرب • وكان من الضرورى أن يبقى العمل فى طى الكتمان ، ولهذا كان محرما على العمال أن يفادروا المكان فى أى وقت من الأوقات حتى لا يتحدثوا بذلك الى غيرهم ، ومازالت بقايا القرية التى كانوا يعيشون فيها باقية حتى الآن •

ويلوح أن تحوتمس قد أحس باقتراب منيته فأخذ يفرق العطايا من الذهب والفضة على معبد الاله أوزيريس فى أييدوس حتى يقوم الكهنة بتقديم القرابين وعمل الصلوات له بعد موته ، وحتى يستمروا فى ذلك الى الأبد • وأخيرا عندما بلغت حتشبسوت سن العشرين فى عام ١٩١٤ ق م ، وكان تحوتمس قد قضى خمسة وعشرين عاما على العرش « استراح من الحياة وذهب الى السماء ليختلط بالآلهة » •



وهنا بدأت حتشبسوت وقتا عصيبا فى حياتها • لقد كانت وريثة للعرش ، وتم تتويجها ، وكانت شريكة مع أبيها فى الحكم ، ولهذا فانه من المعقول أن تكون هى الفرعون الذى يلى تحوتمس على العرش • ولكن تقاليد البلاط ودسائس الكهنة بدأت تتدخل فى الأمور لأن فكرة حكم امرأة ووضع جميع السلطات فى يديها كانت أمرا يذهب كثيرا من الناس • ولهذا السبب كان من المحتم أن يشترك معها أخوها غير الشقيق ، وذلك الشخص الواهن الصحة المسمى تحوتمس الثانى ، وأن يكون شريكا لها فى الملك كفرعون للبلاد وأن تصبح هى زوجة ملكية لا أكثر من ذلك •

ولم تكن هناك فائدة ترجى من وراء الاحتجاج ، فقد كانت الظروف ضدها ، وبدءوا يعدون معدات زواجهما من تحوتمس ، وسمحت حثشبسوت لوصيفاتها وقلبها مثقل بالهموم بأن يعد لها الحمام ويعطرنها ويلبسنها ويجملنها بأنواع العطور ومواد التجميل التى كانت المصريات يحبينها فى ذلك الوقت : كالكحل لتخطيط الحواجب وعمل شرطة صغيرة بجوار كل عين لتظهر أكثر اتساعا ، والحناء لصبغ يديها باللون الأحمر وكذلك قدميها ليظهر جمالها فى الصندل ذى السيور الجلدية • وأوضحت المرأة التى أمسكتها أنها شابة جميلة ، وكان مديحها يتغنى به من حولها وهم يحملونها الى معبد الاله آمون حيث زوجها الكاهن الأكبر الى تحوتمس الصغير الذى كان مظهره أقرب الى الفتاة منه الى الشاب بسبب شعره الأسمر المجدول صناعيا ، وقوامه النحيف • وكان العازف على الجناك يعنى قائلا :

« انها عذبة الحب ، ابنة الملك » فيردد الآخرون : « انها عذبة الحب ابنة الملك » •

ان ضفائر شعرها سوداء مثل سواد الليل •

خصلات شعرها سوداء مثل نبيذ العنب ،

ان قلوب النساء تنعطف نحوها وهن فرحات

وينظرن الى جمالها الذى لا يمكن أن يقرن به أحد

انها عذبة الحب ابنة الملك

ما أجمل ذراعيها وهى تتمايل برقة فى رقصها •

وتسيل قلوب الرجال وتصبح كالماء عندما تنظر اليهم

ان جمالها أعظم من أن يصفه لسان مخلوق

انها عذبة الحب ابنة الملك

ولكن بينما كانت تستمع الى كلمات تلك الأغنية فمن الجائز ان
صدى أغنية أخرى كانت تتردد في أعماق نفسها ، أغنية غناها لها في
اليوم السابق أحد الأشخاص الذي يحرم عليها أن تتزوج منه •

تعالى الي واخترقى الحديقة أيتها الحبيبة

ان حبي مثل كل زهرة تنفتح •

انها طويلة وممشوقة كنخلة صغيرة •

وعلى كل خد من خدودها حمرة تشبه الورد في لونها •

• ولسنا نعرف الا القليل عن حكم تحوتمس الثاني القصير المدة
اللهم الا أن ثورة قامت في الجنوب ، ولكنه بدلا من أن يقود الجيش
بنفسه ويسير الى الأعداء - كما كان يفعل أبوه لو كان في مكانه -
فانه اكتفى بتوجيه أمر شديد من القصر يأمر فيه قواد جيشه
ألا يتركوا شخصا ذكرا من شعب العدو على قيد الحياة • وفي أحد
نقوش ذلك العهد نراه يضع قدمه دليل الانتصار فوق رقاب الأسرى
المكبلين بالأغلال ، والذين لا يستطيعون الحراك ، وهم الذين عادت
بهم الحملة التأديبية التي أرسلها اليهم •

كان تحوتمس شخصا ضعيفا وربما كان مريضا في الوقت نفسه
وبعد وقت قصير أصبح واضحا أنه سائر في طريق الموت وبدأت
حشيشوت تحكم البلاد باسمه كفرعون ، وأخذ رجال البلاط وكبار
الموظفين يتساءلون ما الذي سيحدث عندما يموت ؟ لم يكن هناك
أمير آخر يستطيع أن يخلفه على العرش كما لو أنها ستحكم البلاد

في النهاية بمفردها • وسر أصدقائها الذين يعرفون قدرتها وقوة خلقها من هذه الفكرة وكانوا على أتم استعداد ليخدموها باخلاص عندما يحين الوقت •

ولكن شخصا آخر في معبد آمون بالكرنك كان يدبر المؤامرات للوصول الى العرش مثيرا الشعور العام بين الكهنة والناس ضد فكرة قيام امرأة بحكمهم • فهل كانت حثشبسوت على علم بتلك المؤامرة عن طريق جواسيس القصر ؟ أو أن ما حدث بعد ذلك كان مفاجأة تامة لها ؟ لقد مات تحوتمس عام ١٥٠١ ق.م • وفي أحد الأيام ، بعد موته بوقت قصير ، وعندما كانت في المعبد لتشهد احتفالا يخرج فيه موكب الاله آمون ، ووقت المحفة التي تحمل تمثال الاله أمام كاهن صغير السن وأبت أن تتزحزح بعد ذلك ، فوافق جميع الحاضرين على أن ما حدث ليس الا علامة بأن آمون قد اختاره ليصبح زوجها ، وليكون الملك القادم •

ولم يكن أمام حثشبسوت الا الخضوع • فان ذلك الكاهن الصغير الذي كان يسمى أيضا تحوتمس والذي أصبح يسمى فيما بعد تحوتمس الثالث ومن ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، كان ابن أخيها وتجري في عروقه الدماء الملكية من ناحية أبيه ، ولكن أمه « ايزيس » لم تكن الا احدى الزوجات الثانويات ، لقد أتت الدسائس بشمارها •

وفي اليوم الثالث من شهر مايو ١٥٠١ ق.م • ترك تحوتمس عمله كأحد صغار الكهنة في معبد آمون ليدخل القصر الملكي للفراغة • كان عمر حثشبسوت في ذلك الوقت أربعاً وثلاثين سنة فتزوجها وعادت الى مركزها السابق أى زوجة الملك : « الزوجة الملكية الأولى » ومنذ اليوم الأول سادت بينهما المنافسة والمرارة ، ولكن كان هناك أطفال من تحوتمس الثاني ، ابن وابنتان • فأما الابن فقد مات في

طفولته ولم يبق اسمه على أى أثر من الآثار ، وأما الابنتان فاسمهما « نفرو رع » « ومريت رع حتشبسوت » •

ولم تكن الملكة وحدها هى التى تحس بعدم السعادة لما وصلت اليه الأمور بل كان هناك آخرون غيرها ، وعلى الأخص « سنموت » ذلك الرجل القادر الطموح الذى عينته ليكون مرييا لابنتها • كان سنموت شديد الذكاء جم النشاط كما نستطيع أن نرى ذلك فى قسما ت وجهه وأنفه المعقوف ومحياه الغامض المليء بالتجاعيد كان مخلصا لحتشبسوت ومعجبا بها كل الاعجاب ، ولم يلبث حتى جمع حوله شركاء له وكون حزبا للملكة ، ولم يلبث هذا الحزب الا وقتا قليلا حتى اشتد نفوذه وأصبح قويا لدرجة أن فرعون الذى لم تكن لديه الخبرة الكافية أصبح عاجزا عجزا تاما على حكم البلاد واضطر لاخلاء المكان لزوجته • وأخيرا تم اعلان حتشبسوت فى عام ١٤٠٤ ق م • ملكا على الصعيد والدلتا وحكمت مصر وحدها كفرعون •

كانت هذه اللحظة هى لحظة النصر • ففى أغاني المديح التى كانت تغنى أمام فرعون فى كل يوم كانوا يسمونها « حورس الأثنى » وأضافوا تاء التأنيث فى آخر الكلمة التى تدل على « الجلالة » وأخذت ترتدى ملابس الرجال عند ظهورها فى الاحتفالات الرسمية كما كانت تلبس لحية مستعارة صغيرة كما كان يفعل الفراعنة فى المناسبات الرسمية • لقد كانت تتمنى دائما أن تكون ولدا وهى قد أصبحت حرة لتقوم بدور الملك بدلا من دور الملكة فى مصر كلها •

ويشير أنينى « الى تحوتمس الثالث بأنه الملك الذى يجلس على عرش من أنجبه » ولكنه يقول أيضا « ان اخته (١) ، الزوجة الآلهية

(١) فى الاصل الانجليزى « تحوتمس الثالث » ولكن الحقيقة ان النس يشير الى تحوتمس الثانى وسلطانها فى اثناء حياته وفى الفترة التى تلت موته ، اى فى بداية اشتراكها فى الملك مع تحوتمس الثالث • (المراجع)

حتشبسوت كانت تدير شئون الصعيد والدلتا بتدبيرها ، وكانت مصر تعمل لها وهى مطاطنة الرأس ، وكانت صاحبة الأمر ، لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الآلهة » •

والخانات الملكية التى كتب اسم حتشبسوت فى داخلها ، والتى تظهر على جدران الدير البحرى والكرنك وفى غيرهما من الأماكن فى مصر صريحة فى معانيها « ملك الصعيد والدلتا ، كا - ماعت - رع ، ابنة الشمس صديقة آمون حتشبسوت ، حورس الذهبى : مائنة السنين الهة الاشراقات ، هازمة جميع البلاد ، التى تحبى القلوب ، زوجة آمون الكبرى ، السيدة القوية » •

ولكن ما الذى فعله تحوتمس عند هزيمته ؟ هل هرب ؟ هل ظل فى القصر حزينا مكتئبا ؟ ان التاريخ لا يوضح لنا ذلك ، ولكن من الصعب ان تتصور أن الاثنين يستطيعان بعد ما حدث بينهما أن يكلم أحدهما الآخر • فقد رأى تحوتمس انهيار ما كان يطمح فيه ، أما هى التى كانت زوجته ، فانها بالرغم من أنوثتها كانت المنتصرة المتسلطة •

ولكن الدراسات الأثرية رغم ذلك تلقى شيئا من الضوء على شعور تحوتمس فعلى أثر موتها أخفى معظم نقوشها ومبانيها فى الكرنك ، وأقام أمامها جدراناً شيدت من الحجر كما أمر بتشيويه خاناتها الملكية وصورها • ويختلف الأثريون فيما بينهم اختلافاً كبيراً فيما إذا كان تحوتمس قد أمر حقيقة بهذا التشويه انتقاماً منها أو أن ذلك قد حدث فيما بعد ، بعد فترة من الزمن عندما أبى الناس أن يصدقوا أن امرأة يمكن أن تصبح فرعون للبلاد ، وأن تضى على نفسها كل هذه الأمجاد • ولكن الحقيقة ما زالت ماثلة أمامنا فقد حدث التحطيم ولو درسنا حياتهما معا لوجدنا كل شيء يشير الى الانتقام والمرارة التى تجمعت مع مرور السنين •

وعينت حتشبسوت مناصريها المخلصين الذين كانوا من حزب الملكة في أعلى المناصب في البلاد عندما تم لها الفوز • وأصبح « سنموت » أقرب الناس اليها مديرا للقصر وحاملا للأختام الملكية وعينته في وظيفة « أنينى » مشرفا على بيوت آمون وعينت أخاه « سنمن » في وظيفة كبرى أيضا ، وعينت « حابوسنب » الذى كان من الأشراف الأقوياء وزيرا للجنوب وكاهنا أكبر لآمون فججمع بين يديه الاشراف على كل من الناحيتين المدنية والعسكرية •



والآن وقد أصبحت حتشبسوت فى نهاية الأمر ، وحدها حاكمة للبلاد فما الذى فعلته لمصر ؟ هل تخرج الى الحرب وتستولى على البلاد الأجنبية كما فعل أبوها ؟ أو أنها تبدأ بوضع الأمور فى نصابها وتبنى مصر كبلد مزدهر آمن ؟ وكان السلام هو أقرب الأشياء الى قلبها كامرأة ، كما كانت تحب أيضا الحياة وفنون السلم • وكانت تحب دياتها من كل قلبها بما فيها من آلهة كثيرين ، وكانت تحس بحق أنها واحدة منهم ، وكان لها أن تكتب على جدران معبدها فى الدين البحرى : « أنا الهة ، وأنا بداية الوجود » ولم يكن هذا القول تجديفا فى نظر المصريين ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الفرعون ليس الا حورس بن أوزيريس الذى يعيش فى الأرض وأن رفاهية مصر كلها تعتمد عليه •

ورأت حتشبسوت أن خير ما ينسبها أحزانها الخاصة ومتاعبها هو أن تنشط فى العمل ، فأى شئ أفيد وأكثر عزاء من أن تشيد معبدا لنفسها ؟ وعندما رأوا ذلك المكان المستدير فى بطن الجبل الذى وقع عليه اختيارها ، كانت حماسة كل من سنموت والوزير حابوسنب لا تقل عن حماسها • كان هذا المكان فى الوقت ذاته مقدسا للالهة

حتحور التى كانت حامىة له ، وكانت تنىل العاشقن ما ترغب فىه قلوبهم ولهذا كانوا يقدمون لها القراىن ، فما أجمله من مكان يصلح لىكون معبدا لهذه المرأة الجمىلة التى كانت فرعون لمصر ، ولم يفض الا زمن قصىر حتى أصبح ذلك الوادى الموحش مليئا بنشاط كبرى .

والى جانب الموقع الذى اختارته كان يقوم معبد عمره أكثر من خمسائة سنة بناه الملك متوحوتب الذى كان واحدا من أسرة حكمت مصر من قبل وكان معبده فى أيام حتشبسوت مخربا ومهجورا .

وأوحت عمارة معبد متوحوتب الى سنموت أن يتخذة مثالا يحتذىه ، لأنه كان متلائما مع الموقع الطبقى الذى حوله اذ أن أكثر أجزائه كان مفتوحا وجر مغلق على أماكن مظلمة تحيط بها الأسوار شأن معظم المعابد المصرىة ، ولهذا أثر أن يقتبس تخطيطه لىكون أساسا للمعبد الجدىد الكبرى الذى كان يبنىة لملكته حتشبسوت .

وكان اهتمام هذه الملكة بالفن والعمارة كبرى الى درجة تجعلنا نجزم بأنه كان يتحتم على سنموت أن يعرض عليها جمىع التخطيطات التى يقوم بعملها لىحصل على موافقتها قبل الشروع فى تنفيذها .

فالبوابة التى فى السور المحىط بالمعبد تؤدى الى طرىق فخم تقوم على جانبىة تماثىل رابضة على صورة أبو الهول ورءوسها على هيئة رأس الملكة نفسها ، وفى آخر الطرىق يبدأ أول طرىق صاعد ، ثم الى درجات تؤدى الى مدرجات ذات أعمدة يتلو بعضها بعضا وعلى كل من جانبى الطرىق وضع تصمىم أحواض صناعىة لتنمو فىها الزهور ، وفى كل ناحية بركة لنباتات البردى .

ولانشاء مثل هذه الحدىقة الرسمىة استلزم الأمر عمل حفرات وملئها بطمى النيل الخصب ، كما كان يتحتم على موظفى المعبد أن

يقوموا بسقيها كل يوم • وقد كشفت الحفائر بعد رفع الرمال التي غطت هذه المنطقة عن تلك الحفرات وفيها بقايا من النباتات ذات الزهور التي كانت تنمو فيها البرك والضحلة التي كانت على شكل T ، وكانت تنمو فيها نباتات البردى • ولاشك أن هذه الحديقة الياقة كان لها وقعها على المتعبدين بعد أن أجهدوا أنفسهم في السير في تلك الصحراء المحرقة ذات اللون الذهبي وفي صعود المدرجات • وفي الساحة الخارجية التي كانت تقوم فيها تماثيل كبيرة في صورة الاله أوزيريس كان الكهنة يتلقون من أولئك الزائرين ما حملوه من هدايا أتوا بها ليقدموها لالههم ، ثم يقودونهم بعد ذلك ليقدموا القرابين لتمثاله في داخل الهيكل الخفى عن الأنظار •

وكان اليوم الذى حددوه للطقس المعروف باسم « مد الحبل » ووضع حجر الأساس فرصة لعمل احتفال عام كبير ولاشك أن منظم هذا الاحتفال هو سنموت « مدير بيت الاله آمون » وقد سارت حتشبسوت في المقدمة ووراءها وزير الجنوب وجميع مديري الادارات وكهنة آمون • وحفروا حفرة في كل ركن من الأركان الأربعة في الأساسات المحفورة وذبحوا ثورا وقطعوه الى أجزاء ثم سار الكهنة الى تلك الحفرة وملئوها باللحم وغير ذلك من المأكولات ودعوا الآلهة ألا يتعرض فرعون لأى ألم من آلام الجوع في العالم الآخر •

لقد عثر رجال الآثار في العصور الحديثة على ودائع الأساس في معبد حتشبسوت بالدير البحرى ، كما عثروا على أرجل وأضلاع من لحم الثيران وعثروا أيضا على أرغفة من الخبز المخروطية الشكل وعلى كعكات مستديرة صغيرة الحجم وعلى شعير وتين وعنب وعناب وبلح وبعض الخضروات والسمن ونماذج صغيرة لأواني النبيذ •

كما عثروا أيضا على شيء فريد وهو مجموعة من نماذج أدوات البناء التي ينتظر أن يستخدمها العمال ومن بينها قدوم النجار وفأسه ومطرقة وأزميله وبوتقة صاهر المعادن ، كما عثروا على قالب صانع الطوب وفأسه الخشبي وغرباله الذي يغربل به الرمال •

وبالرغم من أن المعبد الجديد كان مقاما تكريما للاله آمون ولابنته حتشبسوت فربما قد أحس هذا الاله بشيء من الغيرة لأن هذه المباني لم تشيد في معبده الكبير في الكرنك • وعلى أى حال فقد ذكرت حتشبسوت أنه زارها في المنام وطلب منها أن « تخلق (بونت) في يته » ، وكلمة بونت هي الكلمة التي تدل على بلد غامض في الجنوب الشرقي من مصر وكان له شاطئ خصب فيه أشجارالبخور الثمينة ، واليه كان المصريون يرسلون الحملات للتجارة ولإحضار البخور الذي كانوا يحتاجون اليه لإحراقه في أثناء القيام بالطقوس الدينية في المعابد • ولا يعرف أحد على وجه التحقيق مكان بلاد بونت ، وقد اقترح بعض الجغرافيين والمؤرخين كلا من بلاد الصومال وزنجبار والشاطئ الجنوبي من بلاد العرب •

فكيف يتيسر لحتشبسوت تحقيق رغبة الاله ؟ وليس هناك الا جواب واحد لامرأة في مثل خلقها ، يجب عليها أن ترسل أسطولا تجاريا الى بونت ليأتى بأشجار كاملة النمو لتزرعها في حديقة آمون داخل أسوار الكرنك •

ونرى جميع تفاصيل هذه الرحلة على جدران معبد الدير البحري • فقد أشرف كل من سنموت والوزير على اعداد خمس سفن حملوها بالسلع التجارية المصرية وبهدايا الملكة الى زعيم بلاد بونت • وأخيرا جاء اليوم الذي قالت عنه نبوءة المعبد انه يوم سعيد للسفر ، فخرجت حتشبسوت وهي تلبس الملابس الرسمية وعلى رأسها التاج ،

واجتمع على جانب النهر كبار الموظفين والكهنة وجميع سكان طيبة ،
وقدموا القرايين لتطيب نفس آلهة الهواء لكي يرسلوا دائما رياحا
طيبة ، وجاءت ردود العرافين مبشرة بالخير فرفعوا الهلب ونشروا
الشرع وساروا متجهين نحو الشمال تتبعهم تمنيات الشعب الطيبة
وتردد أصداءهم خلفهم •

وقد حدث في أيام الدولة الوسطى أن المصريين حفروا قناة تربط
النيل عند نهاية الدلتا بالبحر الأحمر ، وقامت حتشبسوت بتنظيف
هذه القناة وأعادت استخدامها لكي يستطيع أسطولها أن يسير فيها
ويخرج الى خليج السويس وبعده الى مياه البحر الأحمر • ونرى في
النقوش الخاصة بهذه الرحلة على جدران المعبد سفن الأسطول وهي
تسير والى جانبها أسماك نيلية في المياه ولكننا نرى بعد ذلك تحت
سطحها أسماء البحر الأحمر ، وقد تمكن علماء الأحياء المائية من
تحقيقها وقالوا انها من نفس الأنواع التي تعيش اليوم في تلك المياه •

وعندما وصلوا الى شواطئ بونت سالمين ، رسا قائد الأسطول
وأمر أن تنصب خيمته ، واستقبله بالترحاب زعيم بلاد بونت ،
واسمه « بريخور » وقبل بسرور الهدايا التي أرسلتها جلالة الفرعون،
ونرى زوجته معه وقد رسموها سميئة الى حد كبير ، كما نرى أولاده
أيضا مرسومين يتزاحمون حولهم يملؤهم حب الاستطلاع ، وكانوا
مسرورين بصفة خاصة بتمثال لحتشبسوت مع الاله آمون وقد أقيم
هذا التمثال هناك فيما بعد على الشاطئ تذكارا لهذه المناسبة ،
وربما مازال قائما هناك الى الآن يثير استطلاع أناس نسوا معناه
منذ وقت طويل ، ولكن نظرا لأن مكان بونت لا يعرفه انسان على
وجه الدقة فان الأثريين لم يكتشفوه حتى الآن •

وبعد التعارف والمراسيم الخاصة بالتمثال بدأ موضوع التحدث في التجارة ونرى في النقوش طاولة وفوقها عقود الخرز ، والطرائف المصرية الأخرى التي أحضرها القائد ليبادل عليها شعب بونت اذ لم تكن النقود معروفة لهم • وتذكر حتشبسوت أن سفنها عادت محملة « حمولة كبيرة بعجائب بلاد بونت ، وجميع الأخشاب الطيبة الرائحة وأكوام من البخور ، ومعها أبنوس وعاج حقيقى وذهب آمون الأخضر ... » وتقول أيضا انه كان بالسفن مواد تجميل العيون ، وجلود الفهد ، وعدد كبير من القردة الحية والنسائس ، والطيور والكلاب وهو قنصوه خصيصا من أجلها ؛ وقد عاد معهم الى مصر بعض أناس من بونت ومعهم أطفالهم •

استغرقت الرحلة في ذهابها وإيابها مدة عامين ، وأخيرا عادوا لموطنهم ورسى السفن في طيبة • ولا بد أن سكان طيبة كانوا يتطلعون وملؤهم العجب عندما أنزلوا الى الشاطئ سكان بونت ذوى الهيئة الغريبة وجميع حاصلاتها ، ومن المؤكد أن عددا من الأطفال الصغار السمر اللون ساروا وراء القائد حتى وصل الى أبواب القصر وبقوا هناك حتى طردهم الحراس ، بينما كان القائد يقدم هدايا بلاد بونت وسلعها التجارية الى جلالته •

وقدمت حتشبسوت فى الحال نسبة كبيرة منها الى آمون اعترافا بفضلها فى عودة السفن سالمة ، ودعت رجال بلاطها وكرمت سنموت والوزير بإجلاسهما عند قدميها وأعلنت نجاح الحملة لمن كان حاضرا من الضباط والأشراف وقالت فى مباهاة « ان بونت قد نقلت الى طيبة » •

وأمرت بزرع احدى وثلاثين شجرة من أشجار البخور فى داخل أسوار معبد الكرنك : « لقد أنشأت له (أى آمون) « بونت »

في حديثه كما أمرني ، وهي كبيرة الى درجة أنه يستطيع التنزه فيها » .

وقامت حتشبسوت بعمل آخر هام ولو أنه أقل شهرة من رحلة سفنها الى بونت ، اذ كان هذا العمل هاما لرفاهية المصريين لأنها أعادت العمل في مناجم النحاس والملاخيت في شبه جزيرة سيناء ، فقد توقف العمل في تلك المناجم في ذلك الوقت المضطرب في أثناء حكم الهكسوس لمصر ، ومازلنا نجد في سيناء لوحة عليها كتابة ، احياء لذكرى هذا العمل وتمجيدها لما فعلته .



واحتفلت حتشبسوت بعيد « الحب سد » أو عيد تجديد ارتقائها للعرش في العام الخامس عشر من حكمها ، فقد عملت كثيرا من أجل شعبها وهيأت له الاستقرار والرفاهية والسلام كما أثبتت ولاءها للالهة « لقد جددت ما كان قد تخرّب ، وأتممت ما لم يتم منذ الوقت الذي كان فيه الأسويون . . . والهمج في شمال البلاد مخربين كل ما سبق عمله ، وكانوا يحكمون متجاهلين الاله رع » ، هذا هو ما قالته في نقش لها على واجهة معبد منحوت في الصخر في بني حسن بين طيبة ومنف .

لقد نجحت حتشبسوت وانتصرت كملكة للبلاد ، ولكنها كامرأة لم تعرف غير الحزن والخسارة . كانت علاقتها مع زوجها تزداد سوءا كلما مرت الأيام ، وكبر في العمر وأخذ يحس بخيبة الأمل ، لأنه لا سلطان له ، كما ماتت ابنتها الكبرى نفرو - رع ، ولم يبق لها ، كما حدث لأُمها من قبل ، الا ابنة واحدة وهي مريت رع حتشبسوت التي أصبحت أميرة ملكية ووارثة للعرش .

ومهما كان الأمر فيجب الاحتفال بالعيد ويجب أن يقام أثر
تذكاري مناسب ولكن ما هو ؟ ان جتشبسوت تقول لنا : « كنت
أجلس في القصر وأفكر في الخالق عندما استحسنتى قلبي لأقيم له في
بهو الأعمدة مسلتين ترتفع قمتهما الى السماء » •

كان ذلك في أوائل شهر فبراير ، وأمرت باستدعاء سنموت لكي
يبدأ العمل في الحال ويجمع العمال وينظم أمر قطع تلك المسلتين
الهائلتين التي تتكون كل منهما من قطعة حجر واحدة من محاجر
الجرانيت في أسوان على حدود بلاد النوبة • وأمرته جتشبسوت
أن يكونا أكثر ارتفاعا من أى مسلة أقامها أى فرعون حكم قبلها •

وأخذ العمال يشتغلون بالأدوات المصنوعة من الحجر ، لأنه لم
يكن لديهم اذ ذاك أدوات من المعدن ، وكانوا يستخدمون ايقاد النار
والرافعات لفصل الجرانيت ، وأخيرا استطاع العمال أن
يقطعوا تلك المسلات ويفصلوها من الصخور في المحاجر • وارتفاع
كل منهما ٩٧ر٥ قدما وتزن أكثر من ٣٠٠ طن وقد حملوها الى النهر
بوضعها فوق زحافات تسير فوق « دراڤيل » ونقلوها فوق سفينة
بنيت لهذا الغرض - وربطوها فوقها - واضعين المسلتين فوقها
وقاعدة كل منهما أمام الأخرى ، كما نرى ذلك في رسم على أحد
جدران معبد الذير البحري منتهزين فرصة فيضان النيل وارتفاع
مياهه لتعويم السفينة حتى تصل الى طيبة •

واحتاج العمال الى شهر آخر لنقشهما وصقلهما وتغطية الأجزاء
الهرمية الشكل في أعلى المسلتين بصفائح الذهب اللامع ثم اقامتهما
في مكانهما • « حقا ، ان هاتين المسلتين غطتهما جلالتهما بالالكتروم (١) »

(١) مزيج من الذهب والفضة وكان يسمى ايضا الذهب الأبيض . (المراجع)

ان كلا منهما من حجر واحد من الجرانيت ، ليس فيها كسر أو عرق ،
أمرت جلالتى بهذا العمل في العام الخامس عشر في أول يوم من شهر
أمشير وانتهوا منه في العادم-السادس عشر في آخر يوم من شهر مسرى
أى في سبعة شهور منذ اعطاء الأمر بالعمل في الحجر » •

وكان المسئول عن تغطية الأجزاء العليا من المسلتين بصفائح
الذهب الأبيض هو « تحوتى » المشرف على مخازن الذهب والفضة
الذى يذكر لنا أن الملكة بنفسها ، وفى بهو الأعياد فى داخل القصر
وزنت اثنى عشر بوشلا (١) ، كيسا بعد الآخر •

وأقيمت المسلتان فى بهو الأعمدة التى كانت من خشب الأرز وهو
البهو الذى شيده تحوتس الأول والد حتشبسوت ومازالت احدى
هاتين المسلتين قائمة فى مكانها ، وبالرغم من أن العطاء الذهبى
المضىء قد نزع من قممها الهرمية فانا مازلنا نرى بوضوح كامل
صورة حتشبسوت راحة أمام آمون وتتلقى منه شارات الملك •

ومن الأشياء التى قامت أيضا بعملها احتفالا بذلك العيد ، أنها
أمرت ببناء سفينة كبيرة رسمية لكى يتنقل بها الاله على صفحة
النيل من معبده فى الكرنك فى أثناء الاحتفال بعيد النيل • وعندما كان
يصل الاله الى الشاطئ الآخر كان يحمله الكهنة فوق محفة على
أكثافهم حتى يصل الى قدس الأقداس فى معبد الدير البحرى حيث
يقضى الليل فى البيت الذى شيده له ابنته ، ثم يعود الى الكرنك فى
اليوم التالى •

(١) البوشل مكبال انجليزى سعته ٣٥٣٦ من اللترات أى ثمانية جالونات ، ولكن
المكبال المصرى القديم. المذكور فى النصوص كان اقل من ذلك بكثير • (المراجع)

وعلى جدران مبعدها بالدير البحرى نقشت حثشبسوت قصة مولدها من الملكة أحمس والاله آمون ، وذلك بتشجيع من سنموت الذى أخذ على عاتقه أن يروج أسطورة قوتها شبه الآلهية . كان المصريون يعتبرون جميع الفراعنة الذين يجلسون على العرش أنهم أبناء الاله من أم انسانية ، وأخيرا استطاعت حثشبسوت أن تحصل على أمنية طالما تمتتها بعد أن تفتق عنها خيالها الصخب . لقد أمرت أن ترسم مع أمها أحمس فى سلسلة من الرسوم تمثل مولدها الأسطورى وهى فى هيئة ولد بدلا من أن تكون على هيئة بنت ، كما نراها أيضا فى نقوش المسلة على صورة شاب وليس على صورة فتاة .

ومع هذا فقد كانت امرأة كاملة الأنوثة ، وترى ذلك بوضوح فى تقاطيع وجهها وعينيها الواسعتين وشفتيها الممتلئتين وذقنها الصغير . وكانت ، شأنها كشأن كل نساء طيبة تظهر عناية بتقديم احترامها لحتحور الهة الحب والجمال التى كان يرمز لها بالبقرة ، وكان الهيكل الجانبى من معبد الدير البحرى مقاما للالهة حتحور وأعمدته ذات تيجان حتحورية ، وكان مركزا لعبادة هذه الالهة التى كان يأتى إليها الناس فى كل يوم ومعهم قرايينهم .

وبفضل ما قام به الأثريون من عمل متسم بالصبر والمهارة استطعنا أن نعرف ماذا كان يحدث فى ذلك الهيكل ؟ وكأننا نعيش مرة ثانية مع أهل ذلك الزمان . فقد كان الناس يحضرون معهم جميع أنواع ما كان فى حيازتهم الشخصية لتقديمه للالهة ، ... شباك السمك ، وأمشاط ، ... أملاءة. مغطاة بطبقة من الفيانس الأزرق ملأى بالفواكه والزهور ... أما الذين لم يكن فى استطاعتهم احضار قرايين معهم فقد اكتفوا بتقديم عقود من الخرز أو تماثيل رمزية صغيرة من الفخار على صورة البقرة ، كانوا يشترونها من أحد التجار الذى اقتتح حانوته فى

مكان ذى موقع مناسب خارج أسوار المعبد ، وكثيرا ما كانت تتراكم هذه القرايين فوق بعضها البعض فى داخل الهيكل فكان الكهنة يضطرون من آن لآخر الى نقلها بعيدا لاخلاء المكان لغيرها ، وكانوا يرمونها فوق كومة من الرديم خارج الهيكل . وفى هذا المكان بقيت تلك الأشياء آلافا من السنين ، وكان بعضها مكسوا والقليل منها سليما ، حتى كشفت عنها معاول العمال المحدثين فى عصرنا الحاضر .

وكشف العمال أنفسهم الذين كانوا يعملون فى تنظيف الدير البحرى عن أسرار أخرى أيضا ، أسرار لم يكن أصحابها الذين قاموا بالاشتراك فى قصتها فى عهد حتشبسوت يعرفون الا جزءا منها أو ربما لم يعرفوا شيئا منها على الاطلاق . لقد كانت سلطتها كامرأة تشغل عرش الفراعنة ، لا تعتمد على صفاتها الشخصية الممتازة فحسب ، ولكنها تعتمد أيضا على مناصريها وبخاصة سنموت (١) . ولكن هذا ارضا وتلك الخطوة لم تستمر الى الأبد فبعد الاحتفال بالعيد غضبت عليه وربما تكون قد أعدمته اذ لم يدفن فى مقبرته التى أعدها لنفسه على مقربة من معبد الدير البحرى وكانت حجرة الدفن فيها تحت ناووس معبد سيده .

وفى الممرات الخفية المؤدية الى حجرة الدفن دهش المكتشفون عند رؤية النقوش والألوان التى كانت تغطى جدران تلك المقبرة ، ومن الواضح أن سنموت قام بهذا العمل الجرىء المتسم بالغرور ،

(١) لقد اختلطت على المؤلف بعض الحقائق التاريخية فجعلت تحومس الثالث يعيش دائما مع حتشبسوت كشخص لا سلطان له كما جعلته يحقد على سنموت ويغار منه ويقتله ، ولكن الحقيقة أنه لم يستمر معها فى الحكم الا فى الاعوام الأربعة الأولى ثم ظل بعد ذلك شبه أسير فى معبد الكرنك ما يقرب من سبعة عشر عاما حتى تمكن من ضرب ضربته فاطاح بحتشبسوت وقضى عليها وعلى حزبها وتولى وحده السلطة فى البلاد .
(المراجع)

وهو عمل مقبرة له تمر ممراتها تحت المعبد في طى الكتمان ، واستتر بعمل قبر رسمى آخر في مكان ظاهر مناسب بين مقابر رجال البلاط الآخرين على سطح التل القريب ، ولكن هذا القبر وجد خاليا أيضا .

وعندما كان الأثريون يعملون في تنظيف معبد الدير البحرى عثروا على أدلة أخرى تثبت طموح سنموت وجراته التى لا حد لها . لقد رسم صورته هو نفسه ، في هياكل الاله الداخلية في أماكن لا يتيسر لأحد رؤيتها ، وهو عمل يخالف تعاليم العقيدة الدينية مخالفة تامة ولم يسمع أحد بحدوث شيء مثله من قبل وكأنه أراد أن يشق طريقه الى الجنة بركوبه خلسة في سفينة الشمس التى تحمل ملكته شبه الالهية الى أفق الحياة الأخرى .

وقد دفع سنموت وفاءه وإخلاصه لملكته ثمنا لاعتزازه بنفسه وطموحه ، ولاشك أنها أحست بعد قتله أن أكبر سند لها قد زال من الوجود . واستمرت تحكم بعد ذلك خمس سنوات ، ومن المحتمل أنها كانت أوقاتا مليئة بالخوف من تحوتمس وربما كانت وحيدة أيضا .

ماتت حتشبسوت عام ١٤٧٩ وهى فى سن الخامسة والخمسين ، ولم تدفن فى الدير البحرى ولكنها دفنت مثل أبيها فى مقبرة خفية فى وادى الملوك . لقد حكمت بمفردها نحو سبعة عشر عاما (١) دون أن تفقد شيئا من سلطتها ونشاطها تجاه بلدها الذى أحبته كل الحب . وكانت مؤمنة بالآلهة ومخلصة لعبادتها ، وعلى كتل من الحجر الرملى

(١) لم يعترف تحوتمس فى نقوشه بالسيرة مشرماما ، فاعتبر حتشبسوت مفتسبة ظالمة ولهذا أرخ أعماله بعد انفراده بالملك والقضاء على حتشبسوت بالعام الواحد والعشرين من حكمه .
(المراجع)

الأحمر عثر عليها في معبد الكرنك ، نرى المناظر الجنائزية لدفنها ، ونرى تحوتس الثالث الذي تزوج من وارثة العرش مريت رع حتشبسوت وأصبح فرعون للبلاد ، نراه وهو يقدم القرابين الى تماثيلها •

كان عمله هذا واجبا مقدسا يتحتم عليه القيام به اذ ليس لدينا أية وثائق تشير الى تصالحها قبل وفاتها ، ومع ذلك فمن المرجح أنه أقام موكب جنازتها وأن ابنتها وأصدقاءها القدامى وكبار موظفيها كانوا مظهرين الحزن الحقيقي لوفاتها (١) ، ومن المحتمل أن يكون الكهنة قد أنشدوا عند وضع تابوت الملكة العظيمة التي كانت فرعون لمصر ، بكل احترام في الحجرة الملونة في آخر بيتها الأبدى ، نشيدهم قائلين : « ما أسعدنا تلك التي وصلت الى الغرب عندما تصبح آمنة بين يدي الآلهة » •

وبالرغم من أننا نستطيع أن نرى حتى الآن على جدران مدرجات معبدها كثيرا من النقوش التي ذهبت عنها ألوانها في ذلك المكان الموحش في أحضان الصخر فان ابتسامة أمها أحسن وصورة وجهها الذكي وفوقه لباس الرأس المعروف باسم تاج العقاب ، وفي ذقنها تلك اللحية الصغيرة المستعارة مازالت تظالعا كلها وهي في أتم حالة من الحفظ ، لأن يد التخريب لم تصل اليها • ومن المحتمل أن يرى الزائر وهو واقف يتطلع اليها صقرا يطير فوق رأسه أو سحلية ذات

(١) لسنا نعرف شيئا على الاطلاق من نهاية حتشبسوت ، وماذا حدث لها في آخر أيامها وبالرغم من العثور على تابوت في حجرة الدفن في مقبرتها الا أنه لم يشر حتى الآن على أي شيء مما يثبت أنها دفنت فيه . (المراجع)

لون أزرق وأصفر تثب على حشرة أو يرى يربوعا يشب فيروع الزائر
ويجعله يشب من مكانه *

ان هذه المخلوقات الحية التي تسكن الصحراء مارالت
تعيش في المنطقة بل هي حلقة تربط بين الزائر الحديث وبين الفتاة
والمرأة التي عاشت وحكمت كفرعون قبل أن يولد المسيح بألف
 وخمسمائة سنة *

نفرتي
الجميلة قد أتت

كان قد مر ما يقرب من مائة وخمسين عاما منذ عصر السلام الذي ساد أيام حتشبسوت • وكان النيل قد ارتفع ما يقرب من مائة وخمسين مرة وأتى بالفيضان المخصب لتربة الوادى الطويل ثم انحصر ، وأتى فراغة وذهب فراغة : منهم تحوتمس الثالث زوج حتشبسوت الذى قضى مدة حكمه وهو يخضع بلادا جديدة لحكم مصر ، وأمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع ، وأخيرا أمنحوتب الثالث العظيم الذى تعتبر مدة حكمه الطويل الذى بلغ ستة وثلاثين عاما أعظم ما بلغته البلاد من قوة ورفاهية كامبراطورية •

وامتلاأ البيت الأبيض بأموال الجزية ، وكثر فيه الذهب وبعثت الكثير من الدول الخاضعة لمصر بالأرقاء ليقوموا على خدمة الأسرة الملكية • ولم تقصر التجارة مع العالم الخارجى على استيراد البضائع فقط ولكنها أتت أيضا بمهرة الصناعات والأجانب والخبرات الجديدة ليزيدوا من جلال ورفاهية البلاط • وقد شجع الملك ، الذى كان نصيرا عظيما للفنون ، مختلف أنواع الصناعة أيضا ، قديمة وحديثة ، من بناء المعابد الضخمة الى صناعة الخرز الزجاجى الدقيق ، وارتفعت التماثيل فى كثير من مناطق الجنوب والشمال وعليها خانات ملكية باسمه كما أنه بنى معبد الأقصر الضخم لكى يستطيع أن يسجل على جدرانه قصة مولده نصف الالهى مقلدا بذلك حتشبسوت التى

حكمت من قبله • ومن الناحية الأخرى من النهر ، سهل طيبة ،
استدعى أمهر المهندسين المعماريين والمثاليين والمصورين ليشيدوا
معبدا له ، ولم يبق اليوم من هذا المعبد سوى التمثالين الهائلين
المشوهين اللذين كانا يحرسان بوابته واللذين سماهما الاغريق فيما
بعد « تمثالي ممنون » ونسبوا الى أحدهما قوة خارقة للطبيعة وأنه
كان في استطاعته الغناء عند الصباح عندما ترفع الشمس من درجة
حرارة حجارتها • ولسوء الحظ أحدث زلزال صدوعا في التمثالين
الهائلين في أيام الرومان ، وبالرغم من أن الامبراطور سبتيوس
سفرس قد رممهما ، فإن ذلك الصوت الغامض لم يسمع بعد ذلك
أبدا • وكل ما يسمعه الزائرون في الوقت الحاضر أو يسمعه سكان
القرى المحليون ليست الا رياح الصحراء تصفر حولهما وهما جالسان
مرتفعان الى أعلى على عرشيهما فوق حقول البرسيم المنبسطة وحقول
قصب السكر والذرة التي تمتد من حولهما •

ولسنا نعجب وقد وصل الفن الى هذا المستوى العالي من أن
بلاط أمنحوتب كان يزخر بالفنانين ، مثل الشعراء والرسامين والمثاليين
والمعماريين - وكثيرا ما تتجمع أكثر من صفة من هذه الصفات في
شخص واحد - والراقصين والموسيقيين ، وقد أضيفت الكنارة
السورية الى مجموعة الآلات الموسيقية المصرية وابتدع صانعو الآلات
الموسيقية أشكالا غريبة كثيرة ، لآلة الجنك أحب آلات الموسيقى
الى المصريين ، وكان من بينها نوع مرتفع مما اقتضى العازف أن يقف
عند العزف عليه •

وكان الفرعون صيادا ماهرا أيضا ويستمتع ببعض أنواع الرياضة
الخطرة كصيد الأسود في بلاد النوبة ومطاردة الثيران •

وكانوا ينفذون له كل نزوة من نزواته • والآن وقد أصبح في أخريات أيام حياته نراه في صورة منحوتة بطريقة متقنة ، ويرجع تاريخ صنعها الى أيامه ، كما لو أنه شخص غير مكترث فاطر الهمة ، أثقلته الهموم •

وكان الورثة لكل هذه العظمة والقوة والأبهة والرفاهية طفلين كانا يتنزهان في زورقهما الخفيف المصنوع من سيقان البردى ، فوق صفحة مياه البحيرة الصناعية الجميلة التي كانت في قصر الملكة «تى» الذى اشتهر بجماله والذى كان يتلأأ بألوانه الجميلة •

وكان أكبر الاثنين صبياً في الرابعة عشرة نحيفاً طويل القامة ينحني ظهره قليلاً ذا أكتاف ضيقة منحدره وكانت أرجله تبدو من خلف ثوبه الشفاف طويلة رفيعة ، أما وجهه فكان طويلاً ، وعيناه كبيرتان غائرتان معبرتان ، عيون حاملة ، وكانت شفثاه ممثلتتين حساستين ، محبا للجمال ، ولكنه لم يكن يخلو من ضعف ما • وكان هو ولى العهد واسمه مثل اسم أبيه أمنحوتب أى « آمون راض » مخلداً بذلك اسم الإله الطيبى آمون الذى أصبح الإله القوى في كل البلاد •

أما الفتاة فكانت تصغره ببضع سنوات ، أقصر منه قامه وأجمل تكويناً ، وكان رأسها يرتفع فوق عنقها النحيل مثل زهرة اللوتس ، وكانت ملامحها ونسب جسمها غاية في الجمال ، لها عيون واسمة مستطيلة وأنف مستقيم وشفثان مكتنزتان تطوقان فما رقيقاً ، وذقن بديع المثال • وكانت كاملة التكوين الى درجة أننا نراها في التمثال الشهير الذى يمثل الجزء الأعلى من جسمها كامراًة متقدمة في السن ، وهو التمثال الذى عثر عليه المستكشفون الألمان ضمن أنقاض مرسى أحد النحاتين فى الخرائب التى كانت تعلوها الرمال بتل

العمارة - حتى بالرغم من أنها كانت توضع على رأسها ذلك التاج الطويل البسيط دون أن تنفلت من تحته خصلة واحدة من شعرها لتزيد من جمال خطوط وجهها ، فانها تعتبر من أجمل حسناوات العالم الشهيرات ، وليست لدينا فكرة حقيقة عما كان عليه شكل هيلين طروادة ، كما أن ميلو وبوتشيلي ، قد قدما لنا التماثيل المختلفة للالهة فينوس في هيئة مثالية حسبما تفتقت عنها عبقرتهما * ولكن هذا التمثال النصفى لفترتي قد نقل من الطبيعة في وقت كان فيه الفن المصري في أوج واقعيته * وكانت هي وزميلها في اللعب أخوين غير شقيقين وكان كلاهما ابنا للملك ، ولكن بينما كانت أم الأمير أمنحوتب هي الملكة تى الزوجة الملكية العظمى ، فان أم فترتي كانت زوجة أخرى من الزوجات الثانويات في القصر (١) ، انها تنتمي الى البيت المالک عن كل من أبويها ولكنها لم تكن الأمير الملكية * وكان لأم أمنحوتب الملكة تى أربع بنات وهن شقيقات لأمنحوتب ، وكانت الوريثة العظمى هي أكبرهن سنا وكانت تسمى « سات آمون » ولكن أمنحوتب كان يفضل فترتي ليلعب معها وليشها سره ، وكان يسود بينهما التفاهم والعطف *

وانجابت حرارة ما بعد الظهر ، وأخذت الشمس العالية في السماء الصافية تهبط بسرعة وراء الجبال الصخرية الجرداء وهي تغمر بأشعتها كل شيء : رمال الصحراء ذات اللون الأشهب والمزارع الخضراء والنضرة وبيلاونات وأعمدة المعابد والقصور والمسلات المذهبة وأسطح بيوت طيبة البعيدة المبنية بالطوب اللبن والنهر البطيء

(١) في الأصل الانجليزى وددت المؤلفة ما كان يقول به بعض المؤرخين خطأ في أوائل هذا القرن بأنه من المحتمل أن تكون فترتي من أصل ميثاني ولكن البحوث أثبتت أنها مصرية صميعة .
(المراجع)

الحركة وقلوع المراكب ، فى ضوء رقيق باهت ، كما لو كانت آسفة
على مبارحة المكان الذى أحبته كثيرا ، لفترة ليلة أخرى •

وما أن بدأت الشمس تنحدر نحو الأفق حتى أخذت أشعتها تمتد
نحو الخارج كأنها تبارك الأرض ، وتحول المنظر الى اللون الوردى
وصارت السماء فى لون الذهب •

وكان الصبى أمنحوتب ذاهلا محمقا ، وانفلت المجذاف من بين
أصابعه فاستردته نفرتيتى ، وتطلعت الى وجهه ، وكانت أشعة الشمس
الغاربة تنعكس فى أغوار عينيه الداكنتين ، فنظرت اليه باعجاب ...

ويمكننا أن نتخيلها وهى تسأله فيم أنت شارد ؟ ... ،
ونستطيع أن نتخيله فى اجابته أنه صامت متردد ولم يكن عقله يدرك
الأمور بوضوح بعد ، لأن أفكاره لم تكن قد وضحت لها الأمور بعد ،
رغم أن عينيه كانتا مثبتتين على قرص الشمس الأحمر الذى ينحدر
بطء ثابت وهو يختفى بعيدا عن نظريه ... « انه بداية كل
شئ ... أب وأم كل الحياة ... الذى بدوره ما كنت لأحيا ...
أنا ... وأنت ... أو زهرة اللوتس المثبتة فى شعرك ... أو الحدأة
التي تصيح هناك فوق رأسينا ... » •

ويمكن أن تقاطعه الفتاة قائلة « هل تعنى آمون رع ... أبانا ؟ » ،
« كلا ... ليس هو الذى أعنيه انما أعنى قرص الشمس آتون ...
مصدر حرارته وضوئه وقوته ... انظرى الى أشعته انها شبيهة
بأيدي تباركنا ... وتبارك كل شئ فى مصر ... وفى كل البلاد ...
أنه ... الله ... » • « ولكن آمون ... ان الكهنة يعلموننا أنه هو
رع اله الشمس ... أوزيريس ... وماذا تقول عن أوزيريس الذى
يرسل مياه النيل لتأتى بالحياة الى الحقول ... ؟ » •

ولكن الصبى لم يكن مصفيا • انه يظل مستمرا مع أفكاره الخاصة
والتي يرددها لنفسه بصوت عال • « عندما أصبح ملكا سأنادى
به •• آتون •• قرص الشمس مصدر الحرارة والضوء ، الها أوحده ،
وسأكون له ابنا وستكونين أنت ابنته نفرتيتى ••• » •

ان هذا هو عين الضلال الدينى • ولكن الفتاة ترد بحدة ، لأن
هذا خروج على الدين • « انك لن تجرؤ أبدا • ولن يسمح لك كهنة
آمون بذلك • وعندما تتوج فرعون سينادى بك ابنا لآمون رع
وأوزيريس الحى » • وكانت الشمس وقتئذ قد اختفت تماما وجاء
رده بهمهة « لقد ازدادت قوة كهنة آمون أكثر مما يجب • ألم
تسمعى أمى « تى » وهى تقول بذلك لوالدنا مرات كثيرة ؟ انها
ستساعدنى واننى متأكد من ذلك » • « وأنا سأساعدك اذا استطعت ••
آتون •• قرص الشمس •• انها لفكرة رائعة •• الاله الأوحده بدلا
من الآلهة المتعددة • انك تعرف أننى لم أومن أبدا ايمانا حقيقيا
بكل هؤلاء الآلهة والآلهات •• وأرجو ألا تخبر أحدا بأنى قد
قلت ذلك • انهم وسيلة اثراء للكهنة الذين يتجرون بنشر الخرافات
بين الشعب • ولكن كيف يمكنك أن تخرج على التقاليد وكيف يمكنك
أن تصمد ازاء كل هذه القوى » ؟ •

« لقد وطأ أبونا التقاليد بقدميه • ألم يفعل ذلك ؟ عندما هام
حبا بأمى « تى » وهى من عامة الشعب وتزوجها وجعل منها الزوجة
الملكية العظمى ؟ » اذا كان قد استطاع أن يسخر من التقاليد ومن
الكهنة ، فانى أستطيع ذلك أيضا • يجب أن أعيش فى الحقيقة » •

وصمتت نفرتيتى ، وكان يخامرها الاعجاب والخوف • وفى ضوء
الشفق قاد الفتى والفتاة الزورق الى البر صامتين وقد انهمكا فى

أفكارهما •• وعندئذ ، وبعد لحظة صغيرة عادا طفلين مرة أخرى وأخذا يسابقان بعضهما البعض الى باب القصر •

ونستطيع أن نتخيل الملكة « تى » تنتهد وهى تراقبهما • انهما صغيران ومرحان ولا مسئولية عليهما ، وربما ظلا هكذا مدة طويلة ، ولكن المستقبل يبدو مظلماً كئيباً كعاصفة رملية تهدد بالهبوب ، وهى تخشى عليهما وعلى مستقبل الامبراطورية ، لقد أصبح زوجها الفرعون العظيم مسناً • ولكنه لا يزال يحتفظ بتلك القوة المذهلة التى جعلته يخرج دون أن يصيبه ضرر من الأخطار الكثيرة التى تعرض لها فى صيد الأسود والثيران فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت تظهر الآن من وقت لآخر فقط ، وسيأتى اليوم الذى تخمد فيه بعد ذلك وتتركه مريضاً منهوك القوى •

وكانت الرسائل والتقارير المرسلة الى كبير الوزراء من الحكام وقواد الحاميات فى ممتلكات مصر الخارجية - وان كان قد أخذ يتركها تدريجياً لها لتتصرف فيها نيابة عنه - تنبئ بتهديدات متزايدة لسيادة الامبراطورية المصرية • وكان يتحتم أن يكون فرعون بنفسه على رأس الجيش فى معركة يخوضها ضد قوة الجيشين المتزايدة فى آسيا ، ولكن أمنحوتب الزوج كان متقدماً فى السن ، وأمنحوتب الابن كان مازال أصغر من أن يقوم بمثل هذا العمل فضلاً عن أنه لم يكن يهتم بأمر الحروب •

وكان كهنة آمون رع فى داخل البلاد قد أصبحوا مع مرور الزمن أكثر قوة واعتزازاً بالنفس ، وكانوا منذ أن فرضوا تحوتمس الثالث على حتشبسوت وعلى البلاد بخدعة الحق الالهى فى اختيار الحاكم قد تملكهم الغرور ولم تعد تنتهى مطالبهم • فاذا ظلوا مطلقى

الحرية فانهم سوف يجعلون الفرعون ألعوبة في أيديهم ويحكمون البلاد بأنفسهم وربما يحدث هذا عما قريب ، أبان حكم ابنها ، وهذا ما لا يجب أن يحدث أبدا •

ولكن عندما كانت « تى » تتحدث بهذا الأمر الى زوجها فانه كان يكتفى بصرفها عن مخاوفها ضاحكا • انهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه شيئا ، ان أحدا لا يستطيع أن يسميه أمنحوتب الثالث الألعوبة ! ألم يتزوج من محبوبته « تى » رغما عنهم ، وأن يجعلها زوجته الملكية العظمى ويذكر اسمها بهذه الصفة على جميع الآثار والجعارين أبان حكمه ؟ ان مخاوفها لا أساس لها من الصحة • ثم كان يرسل بعدئذ فى طلب راقصى وموسيقيى القصر وأطفاله ، وخاصة محبوبته فترتيتى ، ولكى يتمتع نفسه ويشى تلك التخييلات الكثيرة فانه كان يدعو العازف على الجناك ليغنى له الأغنية القديمة •

••اتبع رغبتك

طالما أنت تعيش ،

ضع عطر المر فوق رأسك ،

والبس ملابس الكتان الفاخر ،

المصبوغ بالألوان الزاهية المدهشة ،

من عجائب الاله الحقيقية •

واعمل على زيادة مسراتك ،

ولا تدع قلبك يذبل ،

اتبع رغبتك وما فيه خيرك •

أنجز أعمالك على الأرض
بحسب ما يمليه عليك قلبك ،
الى أن يدركك يوم العويل عليك •
يوم لا يسمع القلب الساكن نحيب الباكين ،
ولا يصغى ذلك الذى فى قبره الى نواح المفجوعين •
احتفل بيوم السرور ،
ولا يستولى عليك الملل فيه ،
فلن يسمح لأحد أن يصحب معه ما يملكه ،
نعم : ولن يعود أبداً أحد ممن ذهبوا الى هناك •

وبعد ذلك تدخل الراقصات ويرقصن على أنغام « الصاجات »
والأذرع المصفقة ، وسوف ينسى الفرعون الكهل فى غمرة الطعام
والشراب والطرب هموم الحكم ويجعل الليل الحار الطويل يسرع
فى خطاه •



كان ذلك العام ١٣٧٥ ق.م • وفى ذلك العام توفى أمنحوتب الثالث
العظيم ونودى بابنه فرعون ليحكم بعده باسم أمنحوتب الرابع وكان
اذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره (١) • وعلى هذا سوف تظل الملكة
الأم « تى » تباشر مهام الحكم الى أن يكبر ليحمل على عاتقه

(١) لم يمت أمنحوتب الثالث الا بعد اكثر من عشر سنوات من حكمهما المشترك
ولم يكن أمنحوتب الرابع صغيراً ، بل كان اباً لثلاثة اطفال ولم يكن عمره يقل عن
ثلاثين عاماً على الأرجح • (المراجع)

المسئوليات الكاملة للحكم • وكان النضال من أجل القوة الذى كانت تتوقعه قد أخذ يزداد ، فالى من تستطيع أن تذهب ابتغاء للمساعدة ؟ •

فوالداها اللذان أتيا من مدينة أخميم أصبحا الآن متقدمين فى السن ولم يكن لهما أى وزن فى أمور السياسة فقد كان والدها هو الكاهن « يويا » الذى أسند اليه زوجها ذلك المنصب الهام وهو منصب رئيس فرسان الملك وأمها « تويا » التى رقيت الى وظيفة « مغنية آمون » وهى إحدى الوظائف الهامة فى معبد آمون بطيبة • وكان فى استطاعتها أن تعتمد على اخلاص « آى » مربى ابنها وتعتمد أيضا على زوجته « تى » مربية الفتاة ولكن نصيرها المحتمل والأكثر قوة كان أخوها أحد كهنة الشمس بمعبد الشمس بمدينة أرمنت • وكانت تعرف أنه كاهن جليل مخلص لعبادة الاله المصرى القديم رع ، وكان غيورا حائقا لاغتصاب الاله آمون لمكانة اله الشمس •

هكذا يمكننا أن نتخيل تتابع أفكار « تى » • ومع أننا لا نملك الا القليل من الأدلة فلدينا منها ما يكفى لأن نعرف أن أول من اتبعوا عقيدة آتون الجديد ، قرص الشمس ، كانوا يهدفون الى ازالة عبادة آمون وغيره من الآلهة والآلهات مع مجمع الآلهة المصرية وكان هؤلاء هم « تى » نفسها « وآى » وزوجته « تى » ، ونفرتيتى ، ومن البديهي مؤسس الفكر أمنحوتب الصغير نفسه •

ونحن نعرف أيضا أن كاهن الشمس أخا الملكة « تى » كان قد توج أمنحوتب بالتاج المزدوج لمصر العليا والسفلى فى أرمنت •

فهل تحدث الكاهن والفرعون فى أمور الدين ؟ هل جاءت فكرة آتون الى الرجل المسن عن طريق الالهام •• أم كانت رؤيا صبي حالم

ليقلق كاهنا في عقائده وطريقة حياته ؟ أم كان لقاء تم بين متصوفين أحسا قبل أى فرد في زمانهما بضرورة عبادة اله واحد ، أحسا بالتوحيد ، وهو أرفع مثال نعرفه لتفكير الانسان الدينى ؟ أم أنه كان توارد خواطر بين شاب خالم ورجل ساخر عركته تجارب الحياة ، وله من الخبرة السياسية ما يكفى لأن يتشبث بالفكرة كوسيلة لتحطيم قوة كهنوتية منافسة ؟ *

ومن المستحيل أن نقطع في ذلك برأى ولكن « تى » وفرتيتى اللتين أحبتاه رأنا أن الملك الشاب قد عاد الى طيبة وفي عينيه نظرة جديدة مقدسة ، كما أحست نفرتيتى أن الاله الواحد الأسمى آتون اله الشمس ذو النعم ، وأشعته ذات الضوء والحرارة ، كان بالنسبة لها من الآن فصاعدا ، مثلاً أعلى مدى الحياة *

وكانت المشكلة الأولى بالنسبة الى أمنحوتب هى زواجه . وكانت التقاليد تحتم عليه أن يتزوج من أخته « سات آمون » الوريثة الملكية الكبرى . ولكنها نفرتيتى ، هى التى كان يحبها ويثق فيها ، وقد عضدته « تى » فى ذلك . لقد أرادت له أن يكون سعيدا كما كانت هى سعيدة بزواجها من والده ، ذلك الزواج الذى قام على الحب . وقد رأت فى نفرتيتى أيضا ذلك الوفاء الذى سوف يحتاج اليه ابنها ليحفظه ثابتا عند سيره فى الطريق الثورى القاسى والاصلاح الدينى .

الا أن سات آمون كانت هى أيضا ابنتها وكان يجب ألا تضار أو تشعر بأنها نحيت جانبا . وربما استطاع الزمن أن يحل المشكلة كما يفعل ذلك أحيانا . فلتستمر سات آمون فى لعبها لفترة من الزمن ويمنع الحديث عن زواج فرعون لمدة عام أو عامين .

وقد حل الزمن المشكلة ولكن بطريقة مفاجئة ، فقد مرضت سات آمون وتوفيت • وقبل أن يكون أمام حزب الكهنة فرصة ليحتم عليه أن يتزوج من أكبر أخواته الثلاث الباقيات ، وهى الأميرة « تاخعيت » التى أصبحت الوريثة للعرش فقد أعلن أمنحوتب رغبته فى أن يتخذ نفرتيتى زوجة له وقد عضدته أمه الملكة « تى » واحتفل بزفافه وهو فى السادسة عشرة من عمره •

وهكذا أصبح الفتى والفتاة اللذان كانا طوال حياتهما يلعبان معا زوجا وزوجة واستبدلا بملابسهما التى كانا لا يعينان بها ملابس رسمية وغطى شعرهما الأسود أمام الناس بالتاجين وبغطية الرأس التى ترمز الى وضعهما نصف الالهى ، كما تركا زورقهما الصغير المصنوع من سيقان البردى ، وأصبحا الآن يضطجعان على الوسائد المريحة فى السفينة الملكية المسماة « آتون يضىء » التى كانت تنساب فوق مياه بركة القصر ويقوم الأرقاء بتسييرها والتجديف فيها • ما أجمل زوجته الصغيرة وما أجمل عينيها اللتين تشعان بالسعادة ، ولم يكن يحس بالخجل وهو يمسك بيدها أو يقبلها أو وهو يلمس وجنتها ويظهر حبه للعالم كلها •

وعندما كانت تراهما « تى » وقد أصبحت أرملة كانت ترتد الى غرفتها الداخلية وتبكي حبا المفقود • انها سوف تشيد الهياكل لذكرى زوجها وستستعين بالصلابة لتكون أكثر صرامة وتصميما فى نضالها من أجل انتصار ابنها على كهنة آمون الذين كانت تكرههم •

وعلى أى حال فإن وقت العمل الحاسم ضدهم لم يكن قد حان بعد ، ولم يكن حزب آتون قويا لدرجة كافية لأن ينتصر ، وكان أمنحوتب أصغر من أن يلعب الدور الرئيسى فى المسرحية • وكان عليها أن تستميل الى جانبهم عددا أكبر من النبلاء والموظفين الرسميين •

وفي الوقت نفسه كان يتحتم تصريف شئون حكم البلاد يوما بيوم الى جانب التهديدات المتزايدة الموجهة لممتلكاتها في الخارج • وكان على الفرعون الشاب أن يصحب « الملكة » في الرحلات الاعتيادية والدورات التفتيشية التي يقوم بها في النيل ذلك الشريان الرئيسى للبلاد لزيارة المزارات المقدسة في شمال البلاد وفي جنوبها ، ويجب أن يراها الناس ويراها الذين يحكمون البلاد باسم الملك •

وما من شك في أن جمال نفرتيتى قد أصبح أسطورة لأن الناس كانوا يخشون في جماعات لرؤيتها أينما ذهبت مع زوجها • انها كانت ايزيس الأم العظمى نفسها ، جاءت الى الأرض متجسدة في صورة فتاة • وكانت عقود الزهور تلقى عند قدميها الصغيرتين ، وكانت أجمل الفتيات يسكن العطور النادرة على رأسها ويعطرن العقد المكون من قطع على شكل أوراق الزهور والمرصع بالجواهر الذى كانت تطوق به جيدها •

كانت هذه الاستقبالات تأخذ بلبها ولكنها حيرتها أيضا • ان فرعونهم وزوجته « نفرو نفرو آتن نفرتيتى » الزوجة الملكية العظمى ، محبوبته ، سيدة الوجهين ، أمير الشمال والجنوب الورثة العظمى عاشت منعمة دائما والى الأبد - « كما كانت تذكر في الخانات الملكية - لم يكونا كذلك الشخصيات الجامدة التقليدية التي اعتادوا عليها في الماضى ، ولكنهما كانا زوجين شابين يعيشان في حب قوى ، ويظهران بلا تصنع وفي غير استحياء أو خجل ، لأن ذلك كان جزءا من عقيدتهما « الحياة في الحقيقة » رغم أن الناس كانوا لا يعرفون ذلك • أما بالنسبة للفرعون الحالم والفتاة التي كانت تشاركه في أحلامه ، فقد كان كل ما هو طبيعى أمرا حقيقيا طيبا • وكان جهما لبعضهما البعض حبا طبيعيا ، فما الذى يدعو لاختفائه خلف قناع

صناعى من التقاليد الملكية ؟ ان آتون الذى خلق العالم وحده كان يحب الحياة التى أودعها فيه ، ولهذا فان كل مظاهر تلك الحياة أشياء مقدسة ، النباتات والزهور ، والحيوانات ، والطيور ، والحشرات ، والناس . وعلى هذا لن يسمح الملك الشاب بأن تعمل له تماثيل يتملقونه بها ، ولا بد أن يصوره النحاتون والمصورون بأكتافه المنحدرة وأرجله الطويلة وذقنه المستطيل وعظام وجنتيه البارزتين لقد كان ابن آتون المختار ، وعلى هذا كان لابد أن يفرح به آتون كما كان هو فرحا بآتون . وكان هذا شأن نفرتيتى أيضا ، فلن يسمح بأن تصنع لها تماثيل غير حقيقية بغية تملقها هى أيضا . ولكن لم يكن هناك داع لذلك ، فقد كانت أجمل بكثير من أن يحاول أى فنان شيئا يزيد على حقيقتها .

وعندما أبحرا فى النهر تدفعهما الرياح الشمالية الباردة عائدين الى طيبة من منف بدا العالم كله كما لو أنه كان يخفق بقوة آتون المشعة . وكان الوادى الأخضر الضيق الواقع بين تلال الصحراء وبين النيل ، ممتلئا بشمار الأرض . وكان الناس الكادحون ذوو اللون الأسمر ، مبتهجين بالدفع الذى تبعته أشعته التى تغمرهم بالخير ، وهم يغرفون المياه الغالية بالشادوف ويصبونها فى الحقول فلولا ذلك لجفت الأرض وذبلت الى أن يأتى الفيضان ليحييها من جديد . وكان الرجال يحرثون الأرض مستخدمين الثيران ذات القرون الطويلة ، أو يعزقون محاصيلهم ، والنساء يجلبن الماء من النهر فى جرار فخارية طويلة ، وكان الأطفال الأشقياء العراة الجسد ينظفون ويزجرونها عندما ترفض أن تعود الى الشاطئ مرة أخرى . . ان كل هذا وكل شئ آخر انما يعتمد فى حياته على الشمس .

وبينما كانوا يتقدمون فى رحلتهم كانت الأوز والبط البرى تطير

عاليا وهي تصيح من نباتات وأحراش المستنقعات ، وكثيرا ما كانت تلوح أمامهما كلة داكنة على الشاطئ الطيني فتبزل الى الماء ، وقد كشفت عن بريق عين خبيثة وأسنان لامعة ، حتى التمساح وفرس النهر قد خلقهما آتون لغرض خاص به .

وكانت أشعة قرص الشمس المستدير ، تبدو كما لو أنها أذرع طويلة تنتهى بأيدي تلمس جميع المخلوقات في سعادة . حقا ، هذه هي الصورة التي كان لابد لأمنحوتب أن يصورها على جدران المعبد ، المعبد الذي كان يشيده في طيبة لآتون . ان قرص الشمس يرسل أشعته المنتهية بأيدي ، هذا هو الرمز الالهى الذى يستطيع أن يفهمه الجميع ليس شعبه في وادى النيل فحسب ولكن شعوب كل بلد ، لأنه « هو الذى يرى كل الأشياء الحية في كل مكان » .

ولابد أن نفترتيتي ، التى تتفق معه في أفكاره ومشروعاته اتفاقا تاما ، كانت سعيدة سعادة لا توصف . فكثيرا ما قضى أزواج عديدون رحلة شهر العسل صاعدين وهابطين في النيل ، وما زالوا يفعلون ذلك حتى الآن ، ولكن ليس من بينهم من كان أعظم جمالا من هذين الزوجين الصغيرين وأحلامهما التى تهز العاطفة عندما كانا يقضيان شهر عسلهما قبل ثلاثة آلاف سنة .

وعلى بعد مائتى ميل الى الجنوب من منف ومائتين وخمسين ميلا الى الشمال من طيبة يدور النهر دورة كبيرة تاركا بينه وبين حافة الصحراء الشرقية المنحدرة ، مساحة على شكل نصف دائرة من الأرض الخصبة ترويه مياه النهر .

ونرى الآن زراعات كثيرة وقرى عديدة في ذلك المكان ، ومن ورائها أرض مقفرة رملية من الأكمات والأنقاض التى تروى قصة

مدينة قديمة خربة ، وبالقرب منها منزل أو اثنان للمستكشفين دالة على أن المنطقة قد نقب فيها الأثريون ودرسوا أرجاءها • ولكن عندما أبحرت نفرتيتى وزوجها الفرعون مارين بها لم تكن هناك الا مجموعة من التلال العارية تكتنف البرارى وتسكنها الحيوانات المفترسة والطيور ، لم تمسها يد بعد ، وغير مزروعة ، ولم يقطنها انسان •

ومن الجائز ان الملك الشاب سأل قائد السفينة الملكية ما اسم هذا المكان ؟ ومن المحتمل أن الاجابة كانت « ليس له اسم يا صاحب الجلالة ولا يوجد هنا مساكن لأن جلالتكم ترون أنه مغلق من الناحيتين بالتلال التى تصل حتى شاطئ النهر • انه يبدو كعالم صغير مستقل » عالم صغير مستقل • ولا بد أن نفرتيتى وأمنحوتب قد ظلّا بعدئذ صامتين يفكران ، بينما كانت السفينة تتابع سيرها الى طيبة •



ولابد أن ذكرى رحلات شهر العسل المثالية ظلت عذبة حلوة في خيال نفرتيتى خلال السنوات الثلاث القاسية بصفة خاصة • لقد عادت هى وزوجها وقد امتلأ بتحمس شديد لعقيدتهما الجديدة ، عقيدة آتون الى درجة أنهما أرادا أن يضعا فكرتهما فى الحال موضع التنفيذ وأن يرفعا قرص الشمس الى مرتبة اله أعظم • وراقب كهنة آمون ، وهم محتمون بقوتهم التى استحوذوا عليها منذ أمد بعيدة وثروة معبدهم ، نشاط الفرعون الشاب بقلق متزايد •

وفى أول الأمر وضع الفرعون ألقاب واسم آتون فى خاتنين ملكيتين اعلانا بأنه أصبح ملكا على جميع آلهة مصر بما فيهم آمون • ثم أمر بعد ذلك بقطع مسلة من الحجر أعلى وأكبر من أى مسلة قطعت

قبلها ، وأن تحت وتزخرف وتغطي بالذهب تكريمة لآمون في معبده الجديد بالكرنك . واعتبر هذا العمل في غاية الأهمية لدرجة أنه جند أهم رجال بلاطه ليقوموا بملاحظة عملية قطع الحجر من المحجر .

وأخذ يزيد بالتدريج من ثروة معبد آتون ، وأهمل معبد آمون وسمى مدينة طيبة باسم « ضياء آتون » وسمى منطقة المعبد « مدينة ضياء آتون » وأخذ الأمر يزداد خطرا وجدية وذلك لأن ما بدأ كنزوة شاب في أول الأمر ، أصبح الآن تهديدا حقيقيا لهم ولآلههم . وبدأ كهنة آمون يتهامون ويدبرون المكائد . لو أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من هذا المأزق المعقد ، وأن ينصبوا بمعرفتهم فرعون في مكانه يكون ألعوبة في أيديهم ! شخصا يرضى لأن يعبد الآلهة بنفس الطريقة التي كان يتعبد بها والده وجده الأكبر ويعرف للكهنة أهميتهم كحراس مقدسين على الأسرار الدينية .

وما ان بدأ الزوجان يظهران في مقابلاتهما اليومية الرسمية حتى أحاطت بهما تيارات غامضة . فقد كانت هناك نظرات غابسة شريرة بين الجموع المهللة المبتسمة ، ولكن الفرعون كان شبه مقدس ، كان الها على الأرض ولا يجرؤ أحد أبدا على أن يرفع أصبعه ضده خوفا من أن تصب الآلهة نقمته على البلاد ، فقد يسبب أوزيريس هبوط فيضان النيل ويأتى بالمجاعة وبالوباء عليهم ، أو بانتقام مربع من نوع آخر .

وعلاوة على ذلك فقد كانت الملكة الوالدة « تى » قد قامت بمهمتها على وجه حسن . فقد اكتسبت الى جانب ابنها أكثر النبلاء ورجال البلاط العظيمى الشأن : مكونة بذلك حزبا يناصر فرعون ضد حزب الكهنة .

وأعندق المناصب الرئيسية فى البلاط على الذين اعتنقوا ديانة آتون أو أخذوا يتشدقون بمديحه ، وكافأهم على ذلك • وكان بينهم الوزير نخت ، وبالك رئيس المهندسين المعماريين والمثال ، وميرىع ومائى اللذان كانا من قواد الجيش ، وخصوصا آى الذى كان يتولى عدة مناصب هامة منها أنه كان حاملا لمروحة الملك والكاتب الملكى وحارس جواد الملك • أما زوجته « تى » فقد وصفت نفسها بأنها المريية الكبرى ، ومرضة الملكة الآلهة عابدة الملك •

ولكن شخصية أمنحوتب الشاب ، والاخلاص المتقد فى نفسه ، كان أهم ما فى الموضوع • فقد كانت شخصيته هى التى اجتذبت الكثيرين الى قبول العقيدة الجديدة بالاضافة الى ولائهم الشخصى له • وبدءوا هم أيضا ليعملوا من أجل آتون ، وكانوا يقدمون صلواتهم وقرابينهم فى معبده كما بدءوا يهلون معبد آمون • وسرى فى نهاية القصة كيف كانوا مخلصين ثابتين • ولكن كهنة آمون قد أصبحوا متمردين علانية وأدركوا أنها كانت حرب بقاء أو فناء بالنسبة لهم •

ولم تخبرنا ، لسوء الحظ ، أية وثيقة مما وصل الى أيدينا من ذلك العهد ما اذا كانت نفرتيتى و « تى » قد نصحتا الملك بالحذر أو لا • وكل ما نعرفه على وجه التأكيد أن الملك أمنحوتب انتصر بعد صراع مرير مع كهنة آمون ، وأعلن نفسه أنه الابن المقدس لآتون اله مصر الأعلى • وحرّم عبادة آمون وجميع الآلهة الآخرين فى أنحاء البلاد • وغير اسمه ذاته من أمنحوتب « آمون مطمئن » الى أخناتون « المفيد لآتون » ، وحلت أسماء ملكية جديدة محل الأسماء القديمة ، وهرب الكهنة وأصيب الشعب بالذهول • ولكن هذا الذى خضعوا له وأطاعوه كان إيمان الشاب المتحمس لمذهبه ، تعضده زوجته التى لم

تقل عنه في عزيمتها أو استقلال تفكيرها • وأصبحت المعابد القديمة ابتداء من بلاد النوبة في الجنوب الى البحر الأبيض المتوسط في الشمال ، المعابد التي كانت مخصصة لعبادة آمون وحتحور وأوزيريس وحورس ومئات الآلهة الآخرين ، ساكنة مهجورة ولم تعد تتردد بين جنباتها الأناشيد الكهنوتية أو أصوات آلات السستروم ، وظلت موائد القرايين أمام تماثيل الآلهة خالية خاوية •

وأيضا كان يظهر اسم آمون البغيض — على تماثيل أجداده في معبد الكرنك ، أو في معابدهم في الناحية الأخرى من طيبة ، وفي وادي الملوك أو على جدران القصر الملكي المزخرفة — فان جماعات العمال كانت ترسل بأوامر الفرعون لتشوها وتمحوها وتزيل أثرها • فقامت جماعة منها بتسليق مسلتي حتشبسوت وأزالت اسم آمون في أعلى مكان منهما ، حتى اسم والده نفسه أمنحوتب العظيم ، كان يجب عدم الابقاء عليه •

وكان هذا انتهاكا لحرمة المعابد ، ولا بد أن الملكة « تي » التي كانت قد أحبت زوجها شديدا قد اعترضت عليه ، ولكنها لم تنجح في اعتراضها وفي كل مكان كان المقطع الأول من اسمه يمحى فيتترك فراغا خاليا من الكتابة ، ليس على الآثار العامة فحسب ، ولكن حتى في الغرف الخاصة داخل القصر الجميل الذي كان قد بناه لها على مقربة من معبد مدينة هابو •

وعندما تطلعت نفرتيتي الى ما حولها فان كل ما رآته لم يكن الا فراغات قبيحة • فقد ذهب جمال النقوش والزخارف • وبصرف النظر عن السبب الذي دعا الى ذلك فان العنف دنس الجدران وأفسد جو الحب والسلام • وأحست بأنها لن تستطيع أن تكون سعيدة هناك بعد ذلك • وبدت طيبة كثيبة ومهجورة وعندما كانت تذهب لتتعب

فى بيت آتون مع الفرعون زوجها ، الذى كان يجب عليها أن تناديه باسمه الجديد « أخناتون » كان الشعب يبدو حزينا صامتا • انهم لا يتسّمون وينثرون الزهور عند قدميها كما كانوا يفعلون • ولكنهم كانوا يبدون تعساء وحيارى غير مستقرين ، ولكنها كانت تنتظر ولادة طفل وازداد الحب المتبادل بين الزوجين • وظل ايمانها بعقيدة آتون قويا بل وأصبح أقوى من أى وقت مضى ، انهما قد هزما الكهنة • ومع ذلك أين هى سعادتهما الماضية ؟ لقد بدت وكأنها قد طارت من النافذة مثل طائر خائف •

وأحس أخناتون بذلك أيضا • لقد كان يجب الجمال والانسجام المحيط فى كل شىء ، ومع ذلك فها هو قد وطئه هنا تحت قدميه مخربا الأشياء الجميلة التى شيدها أبوه وأجداده مخلقا القبح حوله • ولم يعد باقيا أمامه الا مخرج واحد • وهو أن يترك طيبة ويبنى عاصمة جديدة يكون كل شىء فيها جديدا ولا أثر للخراب فيه •

وتحمست نقرتيتى للفكرة • لقد أصبحت تكره بيتها وناقت الى الرحيل الى أى مكان آخر حيث لا تكون هناك أشباح ولا نظرات مؤنة ، ولا أبهاء خالية ومعابد مغلقة وسيشب أولادها فى جو من البهجة حيث يحكم آتون وحده بكل عظمتة ولا تكون للآلهة القديمة قوة تسبب لهم الكآبة • وقد بحثا الأمر معا ، يجب أن يكون المكان الذى ستقام فيه المدينة الجديدة ، لم يفسده انسان ، ولم يعيش فيه أحد من قبل • ولكن أين يجدون مثل هذا المكان ؟ وفجأة تذكر الهلال الواسع من الأرض الخصبة البكر الذى كانا قد رأياه من السفينة فى أثناء شهر العسل ، والذى كان ربان السفينة قد وصفه بأنه « عالم صغير مستقل » هذا هو المكان الذى سوف تقام فيه مدينة

آتون الجديدة • • في « مكان لا يملكه أى اله أو الهة أو أمير
أو أميرة » كما قال عنه أخناتون فيما بعد •

وبنشاطه المتقد المعتاد ، استدعى فى الحال الوزير نخت ورئيس
المهندسين المعماريين ، باك وحاتى وآى ليشرفوا على الأعمال •
ووصف لهم المكان وأمرهم بأعداد التصميمات وبتهيئ الأرض
للمباني والطرق ، وإحضار أجود الصناعات والفنانين ليزخرفوا الأعمدة
والجدران ، ولكن بغير الرسوم التقليدية القديمة التى كانت تستخدم
من قبل • يجب عليهم أن يرسموا الطبيعة كما كانت تبدو فى الحقيقة ،
نضرة وغير محدودة كما هى فى الحقيقة ، انها من صنع حرارة آتون
وضوئه : زهور ونباتات وطيور وحيوانات ممثلة ببهجة الحياة •

انه يحتاج الى ثلاثة معابد لآتون • أكبرها سيشرف عليه الكاهن
الأعظم ويشيد على مقربة من القصر الملكى ليتعبد فيه الفرعون
ونفرتيتى كل يوم • وسوف يكون هناك معبد ثان للملكة الوالدة
« تى » بقرب قصرها ، وثالث لأخت أخناتون الصغرى المسماة
« بكت - آتون » التى كانت وقتئذ الكاهنة العظمى للديانة الجديدة
وكان لابد لمعابد آتون من أن تكون مختلفة تماما عن المعابد القديمة
التى كانت لآتون والآلهة الآخرين • وكان يجب أن يبنى باك هذه
المعابد بلا سقوف وأن تكون أبهاؤها مكشوفة للسماء حتى يتيسر
لأشعة الشمس أن تضىء فيها بغير عائق • ولن يكون هناك
قدس أقدس داخلى ليدخله الكهنة بمفردهم ليخدموا تمثال الآله فى
« بيت النار » ، لا ظلام ولا غموض لا شئ يحجز الناس عن الههم •
وعلاوة على ذلك ، فان آتون ليس له تمثال ولكنه يشرق على
الجميع على السواء ، أما الرسوم التى على الجدران فيجب أن تمثل

قرص الشمس منتهيا بأشعة لها أيد تبارك العالم ، انها مجرد دلالات
تصويرية لفكرة مبهمه .

ان ظهور فكرة أخناتون هذه في وقت مبكر جدا في تاريخ نضال
الجنس البشرى نحو الحقيقة العالمية والمساواة والكرامة الانسانية ،
أمر يدعو الى الاعجاب . وقد مضى أكثر من ١٣٠٠ سنة حتى جاءت
الى المصريين رسالة مشابهة وذلك عندما انتشرت المسيحية من
فلسطين المجاورة .

ولم تكن هناك الا فئة قليلة من معاصريه هي التي فهمت حقا
ما كان يقول به ذلك المصلح والعالم الروحاني ، ولكنهم رغم ذلك
كانوا يصعون باحترام الى تعليمه ، لأنه كان الفرعون وفي يده كل
السلطة . ومع ذلك فانهم كانوا يصلون صلاة رجال البلاط المبالغ
فيها ويدعون للعقيدة الجديدة بأن : « تستمر الى أن يصبح الأوز
الأبيض أسود وأن يتحول ريش الغراب الأسود الى البياض ، وأن
تقوم الجبال من أماكنها وتتحرك وتفيض المياه متجهة الى أعلى
التلال » .

وعندما ينزل الستارة للمرة الأخيرة في المسرحية التي حدثت في
ذلك العهد ، فانا نلاحظ أن عددا قليلا جدا من بينهم ، أو لا أحد على
الاطلاق ، استطاع أن يلمح ما لمح أخناتون وفترتيته وخاطروا
بحياتهم في سبيلها . وبينما كان انشاء المدينة مستمرا في طريقه ، فان
المتلقين لأخناتون جعلوه يشعر أنهم كانوا يساندونه كل المساندة ،
مما جعل خياله يحلق عاليا ، ولكي يربط بين كل رعايا الامبراطورية
في الاعتراف بسيادة آتون على جميع الآلهة الأخرى يجب عليه أن
يبنى ثلاث مدن لا مدينة واحدة . ان عاصمته الجديدة أخت آتون
« مشرق آتون » تقع في منتصف مصر الوسطى في أرض الوطن ،

ولكن يجب أن تشيد مدينة أخرى في الجنوب ، في بلاد النوبة
ومدينة أخرى في الأقاليم الآسيوية في سورية •

ولا تزال خرائب مدينة آتون بالنوبة « جيم آتون » قائمة بالقرب
من شلال النيل الثالث في السودان ، أما معالم مدينة آتون الثالثة في
سورية فقد اختفت تماما ولا يدرى أحد اذا كانت قد دمرتها الحروب
أو الفيضانات أو الزلازل •

وبهذه الآراء والتصميمات الجديدة الرائعة للمدينة نشط رجال
البلاط ، بعد أن أذهلهم هزيمة الاله آمون بتشتيت كهنته الأقوياء ،
وأخذوا يعملون بنشاط وقد سرت فيهم حياة جديدة • وكان يتحتم
على كل شخص له أية مكانة أن يترك بيته ويكون مستعدا ليذهب
الى بيت جديد في المدينة الجديدة بمجرد أن يتلقى أمرا من أختاتون •
ولا شك أن الملك الشاب الذى كان غارقا في أحلامه مشغولا
بتصميمات القصور والمعابد ووضع طقوس جديدة وترانيم خاصة
 لعبادة آتون ليأخذ مكان الاله القديم ، كان بعيدا عن معظم اللفظ
والاضطراب وتذمر وقلق المحيطين به •

ولكن نفرتيتى كانت تعيش في وسط هذه المشاكل ، وكان يتحتم
عليها أن تصغى الى الزوجات والأمهات المهمومات وتهدىء من
اضطرابهن •• من الذى سيرعى منازل أسرهن في طيبة ؟ وما الذى
يأخذونه من أمتعتهم معهم ؟ وهل من الصحيح أن الفرعون قد صمم
على ألا يعود الى طيبة أبدا ؟ وهل سيقوم بجلالته بدفع جميع مصروفات
نقل الأسر والأمتعة المنزلية والخدم ؟ فضلا عن ذلك فانهم كانوا
راحلين بسبب نزوته • ولكن نفرتيتى كانت تصر بشدة على أنها
ليست نزوة ولكن عن ايمان عميق يحتم اتخاذ هذه الخطوة ، وكانت
تضيف شىء من الحدة أنها تشارك في هذا الايمان بقلبها وروحها •

ولكن ما هي حالة المناخ هناك ؟ ان المدينة الجديدة أكثر بعدا الى الشمال ، أقرب الى منف التي كانت معروفة بيردها في الشتاء • كيف سيعيش الأطفال هناك ؟ هل يسقطون صرعى المرض ويموتون من البرد ؟ فضلا عن ذلك أنه مكان جديد على حافة الصحراء • • فما الذي يدعو الى ذلك • انها سوف تعج بلا شك بالحيات والعقارب وكلاهما قاتل مميت • وسوف يكون هناك في التلال ضباع وذئاب ، وسوف توجد تماسيح وأفراس نهر في المستنقعات القريبة من النهر • • انهم أحسن بكثير وهم هنا ، أكثر أمنا وطمأنينة ، حيث الطبيعة قد ذلت وعرف المفترس من الحيوان أنه يجب أن يظل بعيدا عنهم •

ولكن نفرتيتي كانت مخلصه لذلك الحلم • وفضلا عن جمال الأنوثة والعاطفة التي كانت تتجلى في ذلك الوجه الجميل فقد كان فيه أيضا قوة الفولاذة ، قوة وإصرار رأتهم فيها أم زوجها « تى » عندما كانت لا تزال طفلة • وكانت أصغر قليلا عما هي عليه الآن بالرغم من أنها كانت قد تزوجت وعما قريب ستصبح أما ، وعندما كانت تحس بالتعب من تهدئة الزوجات المتذمرات والأمهات القلقات ، كانت تشتد في ردها • من الطبيعي أن جلالته سوف يقوم بدفع نفقاتهم ويكافئهم بسخاء على ولائهم ، وسوف يكون في استطاعة كل أسرة نبيلة أن تبنى بيتا رائعا وتنشئ حديقة وبركة لزهر اللوتس ليلعب فيها أطفالهم دون أى خوف ، كما كان شأنهم في طيبة • وهواء الصحراء أنقى وأجف من الهواء في طيبة التي كانت محاطة بمساحات واسعة من الأراضي المزروعة والأراضي التي تغمرها مياه الفيضان ، وسوف تقوم هي شخصيا بإنشاء حديقة نباتات طيبة تنمو بها كل الأحياء الطيبة المعروفة لعلم الطب • • فاذا ظللن بعد كل هذا مذكرات ووجوههن عابسة فانها سوف تقول لهن يبرود : ان

أولئك الذين يأتون بمحض رغبتهم الى « أخت - آتون » فسوف يلقون الترحيب ويحمد لهم عملهم ولكن أولئك الذين لا يأتون بمحض رغبتهم فانهم يستطيعون البقاء في طيبة الصامته التي سوف يتحول عنها تيار القوة والحكم والتجارة ، وحيث لا يكون لهم اتصال بفرعونهم • ألم يفهموا أمره الملكى ؟ ان كل أهل البلاد سيأتون الى هنا لأن العاصمة الجميلة « أخت آتون » ستصبح عاصمة أخرى وسأمنحهم المشول بين يدى سواء كانوا من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب •

وأخيرا ، وفي السنة السادسة من حكمه ، وبعد ثلاث سنوات من زواجه أبحر أختاتون الفرعون ومحبوبته الزوجة الملكة العظمى « نفرتيتى » والملكة الوالدة « تى » وأخت نفرتيتى الأميرة « موت مزوا » والكاهنة « بكت - آتون » أخت أختاتون ، ومعهم أقارب آخرون من بينهم طفلان وهما « سمنخ - كا - رع » ، « وتوت عنخ آمون » كانا من أبناء أمنحوتب الثالث من الزوجات الثانويات ، ومعهم عدد من النبلاء ورجال البلاط والأصدقاء • أبحروا جميعا فى أحد الأيام من المرفأ الكبير فى طيبة ، نفس المكان الذى كانت بعثة حتشبسوت الى بلاد بونت قد ألقت فيه مراسيها قبل ذلك بما يقرب من مائتى عام ، ومعها حمولتها الغريبة من اللبان والحيوانات الغريبة عليهم ، والبضائع ، وذلك لاعلاء شأن الاله آمون ولتزيد من ثراء طيبة ومصر •

وكان أسطول السفن يغادر طيبة هذه المرة الى الأبد • وأعلن الفرعون وهو يغادر طيبة ، « ان جلالتي لن يغادر حدوده مدينة أخت - آتون أبدا » وبينما كانت السفينة الملكية تنساب بسرعة مع التيار منحدره نحو الشمال وقفت الجموع صامته ومنقبضة

النفس لترى الفرعون وهو يرحل بعيدا عن مدينة آمون البغيضة الى قلبه . ولكن ماذا كان شعور نفرتيتى ؟ ان الفتيات الجميلات لم يلقين الزهور عند قدميها ، ولم يتصايحن ببهجة عند رؤية جمالها . انها كانت تغادر بيتها ، البيت الوحيد الذى عرفته ، وقد أعلن زوجها تصميمه على البقاء داخل المكان الذى حدده ليكون ملكا لآتون وكان لا يزيد طوله على عشرة أميال .

ولكن أفكار وأحاسيس النساء يحسن أن تظل في الخفاء ولا تجد لها مكانا في كتب التاريخ . ومن ناحية أخرى فمن المحتمل أن نفرتيتى، مثل زوجها ، لم تحس شئ من الندم ولكنها أحست بشئ من التخلص مما كانت فيه . وبالفرح بالحياة الجديدة التى سوف يبدأها معا في تلك الأرض البكر ، لأنفسهما فقط وانما لأطفالهما ولأتباعهما المخلصين أيضا .



قام عدد من البعثات الأثرية بالتنقيب في موقع المدينة التى بناها أخناتون ونفرتيتى والمعروفة الآن باسم تل العمارنة نسبة الى احدى قبائل العرب التى أقامت هناك بعد ذلك بزمان طويل ، وبنى أهلها أكواخ قريتهم من اللبن على جافتها وقد وجد المستكشفون بعد ازالة أكوام الرمال عن الجدران ، واعادة تخطيط الطرق أن المدينة قد بنيت بسرعة . وأنها لم تخطط تخطيطا أصوليا في أى وقت من الأوقات .

ففيها ثلاث طرق رئيسية تمتد موازية للنهر ، وكان القصر الملكى والمعبد الرئيسى المشيد لآتون يحتلان أفضل موقع في وسط التلال وكانا يتجهان نحو الشرق وبجانب النهر ، ولكن القصور الأخرى وبيوت النبلاء كانت مختلطة بأكواخ وبيوت الفقراء البسيطة . ومن

الواضح أن ذوى النفوذ وصلوا الى هذا الموقع قبل وصول الملك وأسرته ووضعوا أيديهم دون أن يعترضهم أحد على أى مكان أرادوا تملكه ، ويشمل المنزل والحديقة والسور المحيط بهما •

ووصلت بعد ذلك جماعة من الصناع وأصحاب الحرف والفنانين والفلاحين والعمال وحشدوا مساكنهم حيثما استطاعوا فى ممرات ضيقة ملتوية تؤدي الى الطرق الرئيسية الثلاث • وبعد ذلك الوقت بقليل نشأت على الحافة الخارجية لمدينة أخت - آتون ، قرية يقطنها أصحاب الحرف ولكن المنازل والأكوخ تكدست حيثما تيسر المكان، فكان صياغ الفضة يسكنون الى جوار نبلاء القصر وصانعو الزجاج الى جوار منزل كبير الوزراء ، بينما كان الكاهن الأعظم يعيش الى جوار صانع الجلد •

وفى سرعة فائقة صنعت قوالب الطوب اللبن وبنيت الأسوار حول المنازل الكبيرة وبدأت الحدائق وبرك اللوتس فى داخل المنازل ، كما لو أنها كانت من عمل ساحر ، اذ كان يجب الاسراع فى العمل ليكون جزء من المدينة معدا قبل أن يعيل صير الملك ولا يطيق البقاء فى طيبة أكثر من ذلك ، وجلب النبلاء الأثرياء الأحجار لأعتاب منازلهم واستأجروا مهرة الصناع لينقشوا عليها كتابات هيروغليفية تعلن ولاءهم لأخناتون وعقيدة آتون • بدأ النقاشون فى العمل لطلاء الأعمدة المغطاة بالملاط والتي تركز فوقها السقوف المستوية ، ويلونون جدران المنازل بالألوان الزاهية التى كان أكثرها مصنوعا من كتل الأحجار الجيرية الملونة بعد سحقها ، اذ كانت توجد هذه الأحجار فى الصحراء الممتدة وراء المدينة • ولم يدخروا وسعا ليكون القصر الملكى والمعبد معدين لوصول الفرعون ولكن الطلاء والجبس لم

يكونا قد جفا تماما عندما جاء اليوم الذى رأى فيه الحراس الذين كانوا على التلال وصول الركب الملكى واستعد الخدم وموظفو المعبد بسرعة لاستقبالهم •

وظهر القصر بموقعه العظيم على جانب مجرى النهر كما لو كان أكثره اعمد قائمة ، وكانت مكشوفة ومزخرفة بالألوان الزاهية ، الزرقاء والحمراء والذهبية والخضراء والصفراء وترتفع فى الخلف مباني الجزء الأوسط من القصر وكان أعلى من أى بناء آخر فى المدينة الجديدة ، كما يتناسب مع مركز الملك • وكان يقوم الى جواره المعبد الذى أصبح حقيقة • وزال كل ما عسى أن يكون قد أحست به من ساريات الأعلام الطويلة تنساب منها قطع مستطيلة من قماش أحمر تختلط وتتراقص مع أشعة الشمس ، معلنة سيادة آتون كاله • وكان ابنه أخناتون وابنته نفرتيتى يلبسان أشرطة حمراء متشابهة ، ولكنها أصغر حجما تنساب من غطاء الرأس الملكى المستطيل الشكل •

وكان الملك والملكة ينطلقان معا ، كأى رجل وزوجته الى الحلم الذى أصبح حقيقة • وزال كل ما عسى أن يكون قد أحست به من حزن لمغادرتها طيبة • وعندما رست السفن وانتهت احتفالات تقديم القرابين للاله آتون فوق المذبح المرتفع فى وسط المعبد المكشوف الى السماء ، قاد أخناتون زوجته نفرتيتى الى داخل القصر حيث كانت هناك مفاجأة تنتظرها ، كان البهو الكبير قد زين من الأرض الى السقف ، وكانت الأعمدة مزخرفة بألوان مثل الجواهر ، ولكن أرضية البهو كانت أعجوبة حقا • فقد رسم الفنانون فيها بركة لوتس كاملة تسبح فيها الأسماك تحف بجوانبها سيقان البردى التى تتمايل مع الهواء وتلعب فيها عجول صغيرة فى ضوء الشمس البراق ، وقد أخافت الطيور البرية والبط والأوز فطارت فى الهواء فى شكل رائع

ولكن غير راضية عن ازعاجها • انها لم تر أبدا شيئا كهذا من قبل ،
انها لم تر شيئا يماثله في جماله • لم تكن هناك رسوم انسانية جامدة
ابتدعها فنان ، غرفة مغلقة ، ولكنها صور الطيور بزغبها القرنفلى
الناعم وريشها الرمادى وأوراق زهور اللوتس الحمراء والزرقاء
والاحساس بالرياح وهى تهب فترفع سيقان وأوراق الغاب والبردى
من الماء الى ضوء الشمس •

لم تقع عينها على ثغرات قبيحة تحكى قصة النزاع والبغضاء
ولكن وقعتا على جمال وانسجام ولا شيء غير ذلك • وكانا يستطيعان
أن يعيشا هنا في أغنية الحب السعيدة فرحين في نعمة اله الشمس •
وبعد قليل ولد طفل نفرتيتى الأول (١) ، وكان ابنة وأسموها مريت
آتون « محبوبة آتون » • وبعد عام آخر أتت الى الوجود ابنة أخرى
« ماكت آتن » « عطية آتون » ، ولم يقف ابتهاج الملك عند حد •
يجب أن ينحت النحات بالك صوراً للأسرة كلها حيثما كان هناك جدار
ملائم ، وأن يجلس أخناتون في مثل هذا النقش فوق كرسى وترسم
محبوبته نفرتيتى وهى تمسك بساقه أو تمس كتفه في حنان ، وتجلس
احدى ابنتيه فوق ركبته وتلعب الأخرى قريبا من قدميه ، ويجب أن
يدوا في صورة طبيعية رقيقة كما هم في حياتهم الحقيقية •

وفوق الصخور التى تعلو المدينة نقش هذا الدعاء المؤثر من أجل
أسرته « ان الحب العذب ملأ قلبى للملكة ولأطفالها الصغار ، اللهم
هب عمرا مديدا للملكة نفرتيتى حتى تتمتع بعطايا الفرعون في هذا
العمر المديد • وهب عمرا مديدا للابنة الملكية مريت آتون وللابنة

(١) عندما أتت نفرتيتى مع أخناتون لوضع أساس المدينة كان معيها ابنتان
وعندما عاد للاقامة فيها بعد عامين كانا والدين لثلاث بنات • (المراجع)

الملكية ماكت آتون ولأطفالهما وأن تتمتعاً بهبات الملكية أمهما ، دائماً والى الأبد » وتعبيراً عن حبها الكامل وسعادتها حفرت نفرتيتى الى جواره دعاء الى آتون « امنح ابنك الذى يحبك الحياة والحقيقة الى سيد البلاد أخناتون حتى يمكنه أن يحيا متحدا ضعهما الى الأبد ، أما بالنسبة لزوجته نفرتيتى فليتها تحيا دائماً والى الأبد الى جانبه ، وأن تفعل ما ترضاه ، انها تعجب بكل ما خلقته يوماً بعد يوم » •

وكان ذلك المكان الذى أتوا ليعيشوا فيه مكاناً لطيفاً فعندما تسقط الأمطار النادرة أو بعد ما يكون النيل قد قاض وروى الحقول، تنبت الأزهار وتفتتح بشكل مبهج زهور الخشخاش القرمزية والأقحوان الأبيض بقلبه الأصفر وزهور البانسيه الزرقاء •• وأزهرت أعواد نبات الحلفا على جانبى النهر وأزهرت سيقان اللوتس زهوراً ذكية الرائحة ، وكانوا يصنعون منها جميعاً حبلاً وعقوداً يلفونها حول كل اناء يستخدمونه •

ويمكننا أن نرى كل هذه الزهور ، وقد زخرفوا بها حلى نفرتيتى التى عثر عليها فى الرمال وهى مكسرة الى قطع صغير • فقد عثر على قلاداتها العريضة التى كانت تلبسها والتى كانت من الزجاج الملون على هيئة وريقات الأزهار ، وأساورها وأقراطها ونراها كذلك فى بقايا رسوم الجدران الملونة • والآن وقد تم تشييد أخت آتون ، أخذ الفنانون ومهرة الصناع من جميع أنحاء الامبراطورية يأتون اليها ليعملوا فيها ويخرجوا قطعاً فنية دقيقة الصنع من أجمل ما صنع فى مصر فى أى وقت من الأوقات •

وهذا تدمر زوجات النبلاء • وعشن فى رفاة كما كن يعشن فى طيبة وكن يمتصن الوقت فى اللهو وتذوق الفنون معتقدين بما كان يفعله فرعون وزوجته وكانت منازلهن مريجة ومزخرفة وكلها مبنية

بنفس التصميم ، وبالرغم من أن بعضها كانت بالطبع أكبر وأوسع من الأخرى ، مثل منزل كبير الوزراء نخت ، ومنزل رع نفر رئيس الاسطبلات ومنزل حاتى المشرف على الأشغال •

وكانت المنازل محاطة بأسوار مستطيلة لتصون المنزل والحديقة عن الأنظار ولها بوابة واحدة فقط تكفى لمروءة صاحب البيت ليخرج بها الى الطريق ، وكانت الحدائق والأشجار والمزروعات تنمو فى حفر محفورة فى الرمل ومملوءة بطنى النيل وكان على البستانين أن يقوموا برىها كل يوم • وكان لكل حديقة بركة لوتس مستطيلة وجوسق وتكعيبة عنت للجلوس تحتها فى لىالى الصيف •

وكانت مبانى الخدم الملحقة بمبانى المنزل فى داخل نطاق الأسوار، بجوار بعضها البعض فى آخر الحديقة • وكانت هناك زرائب للماشية واسطبلات للجياد ومكان للكلاب وصوامع غلال يهيلون فيها الشعير والقمح من فتحة عند القمة ويأخذون منها ما يريدونه من فتحة جانبية عند أسفلها ، وفيها مكان للخبز ، فيه فرن من الفخار يعمل أرغفة العيش المستوية السطح ، ومطبخ به كوانين لأجل غلى الماء وشواء اللحم ومخازن من أنواع مختلفة •

أما المنزل نفسه فكان مشيدا فوق رصيف مرتفع ، وله عدد من الدرجات القليلة الارتفاع ولها حاجزان على الجانبين ، وتقود هذه الدرجات القليلة الى الباب الأمامى ، وهو المدخل الرسمى للمنزل الذى يحمل اسم مالكة وألقابه وبعض مناقبه ، منقوشة على عضادتى الباب وعلى عتبة • وكان الحجر ملونا باللون الأصفر الزاهى ، وقد ملئت تجاويف الكتابات الهيروغليفية المحفورة بعجينة زرقاء اللون ، وكان كل ذلك يظهر فى شكل جميل يشرح النفس •

وفي الداخل كانت توجد حجرة البواب الذى يستطيع أن يشاهد من مكانه جميع الداخلين والخارجين ، ومن الردهة يصل الزائر الى غرف الانتظار حيث كان الزوار يجلسون ، وهى حجرات مزخرفة بأفاريز زاهية ، وهى باللون الأحمر والأزرق والأصفر والأخضر وكتابات كبيرة الحجم فيها مزيد من مدح مالك المنزل وولائه لأخواته وعقيدة آتون .

وكانت القاعة الرئيسية الكبرى ، والتي كان يرتفع سقفها عاليا عن باقى المنزل ، هى مركز البيت ، وكان السقف ملونا باللون الأزرق ليمثل السماء ، وكانت الأعمدة المزخرفة التى تحملها ذات تيجان على شكل زهرة اللوتس . وفى القصر الملكى كانت هذه الأعمدة محلاة بالمينا ولامعة وألوانها ذهبية وزرقاء وحمراء . وكانت الأرضية مصنوعة من بلاطات كبيرة من الطوب اللبن ، وكانت تدهن أولا بالجير ثم يرسمون عليها بعد ذلك بعض المناظر الطبيعية ، وكانت الجدران ملونة أيضا وكانت اضاءة القاعة غير مباشرة ، لأنه لم يكن لها نوافذ ، وكان الضوء يأتى إليها من فتحة تجرى حول أعلى الجدران تحت السقف مباشرة وضوءها الذى تعطيه يريح العين ويجعل الانسان يحس بالرطوبة بعد النور الساطع الشديد والحرارة فى الخارج . وكانت القاعة لا تستخدم الا فى المناسبات التى تغلب عليها الصفة الرسمية ، كاستقبال الفرعون وزوجته الجميلة مثلا . ومن القاعة الرئيسية تفتح غرفة استقبال داخلية . وكانت تمتد بجانب أحد الجدران مصطبة مرتفعة قليلا مبنية من الطوب ولها افريز قليل الغور له ثلاث فتحات ، واحدة للسير فى الوسط وواحدة على كل من جانبيه لضيوفه الأكثر حظوة ، وأمام المكان الذى يجلس فيه كان يوجد فى

أرضية الحجرة حفرة قليلة الغور تتسع لوضع موقد نقالى كان يحرق فيه الفحم النباتى فى الشتاء •

وفى أحد الأركان كانت توجد درجة حجرية واحدة تقود الضيف الى دورة المياه • وهناك كان يستطيع أن يأخذ بنفسه الماء الموضوع فى جرة فخارية كبيرة موضوعة فى حفرة غير عميقة • وكانت جدران غرفة الاستقبال المربعة الشكل ملونة باللون الأبيض وفى هذه الجدران كان يوجد المجراب فى الناحية الغربية وقد لون باللون الأحمر الداكن وكان يصور فيه فى بعض الأحيان الفرعون يتعبد الى اسم آتون داخل خانة ملكية ، وقد وقفت نفرتيتى خلفه •

وفى الجدران الأخرى كانت توجد أبواب تؤدي الى « الايوان الغربى » الذى كان مكشوفاً للشمس والذى تستعمله الأسرة شتاء ، والى « الايوان الشمالى » حيث يمكن أن يحس الانسان بكل نسمة من الهواء الرطب الذى يهب فى الصيف • وتؤدى مجموعة من الدرج العريض الى غرف النوم بالطابق الأول وهى تدور حول القاعة الرئيسية على شكل دهليز • وكانت هذه هى الغرف الخاصة بأهل المنزل وبها غرف نوم السيد والسيدة فى أحسن مكان • وكانت توجد فى كل منهما كوة بسيطة فى الحائط ومصطبة قليلة الارتفاع للنوم عليها وغرفة استحمام خاصة ومرحاض ، وكانت أرضية كل منهما مغطاة بالأسمنت وجدرانها ملونة باللون الأبيض • وكان هناك نظام خاص بالمجارى يحمل النفايات بعيدا الى الأرض الموجودة أسفل المنزل • ولما كان الخدم من الرجال والنساء لذا ينبغى أن ينام كل جماعة منهم بعيدا عن الآخرين ، فقد بنيت مساكن منفصلة لهم فى كل منزل •

وفى الطابق الثانى من المنزل كانت توجد قاعة الولائم ، ومطبخ خاص وغرف الخزين وعلى الأخص النبيذ ، وبهو خاص للنساء ،

حيث كان لربة الدار غرفة استقبال خاصة باستقبالاتها الرسمية ومزخرفة بشكل جميل ، ومحراب لعبادة الاله • ولا بد أن الغرف الصغيرة العديدة التي كانت في هذا الجناح ، كانت مخصصة للأطفال ومربياتهم ومعلميهم ، اذ وجدت بين الأنقاض كثير من اللعب الجميلة، وعلى الأخص مجموعات مسلية من القردة والحيوانات الأليفة الأخرى •

وتدفقت الثروة والأموال الى المدينة الجديدة من جميع أنحاء الامبراطورية وكافأ أخواتون أولئك الذين تبعوه الى هناك بالذهب والأمتعة الغالية لدرجة جعلت أحد النبلاء يكتب عنها قائلاً : « أخت - آتون العظيمة في الجمال ، صاحبة الحفلات السارة ، الغنية بما تملكه والتي تهلل الأسارى عند النظر الى جمالها • انها مليحة وجميلة ، وعندما يراها انسان تبدو مثل ومضة السماء » •

وكان أخواتون وفرتيتي يستيقظان كل يوم على أنشودة من المديح ، ترتل في هدوء حتى يكون استيقاظهما رقيقا ، ثم يفترقان بعد ذلك فيذهب هو الى سكنه الخاص وهي تذهب الى حجرتها الخاصة في جناح الحريم ليغتسل كل منهما ويتزين • وكانت خادمتا فرتيتي يقمن أولا بغسل جسدها بالماء المعطر ثم يدلكنها ويعطرن جلدها الزيتوني اللامع بالزيوت المعطرة المحفوظة في أوان مرمرية عظيمة القيمة فاذا كانت تتأهب للذهاب الى احتفال خاص أو الى وليمة كبرى فانها كانت تجلس الى جوار نار من خشب الصندل والصمغ الذكي الرائحة والعطور لتبخر وتعطر كل جسمها •

وكانت تخضب كفيها وقدميها بالحناء ذات اللون الوردى الأحمر • وعندما يجفان كانت ترتدى ملابسها الكتانية البيضاء الشفافة تقريبا والتي تضيق عند الخصر ثم تضع صندلها الرقيق الجميل في قدميها •

وتمسك بمدئذ بمرآتها البيضاء المصنوعة من النحاس المصقول من
يدها المصنوعة من العاج المخفورة وكانت تسوى بنفسها حاجبها
المقوسين بزواج من الملاقيط الدقيقة ثم تجعل عينيها بالكحل وهو
صبغة سوداء فتعمل شرطة عند الركن الخارجى من كل عين وتعفر
أهدابها وتضع قليلا من الكحل تحت الجفنين لتحى العين من وهج
الشمس والغبار المتطاير من الصحراء • وتأخذ من أوان صغيرة
الحجم ، صبغة حمراء لوجنتيها وشفتيها ، وتصبح بعد ذلك على
استعداد لأن تلبس مجوهراتها القائل والخواتم والأساور والأقراط
والتي كانت تحضرها إليها السيدة المشرفة على خزائن الملابس
الملكية لتختار منها ما تشاء •

وكان شعرها يقص قصيرا جدا طبقا « لموضة » العصر ، ويعطر
بمشط جميل له صفان من الأسنان • فإذا كانت تستعد للظهور فى
مناسبة رسمية فانها كانت تعطيه بغطاء الرأس الملكى الطويل ذى
اللونين الأزرق والأحمر الذى تعلوه رأس الحية « سيدة الحياة »
لتحميها ، بينما تتطاير من خلفها الشرائط الحمراء لتدل على مكانتها
الملكية • وعندما تنتهى من كل شىء تلحق بأختاتهن للافطار ، وكانت
المربيات يأتين بالأطفال ليدللهم ويلاعبهم ، ويتمتع بهم والداهما
العطوفان •

وبعد ذلك يأتى دور ظهورهما أمام الشعب من نافذة خاصة حيث
كانت الشمس تضىء فى بهاء وتجعل حليهم الذهبية ومجوهراتهم
تتألأ • ويرمى أختاتهن بالزهور والعقود الذهبية الى أتباعه الأوفياء
الواقفين تحت النافذة وكان هذا الذهب لايزال يأتى إليه من جزية
الجهات النائية من امبراطوريته المهمة •

ثم يذهبان لزيارة المعبد ويقومان بتقديم قراينهما اليومية من

الطعام والفاكهة والأزهار على المذبح المرتفع المكشوف حتى يستطيع
الاله أن يرسل ضوءه اليه ويتمتع بما يقدم اليه • ويخرج الكاهن
الأعظم ليقابل الفرعون ويغنون للفرعون الشيد الكبير الذى ألفه
أخناتون :

أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء ،
يا آتون الحى يا من كنت بداية الحياة •
عندما تشرق فى الأفق الشرقى ،
تملأ كل البلاد بجمالك ،
وعندما تغرب فى الأفق الغربى ،
تظلم الأرض كما لو كان حل بها الموت •
ويخرج كل أسد من عرينه ،
وتخرج الزواحف لتلدغ ،
ويلف الظلام كل شىء ،
ويعم الأرض السكون •
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه ،
انك تطرد الظلمة ،
فيهب الناس من نومهم ويقفون على أقدامهم ،
لأنك أنت الذى أيقظتهم •
فيغتسلون ويلبسون ملابسهم ،
ويرفعون أذرعهم ابتهاجا عند ظهورك ،

• ويؤدون أعمالهم في كل أنحاء الأرض ،
وتستقر الحيوانات كلها في مراعيها ،
وتزدهر الأشجار والنباتات ،
وتزدهر الطيور في أوكارها ،
وتمتد أجنحتها تعبدا اليك •
وتتراقص الغزلان على أرجلها ،
وعندما يصيح الكتكوت وهو داخل بيضته ،
فأنت الذى تمدد بالهواء فى داخلها لتبقيه حيا ،
وعندما تتم خلقه داخل البيضة تجعله يكسرهما ،
ويخرج من البيضة يصوصو اذا ما حان موعده •
ما أعظم أعمالك التى عملتها ،
انها خافية على الناس ،
أيها الاله الأوحد الذى لا اله غيره •
لقد خلقت الدنيا كما شئت ،
ما أعظم أعمالك يا سيد الأبدية ،
انك خلقت نيلا فى السماء للأجانب ،
ولكن النيل ينبع من العالم الآخر من أجل مصر •
ويعيش الناس بوساطتك ،
وترى عيون الناس الجمال
حتى تغيب أنت ،

فيترك كل الناس أعمالهم •
عندما تقرب في الغرب •
وعندما تشرق ثانية ،
يزدهر كل شيء لأجل الملك ،
ويأتي الرخاء في كل خطوة •
ملك مصر العليا والسفلى ،
الذي يحيا في الحقيقة ، سيد الوجهين ،
ابن رع رب التيجان ،
أخناتون ، له العمل الطويل •
وللزوجة الملكية الأولى ، المحبوبة منه ،
سيدة الأرضين نفر نفرو آتون نفرتيتي ،
عاشت منعمة دائما وإلى الأبد •

وبعد أن ينتهيا من أداء الصلاة في المعبد والظهور أمام الشعب
والغداء ونوم القيلولة يأتي الوقت الذي يستطيع أن يستريح فيه كل
من أخناتون ونفرتيتي ويعتبر أنه ملكا لهما ويمتعان أنفسهما بعيدا
عن القيود الرسمية • وعندما تخف حدة الشمس وتستطيل ظلال
التلال فانهما يخرجان في العربة الملكية ، يقودها أخناتون وهو واقف
منتصب القامة بينما تمسك به نفرتيتي من الخلف وتمسك الأميرة
الصغيرة بها • وتحرك الجياد رءوسها فتتحرك الريش المثبت في السيور
التي حولها ، كما تحرك أعرافها كأنها تدرك أنها تحمل الزوجين
الملكيين وتركض فوق الأرض وعلى طول الطريق الرئيسي في اتجاه

منطقة الضاحية الجنوبية - « مرو - آتون » حيث كان الفرعون وزوجته قد شيذا قصرا صيفيا وبحيرة وهناك كانا يتمتعان بالراحة تحت الأشجار وإلى جانب المياه الرطبة ، أو يجدفان في تراخ على مياه البحيرة ، وعندما كانت نفرتيتى تغمس أصابعها في الماء كان خيالها يسرح في الصبى والفتاة اللذين كانا يفعلان ذلك قبل سنوات ليست بعيدة ، وكانا يحلمان بما يراود نفسيهما على بعد أميال كثيرة في طيبة التى هجرها . وكان سفراء البلاد الأجنبية ، أو المبعوثون الذين كان يرسلهم أحد الحكام الذين يحكمون احدى الولايات التى تهددها القبائل المحلية ، يأتون الى هذه المدينة وكان أختاتون يرحب ويحتفل بهم ويعطيهم الهدايا ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل من أجلهم شيئا غير تلك الضيافة والاستقبال . انه لم يكن يهتم بأى شيء الا بأختاتون ومحبوبته نفرتيتى وأطفالهما ، والجمال الذى خلقه آتون ، والذى أحاط به نفسه . ولم تكن هناك أية دلالة على تجمع السحب فوق أفق آتون المضى .



وفى سنة ١٨٨٠ م . أو منذ أكثر من ثمانين عاما مضت ، ذهبت فلاحه مصرية من تل العمارنة الى كيمان الأتقاض التى تمتد وراء القرية والزراعة ، وحفرت فى الكيمان ابتغاء الحصول على الأتربة التى تخلفت عن السكان الأقدمين والتى تكسب الأرض خصوبة رائعة وتسمى « السباخ » ، وعثرت فى الأتربة الناعمة المتخلفة عن قوالب الطوب اللبن القديمة والمطمورة تحت الرمال على بعض اللوحات المستديرة الصلبة وعليها خريشات غريبة . وبعد أن أزالته عنها الأتربة العالقة بها بأطراف طرحتها السوداء وجدت أن الخريشات كانت عميقة الحفر وبأشكال مثلثة فى الفخار الجاف . ولم تستطع

أن تعرف ماهيتها ، ربما كانت مجموعة من الرسائل وربما كانت رموزا سحرية •

وكانت قد سمعت أن بعض الفقراء من الأهالي قد أثروا من بيع « الأتيكات » الى الأجانب الذين وصل بهم الجنون الى حد جعلهم يدفعون مبالغ خيالية لمثل هذه الأشياء القديمة عديمة النفع • وعلى هذا فقد جمعت كل القطع المنقوشة التى عثرت عليها هناك ووضعتها فى غرارة السباح وحملتها على ظهر الحمار • وقفلت عائدة الى قريتها وأخفتها حتى تستطيع أن تأخذها الى المدينة القريبة فى الضفة الأخرى من النهر لتبيعها • ولا نعرف مبلغ ما حصلت عليه ثمنها لها ، ويرجح أنه لم يكن مبلغا كبيرا اذ كانت هذه الألواح غير منقوشة بالهيروغليفية أو أى كتابة أو رسوم من تلك الكتابات المعروفة لهواة الآثار المصرية الذين كانوا يشترون مثل هذه الأتيكات ويبيعونها الى التجار فى الأقصر أو القاهرة •

وأخيرا وجدت هذه الألواح الغامضة طريقها الى متحف اللوفر حيث أمكن التحقق من أن الكتابات التى عليها هى الكتابة المسمارية التى كانت تستخدم فى بابل وما بين النهرين • ولكن أحد الأساتذة المشهورين المتقدمين فى السن أكد أن هذه الألواح مزيفة — وعلى هذا لم يحتفظ بها متحف اللوفر واستمرت تنتقل من متحف الى متحف وقد أخذ التراب يعلوها مرة أخرى وتشققت بل وضاع بعضها، الى أن حدث فى آخر الأمر أن أحد العلماء استطاع أن يحل رموز الكتابات ، ووجد لدهشته الشديدة أنها أحد الاكتشافات التاريخية العظيمة فى ذلك القرن ، وأن ما حوته تلك الألواح كان قصة « الملك المارق » — كما كان الفراعنة الذين أتوا من بعد أخناتون يسمونه — وعلاقاته بالعالم الخارجى •

كانت الألواح رسائل كتبت قبل ميلاد المسيح بنحو ١٣٠٠ ألف وثلاثمائة عام أو تزيد وهى رسائل رسمية مرسلة الى أخناتون من الملوك التابعين له ومن الحكام وقواد الحاميات فى الممتلكات المصرية فى آسيا • لقد عثرت المرأة الفلاحنة على مكتب الشئون الخارجية لأخناتون •

وما أمرها من قصة تلك التى روتها الرسائل ، قصص ثورة وتمرد واقترب القوى المعادية وخيانة بعض موظفيه الخصوصيين ، مع استغاثات بطلب النجدة والامدادات على وجه الاستعجال • ولكن هذه الاستغاثات والتحذيرات لم تحظ بالرد عليها من فرعون الذى لم يهتم بأى شئ من متاع الدنيا خارج الحدود التى وضعها بنفسه لمدينة آتون ، انه كان يحب الهروب من الحقيقة وكان مجبا للتصوف ولكنه كان يترك نداءات الاستغاثة من أتباعه وأصدقائه المخلصين تذهب أدراج الرياح •

ولم يكن تدهور الامبراطورية التى شيدها أسلافه ليعنى شيئا بالنسبة له ومهما استحسننا كراهيته للروح الحربية فانا لا نستطيع تبرئته من اهماله الشديد لكاتبى تلك الرسائل •

وتمثل هذه الألواح مجموعة مستندات شخصية ذات أهمية انسانية وتاريخية منقطعة النظير وقد أدى حل رموز كتابات تلك الألواح الى الكشف عن مدينة أخناتون التى كانت قد اختفت من الوجود ، اذ ظلت مهجورة ومهملة وموقعها غير معروف على وجه اليقين لعلماء الآثار المحدثين حتى ذلك الوقت • وفضلا عن ذلك كانت السحب الداكنة تتجمع ، وكانت ظلالها تهدد بالفعل تلك الحياة الشعرية لأخناتون ونفرتيتى •

والقصة التي ترويها الألواح هي قصة قوة الحيثيين التي أخذت
تزداد ، وقصة غيرهم من القبائل والشعوب في آسيا ، الذين كانوا
يتحدون سيادة مصر في ممتلكاتها الخارجية والدول التابعة لها •

وكان بعض الحكام والقواد المصريين خونة ، وانحازوا الى جانب
العدو وسلموا لهم بمحض اختيارهم مدنهم وأقاليمهم ، وكان مركز
أولئك الذين ظلوا على ولائهم للفرعون محفوظا بالخطر ، وكتبوا اليه
بعجلة طالبين النجدة « تعال الى نجدتنا أيها الملك السيد ، وسنطرد
أعداء مصر » ولكن لم تصل اليهم أية نجدة بل ولا اجابة من الحاكم
على ضفاف النيل • وتتابعت الرسائل من حاكم أورشليم « عبدى -
خبى » الى كاتب الفرعون المختص بالمراسلات الآشورية ليفسرها
ويحولها اليه للتنفيذ • وقد كتب « عبدى - خبى » بأن قبائل الخيرو
كانوا يهددون كل الممتلكات المصرية في فلسطين ولن يمضى وقت
طويل حتى تخاصر أورشليم وتسقط ، ان لم يسارع بارسال
الامدادات • وقد كتب حاشية في احدى رسائله الأخيرة الى صديقه
الكاتب « الى كاتب سيدى الملك ، تابعك عبدى - خبى • أعرض
هذه الكلمات بوضوح أمام سيدى الملك » ان كل بلاد سيدى الملك
في طريقها الى الخراب ، أخبر الملك صراحة أن بلاده في طريقها الى
الضياع » •

وقد رجا حاكم آخر من حكام أخناتون التابعين له المخلصين
وهو « رب - عدى » حاكم جبيل (١) أن يرسل جيشا لنجدته « اننى
في مدينة جبيل هذه مثل طائر وقع في شرك » ولما لم يصل اليه رد

(١) جبيل أو جبلة كانت العاصمة القديمة للشاطئ اللبناني وأهم موانئه
منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ومكانها الآن الى الشمال من بيروت • (المراجع)

بعث رسالته الأخيرة المحزنة « ان لم تأت نجدة فاني اذن رجل ميت » • ولم يكتب شيئا بعد ذلك •

فهل علمت « نفرتيتى » بهذه الرسائل واستغاثات النجدة التى بقيت دون رد عليها ؟ ! ولابد أن الملكة « تى » قد أخذت علما بذلك اذ أن بعض الرسائل المسمارية كانت معنونة باسمها تسألها أن تستخدم نفوذها لدى ابنها • ولكن لا أحد لا « تى » ولا « نفرتيتى » نفسها كان قادرا اذ ذاك على أن يخرج أخناتون من حياة الوهم التى كان يحيها • فقد أهمل وأبعد الملوك الأصدقاء وتمت هزيمة وإبادة الحكام والولاة ، ولم يقدر أحد خدمتهم له بإخلاص أو يكافئهم عليها •

ومع ذلك فقد ظلت الجزية والأموال تأتى الى أخناتون ليدخلوا فى روع الفرعون أن كل شىء على ما يرام كما كان من قبل • وهناك رسم من السنة الثانية عشرة من حكمه يمثله راكبا فى أبهة فى محفة فاخرة ومعه حرس من ثمانية عشر جنديا ليتسلم الجزية فى احتفال رسمى • ولكن الكتابة على الجدران فقط ، أما فى داخل البيت فقد كانت السحب تتجمع •

وكانت الأنباء تتوالى فى الحاح مقلق عن ازدياد سخط النبلاء الذين ظلوا مقيمين فى طيبة ، وعن قوتهم النامية فى البلاد ، وتجدد عبادة آمون المحرمة ، وأن الكهنة بدءوا يخرجون من مخابئهم ليقموا الصلوات القديمة فى صورة ليست سرية الى حد كبير • ولم يتخل أبدا سكان البلاد العاديين عن عقيدتهم التقليدية فى طلب شفاعة آلهة مصر الذين لا يحصيهم العد لدى كبير القضاة أوزيريس • أما الإصلاح الدينى الذى أتى به أخناتون فقد فرض عليهم من سلطة عليا • وبالرغم من أن عبادة الشمس كانت قديمة قدم مصر ذاتها فان عقيدة آتون فى

شكلها الجديد الصارم كانت لا تحوى الا القليل الذى يجعلهم يستمرون عليها • وعلى هذا فقد ظلوا على عادتهم فى تقديم القرايين وطلب المساعدة والحماية من آلهتهم والهاتهم التى كانوا يحبونها • وكان لا يمكن لهم أن يستعوضوا بقرص الشمس البعيد عن أيديهم بديلا عن النصوص السحرية التى كانوا يستطيعون شراءها بثمن بخس من الكهنة •

وكان عليهم أن يطيعوا أو يظلوا بعيدا عن المعابد والهيكل القديمة خوفا من جنود الفرعون ، ولكن قلوبهم كانت حزينة ومتمردة • لقد كانت العقيدة الجديدة سابقة لأوانها جدا ولم يكن الناس على استعداد لها على الاطلاق • وقد كتب بعد ذلك توت عنخ آمون ، زوج ابنة أختاتون والذى حكم بعده ، يصف حالة البلاد عندما كان يعيش فى دنيا أحلام أختاتون » لقد أقفرت المعابد من الفنتين حتى مستنقعات الدلتا •• لقد هجر الناس الأماكن المقدسة وأصبحت طرقا تنمو بها الحشائش •• ومحاربيها كانت أشبه بشيء لم يوجد أبدا •• وكانت بيوتها طرقا توطأ بالنعال •• وكانت البلاد فى حالة سيئة ، أما الآلهة فقد نبذوا هذه البلاد • وإذا خرج الرجال الى سورية ليوسعوا حدود مصر ، فانهم كانوا لا ينجحون أبدا وإذا صلى الناس لاله ليعينهم فانه لا يستجيب أبدا •• وإذا توسل الناس الى الهة فانها أيضا لا تستجيب أبدا •• فقد كانت قلوبهم صماء فى داخل أبدانهم ••

وبهذا الشعور الذى كان يسود البلاد ، وما كان معروفا من اهمال أمور الامبراطورية فليس بمستغرب أن تزداد المعارضة لأختاتون قوة من يوم الى آخر • وقد رفض فى أول الأمر أن يواجه هذه الحقائق المكدره ، كما أنه رفض أن يوجه أحد نظره الى المشاكل

التي كانت سائدة في الخارج • ألم تكن لديه مشاكله الشخصية أيضا ؟

وتطرق الحزن والارتباك اليه والى ملكته عندما ماتت ابنتهما الثانية « مكت - آتون » بالرغم من أنه كان لديهما حينئذ خمس بنات أخرى أصغرهن طفلة رضيعة ، فان موت مكت آتون كان صدمة لهما • ولم يكن هناك متسع للحزن والألم في العالم المثالي الذي كان يحكمه آتون الرحيم ، ومع هذا فقد حدث هذا الحزن • وزاد وجه نفرتيتي نحولا وأصبح الجلد مشدودا الى حد ما على العظام الرقيقة، ولم تعد عيناها تتلألأ في ضوء الشمس •

وفي التلال الجيرية التي ترتفع عاليا وراء المدينة داخل الصحراء، حيث يعيش الغزال والوعل والنعام والغراب وثعلب الصحراء ، قطع أخناتون مقابر لنبلاته وموظفيه الرسميين وزخرف جدرانها ، كما قطع في الصخر مقبرة أخرى أكبر وأوسع من المقابر الأخرى لنفسه ولنفرتيتي وأسرتهما • وقد قال عنها « مدفنى الذي في الجبل الشرقى » •

ويؤدي بئر عميق مظلم الى داخل الغرفة الرئيسية في ذلك القبر كما تؤدي مجموعة من الدرج الداخلى الى غرفة أصغر منها • وعلى جدران تلك الحجرة نرى رسم الطقوس الجنائزية للأميرة الصغيرة ، وقد نقشت في صور تهدم جزء منها على الحوائط الجيرية الناعمة ، وهى تذكرنا بطفلة قصيرة الأرجل والحزن الذى أحاق بأسرة سعيدة • ونرى والديها وقد وقفا الى جانب نعشها ووقفت الفتيات الخمس الصغيرات في صف وراءهم ، والطفلة الرضيعة فيهن رسمت بين ذراعى مريبتها ، وفي المنظر التالى على الجدار نرى رسم المومياء وحولها الزهور ووضعوا اللعب والحلى والأثاث الجنائزى والأمتعة

بالقرب منها حتى تتمتع روحها « كا » عندما تعود من العالم الآخر ، ولم يعد أخناتون ونفرتيتى الفرعون وزوجته الملكية العظمى بعد موت ابنتهما ، ولكنهما أصبحا أبوين حزينين مثل أى أبوين آخرين وقد خرجا من المقبرة وقلباهما فى ظلمة لا يبددها حتى لمعان وجمال آتون المضى فوق الجبل وفوق المدينة البيضاء اللون ، وفوق الحقول الخضراء والنهر الأسمر الخصيب •

خمس فتيات ولكن دون أن يكون له ولد ، وما من أحد ليحمل عبء الاستمرار فى عقيدة آتون كفرعون حاكم ، أما هو نفسه فقد ازداد عليه التعب والانعزال والمرض • وليس من شك فى أن نفرتيتى قد لاحظت فى قلق تعب زوجها المتزايد وتقدمه المبكر فى الشيخوخة • لقد أفنى جسمه ، لقد عمل كثيرا وهو فى مستهل العمر وأنهاك بدنه الواهن وقوته فى اقناع الناس ، وفى حملهم على تنفيذ ارادته وتحقيق الهامه ضد كل استخفاف ومقاومة • بدا كما لو أنه قد ضعف قليلا أيضا فى عقيدته ، وكان يقضى وقتا غير قليل فى الملذات واحتساء النبيذ والاستماع الى الموسيقى ليتهرب من واجباته ومن الحقائق المكدره • وكانت نفرتيتى تحبه ، وكان تغفر له الشئ الكثير كما حدث عندما اتخذ زوجة أقل مرتبة كما جرت العادة أو عندما أخذ يوجه انتباهها أكبر لابنتهما الكبرى مريت آتون أكثر منها نفسها ، ولكن ضعفه فى عقيدته لم تستطع أبدا أن تغفره له • لقد كرسا كل حياتهما من أجل هذه العقيدة التى قامت على ايمانه بوحدانية الاله حدث عندما اتخذ زوجة أقل مرتبة كما جرت العادة أو عندما أخذ آتون • وعليه الآن ألا يفشل فى ذلك •

وكان يكتفم عنها بعض الأمور أيضا ، وبدأت هى تشك فى الأمور ، تشك فى تلك المراسلات المتبادلة بينه وبين طيبة وساورتها الشكوك فى أنه كان يحاول سرا أن يصل الى اتفاق مع حزب آمون ومع أعدائه

الكهنة ، بشرط أن يتركوه وشأنه وأن يسمحوا له بالاحتفاظ
بعرشه •

ولم تعد الملكة الوالدة « تى » ذات نفع لها اذ كانت قد تقدمت
فى السن ، وعندما ذهبت نفرتيتى لزيارتها فى قصرها وجدتھا أكثر
اهتماما بالاحتفاظ بجمال هيئتها أكثر من اهتمامها بالسياسة • وكانت
قد وصلت الى يديها بردية قديمة ، وكانت ترشد وصيفاتها الى جمع
المواد التى تتركب منها وأمرتهن بأن يهيئن ناراً لكى تقوم بطهيها
عليها • فقد كانت فيها وصفة « لتجعل الشعر ينمو ، وقد عملت لأجل
(سش) والدة جلالة ملك الجنوب والشمال تى : مخالب كلب جزء
واحد ونوى بلح جزء واحد وحافر حمار جزء واحد • تطبخ جيداً مع
الزيت فى آنية فخارية ويدهن بها » •

وظل لسان « تى » سليطاً حاداً كما كان من قبل ، وكانت تعطى
أوامرها بنفس الشدة التى كانت تستخدمها من قبل ولكنها كانت أيضاً
على قدر كاف من الفطنة ولا تحاول التدخل •

ولم يمض غير قليل حتى علمت نفرتيتى بما كان يدبره أخواتون
للصلح • كان لا يستطيع هو أن يحنث فى قسمه ويترك أخت - آتون ،
ولا يستطيع أن يرجع الى طيبة ، فالشعور هناك كان قد ازداد شدة
ضده • ولكن عرشه أصبح فى خطر كما تحقق أخيراً ، ولهذا فإن خير
حل هو أن يزوج وارثة العرش ابنتهما الكبرى مريت آتون الى الشاب
« سمنخ كارع » أحد ابنى أمنحوتب الثالث ، أخويه غير الشقيقين ،
الذين جاء بهما الى أخت - آتون مع أطفاله ، وأن يشركه معه فى
العرش ، وبعد ذلك يرسلهما الى طيبة ليحاولا ترتيب الصلح مع حزب
آمون •

وسمنخ كارع شخصية غير هامة في تاريخ تلك الفترة ، ولكن
أختامه وأسماءه قد وجدت مع أختام وأسماء زوجته الوريثة مريت
آتون كما وجدت له صورة في طيبة تريه لنا ضعيفا فاترا لهذا لا يشبه
في شيء زوجته الصغيرة المثلثة بالنشاط . ولم يحكم بمفرده أبدا
كفرعون كما أن ما حدث له ولمريت آتون في طيبة سيظل سرا . ونحن
لا نعرف ان كان هذا العمل وهذه المحاولة للاتفاق التي ورط فيها
ابنتهما المحبوبة الكبرى هو السبب في التصدع الذى نشأ بين
أختاتون ونفرتيتى . ونحن نعرف من نتائج الحفائر التى تمت في تل
العمارة أنه ابتعد في السنتين الأخيرتين من حكمه عن نفرتيتى وانفصل
عنها . وتركت « عظمة الأفضال ، سيدة السعادة ، التى يتتهج من
يسمع صوتها ، والتى تطيب قلب الملك في منزلة زوجة الملك المحبوبة
الكبرى » ، تركت القصر وذهبت لتعيش بمفردها في الضاحية الشمالية
من المدينة ولم يكن معها الا الأمير الصغير توت عنخ آمون الذى كان
في حوالى الثامنة من عمره . فهل نفيت الى هناك ؟ أو حددت اقامتها
لمعارضتها الملك ؟ أم أنها ذهبت بمحض رضاها ، قائلة لنفسها انه غدر
بها عندما ساوم بعقيدته - عقيدتهما - وعطل فكرة « الحياة في
الحقيقة » ، وأنها سوف تبقى مخلصه لآتون الى آخر أيام حياتهما ؟
وربما ستظهر يوما ما بعض الوثائق الضائعة ، الوثائق التى ستقدم
لنا الحقيقة . وكل ما نعرفه هو أنها ظلت تعبد آتون الى النهاية . يدل
على ذلك الرسوم والخانات الملكية التى عثر عليها في الضاحية
الشمالية . ولكن اسم أختاتون قد محى منها ، كما محيت أيضا من
بعض أعتاب منازل النبلاء الذين كانوا من أتباعها المخلصين وفي أجزاء
أخرى من المدينة بدأ اسم آمون وأسماء الآلهة والالهات الأخرى
تظهر من جديد على الخواتم والأختام . وقد أتلّف ومحى عن عمد

اسم نفرتيتى وخاتها الملكية فى القصر الملكى وقصر البركة الجنوبية •
وهى شواهد محزنة لشقاؤهما المحزن وانهاء قصة غرامهما العظيم
بهذه النهاية المحزنة •



وفى سنة ١٣٥٨ ق م • مات أخناتون وكان منهوك القوى مريضا
حزينا ، بعد أن حكم سبعة عشر عاما تقريبا •

ومن المحتمل أن مومياءه لم تدفن فى « مدفنه الذى فى الجبل
الشرقى » خوفا من الاعتداء عليها ، ولكنها دفنت سرا فى المقبرة
والتابوت اللذين كانا قد أعدا للملكة « تى » فى طيبة • ويمكن رؤية
تابوته فى المتحف المصرى بالقاهرة وإذا أمكنك حل النقوش الهيروغليفية
أمكنك قراءة هذه العبارة المؤثرة « طفل آتون الحى الجميل الذى
يحيا أبدا وهو الحقيقة فى السماء والأرض (١) » فهل كان ذلك هو
آخر جميل قامت به نفرتيتى نحوه ؟ ان هناك ما يفرينا بالاعتقاد بصحة
ذلك وعلى الأخص أن أعداءه كانوا يطلقون عليه « مجرم »
أخت - آتون •

استمرت نفرتيتى تعيش هناك فى قصر الضاحية الشمالية من
المدينة التى شيدها معا قبل ذلك بسنوات قليلة ، أما الصبى
توت عنخ آمون - والذى كانت تطلق عليه هى بالطبع « توت عنخ

(١) اعتمدت الكاتبة فى سرد تاريخ هذه الفترة على مصادر قديمة لم تعد لها
قيمة فى الوقت الحاضر • فالتابوت الذى تشير اليه قد انضح انه تابوت سنخ كارع
وفى داخله جثته ، ولا علاقة له بأخناتون ، كما أنه من الثابت أيضا أن أخناتون لم
يدفن فى مقبرته فى تل العمارنة ، ولا تعرف شيئا على الإطلاق من نهاية نفرتيتى ومتى
ماتت وابن دفنت •
(المراجع)

آتون « فقد تزوج من الوريثة التالية ، ابنتها الثالثة عنخس - أن - آتون » أنها تعيش لآتون » ونودى به فرعون • ولكنه كان صبيا صغيرا فى العاشرة من عمره وتحت سيطرة موظفى البلاط الذين دبروا أن يعود الى طيبة بمجرد أن تموت نفرتيتى وتصبح مرة أخرى العاصمة الفخمة للصعيد والدلتا •

أما نبلاء أخناتون المقربون وأتباعه الذين عاملهم بكرم شديد وكافأهم على ما أبدوه من اخلاص وتحمس لعقيدة آتون ، الرجال الذين طالما ابتهلوا بما هو معروف عن رجال البلاط من مبالغة أن أخت - آتون يجب أن تظل ثابتة حتى يصبح الأسود أبيض والأبيض أسود ، والى أن تتحرك الجبال من رواسيها ، « قد تأمروا وقتلوا ليأخذوا ثرواتهم ويغادروا أخت - آتون الى الأبد ويقضوا على عقيدة آتون أينما ظهرت •

ولم يكن الملك الصبى وزوجته الصغيرة سوى العوبتين فى يد غيرهما • وعندما تموت صاحبة الجلالة وتموت معها ارادتها الحديدية وولائها وصادق اخلاصها لعقيدتها ولذكرى زوجها ويزول أثر نفوذها عنهما ، فسوف يكون فى استطاعتهم أن يحملوا الطفلين على تنفيذ مشيئتهم •

وهذا هو ما حدث • فبعد وفاة نفرتيتى أخذوا توت عنخ آمون وعنخس - أن - آتون الى طيبة فى موكب فخم ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كهنة آمون مرة أخرى ينشدون الأناشيد القديمة فى المعابد العظيمة بالكرنك والأقصر وأرغموا توت عنخ آمون على أن يتبرأ من عقيدته آتون •

ونهب القصور ومنازل النبلاء فى أخت - آتون ، وكل من كانت

لديه وسيلة للسفر عاد الى طيبة أو الى منف أو حيثما كانت مساكنهم الأصلية ، وأخذوا معهم كل أمتعتهم • وقد بقى الفلاحون ليزرعوا الحقول ، كما تمهل الصناع وأصحاب الحرف الى أن انتهت مصادر أرزاقهم ثم ارتحلوا بدورهم •

وبقيت المدينة المتشامخة المليئة بالحياة مكشوفة لأشعة آتون الالهة وظلت مكشوفة أيضا لعواصف الرمال ولرياح الصحراء السريعة وللحيوانات المفترسة والطيور الجارحة والحشرات والزواحف •

ثم تساقطت أبنيتها وطغت عليها الرمال وظلت منسية الى أن عثرت الفلاحة العجوز وهى تحفر الأرض من أجل السباخ على الألواح المدفونة ، ووصلت الى أوربا رأس نفرتيتى الملونة لتبهر العالم بجمال ملكة نسيها الناس منذ عهد بعيد •

كلىوباترة العظمى

كانت بقعة ساحرة تلك التى نشأت فيها ، هذه المدينة الفخمة التى بناها الاسكندر قاهر العالم ، والتى تمتد على الشواطىء الصخرية للبحر الأبيض المتوسط ، والى الخلف منها النيل العظيم وكل ما حوته مصر من ثروة وفخامة قديمة . هذا ما كانت تفكر فيه فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها ، كانت تعيش حينذاك بالقصر الملكى فى برخيون وهو الحى الملكى بالاسكندرية وهى تنظر الى المياه المتلألئة والى السفن وهى تتأرجح فى مراسيها أو وهى تسير الى داخل الميناء الكبير ، سفن ذات أشعة عديدة مجهزة بجارة من بلاد اليونان وروما ومقدونيا وقبرص وسوريا ومن برقة ومن فينيقيا تلك البلاد التجارية القديمة .

وكان فى استطاعة كليوباترة ابنة ملك مصر بطليموس الحادى عشر ، أن تراقب أيضا ، من المكان الذى كانت تجلس فيه السفن التى تدخل أو تخرج من الميناء الغربى « ميناء العود الحميد » ، بشحناتها من منتجات مصر التى وصلت على السفن عن طريق النيل ذلك الشريان الرئيسى ، ثم بوساطة قناة الى ميناء داخلى على الجانب الآخر من المدينة وهو الجانب الذى يواجه بحيرة مريوط ، وكانت هذه المنتجات من الكتان الرقيق ، والبردى ، والحبوب والذهب .

وقد أحبت كليوباترة أكثر من كل ذلك ، العطور والزيوت العطرية والتوابل واللآلىء والجواهر والأقمشة الحريرية التى كانت

تجلب الى المدينة من البلاد البعيدة مثل الهند والصين وبلاد العرب والصومال أو بونت ، التى أرسلت اليها حتشبسوت بعثتها •

وكان يقوم بهذه التجارة الشرقية ، التى تحتاج الى المخاطرة ، بحارة من الاغريق والفينيقيين الذين كانوا خيرين بأمر الملاحة فى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى الخطرة ، مستخدمين الرياح الموسمية التى تسود فى أوقات معينة من السنة • وهى معلومات قد عرفت وظلت تتزايد بشكل أكثر فى العهد الرومانى الذى أتى بعد ذلك بربع قرن • وكانت أساطيل السفن تتجمع فى أحد موانى البحر الأحمر على الشاطئ المصرى القاحل ، وعندما تبدأ الرياح الموسمية ، تترك نفسها للرياح فتدفعها واحدة بعد الأخرى الى شاطئ الهند الغربى •

وهناك كان اليلفاناس — كما كان الهنود يسمون أهل الغرب — يقيمون فى مراكز تجارية أنشئت خصيصا لهذا الغرض ، ويتلقون البضائع الآتية اليهم من شمالى الهند وسيلان والصين ، الى أن تهب الرياح فى الاتجاه العكسى وعند ذلك يستطيعون الخروج الى عرض البحر والاقلاع غربا مرة أخرى •

وكانوا يفرغون شحناتهم الثمينة فى الموانى التى أقامها أسلاف كليوباترة : برنيكى ولويكى كومى وميوس هورموس ، على شاطئ البحر الأحمر ، ثم تنقل بالقوافل عبر جبال الصحراء الى النيل بطرق لاتزال القبائل البدوية تسير فيها حتى اليوم ، ثم تحمل فى النهر ذلك الطريق التقليدى القديم حتى تصل الى الاسكندرية ، لتزيد من ثروة البطالمة ورعاياهم وادخال البهجة عليهم •

ووجدت جميع منتجات العالم المعروف ، طريقها الى ذلك الميناء البحرى الذى كان فى الوقت ذاته عاصمة عالمية كبيرة ، حيث كان

الناس من أمم وعقائد مختلفة يتقاطرون ليشتروا ويبيعوا ويتاجروا ويحققوا أرباحا ، وكان يرحب ببقائهم بالبلاد ما داموا على استعداد لأن يحاربوا من أجل الملك إذا دعت الضرورة وما داموا يدفعون الضرائب المستحقة عليهم .

وكان يفصل بين الميناءين البحريين ، الجسر الطويل المتد ، الهباستاديون الذى كان يربط فاروس بالأرض الرئيسية . وكان الشعراء يميلون الى التنزه فى هذا المكان ويستوحون أشعارهم فيه ، وكان الفلاسفة يأتون اليه ليستششقوا الهواء قبل أن يقفوا راجعين الى أكاديمية العلوم « الميوسيون » ليواجهوا من جديد طلابهم الكثيرى الضخ . وعلى طرف الجزيرة ، كانت تقوم المنارة التى بناها جدها بطليموس فيلادلفوس قبل ذلك بمائتى سنة لترشد السفن وهى داخلة أو خارجة من الميناءين .

ونظرا الى أن هذه المنارة قد أنشئت تكريما للآلهة الذين يحمون الناس ، فقد قامت هناك شامخة من أجل « مساعدة أولئك الذين يسافرون عبر البحار » وكانت ترتفع فى طبقات الى ما يقارب ستمائة قدم ، قاعدتها السفلى مربعة ولكنها تصبح أسطوانية الشكل عند القمة حيث يضىء المصباح فى الليل . وكان يمكن رؤية ضوئه الذى ينعكس بمرآة ضخمة من بعد ثلاثين ميلا فى البحر . وكان هناك منحدر حلزوني بداخلها لتصعد عليه الحمير حاملة الخشب الراتنجى الذى كان يستخدم فى الوقود . انها أول منارة فى العالم واحدى عجائب الدنيا السبع ! ولم تكن تعنى بالنسبة لكليوباترة الفخر لما أنجزته أسرته من الأعمال العظيمة فحسب بل كانت تعنى الوطن أيضا ، كما كانت تعنى العزاء أيضا فى بعض الأحيان . والسبب فى ذلك هو أنه بالرغم من كل مظاهر الترف والجمال والقيم الحضارية

في حياتها ، فقد كان من الأمور الخطيرة المقاء أن تولد كفرد في أسرة البطالمة ، ولابد أن كليوباترة كانت تحسد أحيانا تلك الطمأنينة المرحية التي كانت تظهر على الاسكندريات اللاتي كانت تراهن حولها عندما كانت تمر محمولة فوق محفتها خلال الشوارع المزدهمة وحولها عبيدها ووصيفاتها • ومن المحتمل جدا أن فتاة من فتيات الحى المصرى في راقودة كانت أكثر منها راحة بال • • فقد كان المصريون يجلبون ويحترمون نساءهم اللاتي كن تحت حماية الآلهة ايزيس نفسها • وقد اعتبرت كليوباترة نفسها مصرية وقالت أيضا انها تحت حماية ايزيس ، كانت في حقيقة الأمر اغريقية مقدونية من ناحية الأصل ومعوضة لحسد ومكائد البلاط البطلمى •

ولاشك أنه من الحظ العاثر غير المأمون أن يولد الانسان عضوا في هذه الأسرة الملكية الغريبة التي عاشت في القرن الاول قبل الميلاد واذا حدث أنك - مهما كنت بريئا - تعترض طريق منافس مطالب بالعرش ، أو سمحت للمربين السيئين والأصدقاء أن يوثروا عليك في لعبة مؤامرات القصر فقد تختفى تماما في احدى الليالي دون أن يسمع لك صوت أو تخلف أثرا وتقتل في فراشك بأيدي أقربائك ، أو مأجوريهم •

وعندما كانت غينا كليوباترة تتطلع منتقلة على الدرج الذى يؤدى من القصر الى الميناء الخاص أخذت تنساءل عما تخفيه مياهه الزرقاء الهادئة من أسرار اذ اختفى بهذه الوسيلة أمير بعد أمير بل وأميرات أيضا من أسر البطالمة ، وبدت كما لو أن القدر المؤلم قد قضى بأن يقتل أفراد هذه الأسرة بعضهم بعضا جيلا بعد جيل - انها لعنة شديدة •

ولحسن حظ كليوباترة كانت هى الطفلة الثانية لأبيها الملك .

وكانت أكبر الأسرة فتاة أيضا ، تدعى برنيكى ، وقد كانت معرضة للخطر أكثر منها ، وكذلك أخواها الصغيران وكان كل منهما يسمى بطليموس . وكانت توجد أخت أخرى ولدت بين كليوباترة والصبيين هى أرسينوى .

وكانت كليوباترة تكره أرسينوى ولكن بدرجة أقل مما كانت تكره الجميلة برنيكى التى كانت تعلم أنها مجبة لتدبير الأمور وطموحة ولا يوثق بها . ولم تكن مظاهر حب الأخوة والأخوات من المظاهر القوية فى أسرة الملك بطليموس الحادى عشر الملقب بالزمار ، فقد كان لجميع الملوك البطلميين أسماء تهكمية ، أطلقها عليهم رعاياهم الساخرون المحبون للنكتة وكان والد كليوباترة يحب العزف على الناي ولهذا أصبح لقبه « أوليتس » أى الزمار .

وكان لكليوباترة قلب حنون ، على العكس من أخوتها وأختها ، قلب قادر على الحب العميق والاخلاص الصادق . وقد أراد لها دمها المقدونى ، أنه بالرغم من فساد البلاط والعصر الذى عاشت فيه ، والنقص فى التعليم الأخلاقى فى تربيتها ، أن تكون زوجة مخلصه ، وقد كان النساء من جنسها يفخرن باعتزاز بأنهن يمنحن أنفسهن لكل انسان ، ومن جميع الأنواع .

وكان لها عقل راجح أيضا ، بل كانت أحسنهم تفكيرا ، وما أحوجها لاستخدام هذا العقل فى السنوات القادمة ، ولم يدرك هذه الحقيقة سوى أبيها فقط بين فترات شرابه وملذاته ، وقلقه المستمر من ناحية دائنيه الرومان ولم يكن عزفه على الناي حول القصر الا نوعا من التهرب من همومه .

وكان البطالة قد حكموا مصر نحو من ثلاثمائة عام تقريبا ،

ومضى أكثر من ألف سنة منذ الوقت الذى عاشت فيه تفرتيتى وهجرت
مدينة أخت - آتون ونسيها الناس • وخلال هذا الوقت كانت عظمة
مصر كإمبراطورية ، قد عادت مرة أخرى تحت قيادة العبقريّة الحربية
لفراعنة الأسرة التاسعة عشرة من أمثال رمسيس الثانى والثالث •
ولكنها انهارت بعد ذلك عندما تمكن الفرس من دخول مصر واستطاعوا
أن يحولوا الصعيد والدلتا ، الوجهين القبلى والبحرى الى ولاية
فارسية •

ودنسوا الكثير من المعابد القديمة ، بل وهدموها أيضا وحطموا
وشوهوا التماثيل التى كانت فى هياكلها الداخلية ، وعانى الناس فى
صمت من نير الحكم الفارسى ، وكرهوا سادتهم الأجانب ، كما سبق
أن كره أجدادهم ، الهكسوس الذين لم يسلبوا بلادهم فحسب بل
وحرموا عليهم ما يرجونه من عزاء وراحة عند عبادة آلهتهم •

وظهر بعدئذ حدث جديد • فقد خرج الى مسرح العالم بطل
أبيض اللون مجعد الشعر من امارة صغيرة فى الغرب تعرف باسم
مقدونيا واجترأ على أن يتحدى الامبراطورية العظيمة للملك الملوك
الفارسى داريوس : داود يتحدى جالوت •

ووصل الاسكندر الى مصر عام ٣٣٢ ق.م • ولم تكن معه الا قوة
صغيرة هزم بها الحامية الفارسية التى كانت تعسكر على الحدود فى
مدينة بلوزيوم (١) ثم سار الى منف التى كانت فيما مضى عاصمة
الدولة القديمة ، والتى أصبحت مدينة هامة مرة أخرى بعد انهيار طيبة ،
وبدلا من أن يسلب المعابد ويقتل من بقى من الكهنة ، فانه قدم

(١) بلوزيوم كانت اول المدن المحصنة على حدود مصر الشرقية ، وهى مدينة
الفرما فى الكتب العربية ، وما زالت خرائبها موجودة حتى الآن وهى على شاطئ البحر
على مسافة ثلاثين كيلو مترا على وجه التقريب شرقى بورسعيد • (المراجع)

احتراماته لآلهة هذه البلاد وقدم القرابين على مذبح العجل المقدس
آيس رمزا لشكره له لأنه أمدّه بالنصر • وبعمله هذا كسب
الاسكندر قلوب المصريين المكتئبين • ورجوا به باعتباره منقذهم
وحاكمهم المقدس ، الههم الحى كما كان فراعينهم •

ولم تكن لدى الاسكندر أى رغبة فى اتخاذ منف أو طيبة ، التى
كانت فى داخل البلاد على بعد ألف ميل نحو الجنوب ، عاصمة له •
لقد كان من عالم آخر ، عالم البحر الأبيض المتوسط • فبنى مدينة
جديدة تحمل اسمه وجهها نحو البحر المتوسط وقدمها فى مصر عسى
أن تربط بين الشرق والغرب وتتحكم فى تجارة العالم •

ولهذا السبب سار شمالا الى بحر الذى يعرفه ، وهناك وجد
مكانا ملائما فى أرض رملية محاطة بـ *بخلجان* صخرية وموان طبيعية بينها
وبين الأرض الداخلية وتحدها نباتات البردى وبحيرة مربوط (التى
أراد أن يصلها بالنيل بواسطة قناة) فاستدعى اليه مهندسه الاغريقى،
دينوكراتس ، وأمره أن يصمم ويشيد فى هذه البقعة مدينة ، من أجود
الخامات التى كانت ميسورة له (١) •

وأحسن دينوكراتس بناءها • ولكن الاسكندر لم ير مدينته التى
حلم بها بعد أن أصبحت حقيقة واقعة ، فقد شاء له القدر أن يعود اليها
وهى مسجى فى تابوته الذهبى بعد أن مات بالمalaria عقب حملته على
الهند ، ليدفن فى الضريح الذى أقيم له فى وسطها • وقد قام قائده
المقدونى ، بطليموس ، الذى كان الاسكندر قد عهد اليه بحكم البلاد
باسمه بالاحتفالات الجنائزية ، ونودى به بعد ذلك ملكا على مصر

(١) كانت توجد بلدة قديمة تسمى « راقودة » ورد ذكرها على الآثار المصرية
منذ الدولة الحديثة فى المكان نفسه الذى شيدت فيه الاسكندرية • ولهذا لا يمكن القول
أن الاسكندر أو مهندسيه اكتشفوا موقعها ؟ وأنه لم تبق بها مدينة أخرى من
قبل • (المراجع)

وأصبح يسمى بطليموس الأول سوتر « المخلص » فرعون الصعيد والدلتا .

وقد شيد بطليموس سوتر أكاديمية العلوم الشهيرة «المويسون» كما شيد مكتبتها التى كانت تضم نصف مليون بردية ، لقد كانت مكتبة الاسكندرية منذ ٢٢٠٠ سنة أشبه شئ بمكتبة المتحف البريطانى فى أهميتها وكثرة ما فيها من كتب ، وهنا كان الفلاسفة والعلماء والجغرافيون والمؤرخون وعلماء الرياضيات ، يدرسون ويدرسون للطلاب . وكان من بينهم اقليدس الشهير ، وفى هذه المكتبة تعلمت الفتاة كليوباترة - التى كانت من نسل بطليموس سوتر - الحكمة والأدب الاغريقى وأتقنت عدة لغات بما فيها لغة مصر القديمة (١) ، فكانت أول حاكم من أسرة البطالمة يتيسر له ذلك .

وفصل بين كليوباترة وبطليموس الأول ثلاثمائة سنة من الحكم البطلمى على مصر ذلك الحكم الذى كان بعضه خيرا وبعضه شرا . وكان الملوك والملكات من البطالمة ، أجانب عن البلاد . وكانوا يتكلمون الاغريقية فقط وبالرغم من أنهم لم ينهبوا البلاد ويخربوها كما فعل الفرس ، بل جمعوا بين عبادة آلهتهم وعبادة آلهة مصر وحموا كهنتها ، فقد ظلوا اغريقا مقدونيين وكانت عاصمتهم الاسكندرية « على مقربة من مصر » وليست فى مصر نفسها ، كما كانت منف وطيبة ، وكالقاهرة العاصمة الاسلامية الحالية . وقد حفر البطالمة القنوات وضبطوا فيضان النيل السنوى حتى يتيسر رى مساحات أكبر من الأراضى حتى يزداد المحصول وأصلحوا المعابد القديمة وبنوا معابد جديدة جميلة لأنفسهم على طول مجرى النيل فى المناطق المقدسة . وزادوا من تجارة مصر مع العالم الخارجى زيادة عظيمة وخاصة مع

(١) من الأخطاء الشائعة وصف اللغة المصرية القديمة بالهروغليفية ، فالهروغليفية هى مجرد خط كانت تكتب به .

الشرق وبلاد البحر الأبيض وفتحوا نافذة على عالم وادى النيل القديم
المغلق لتهب من خلالها التيارات الجديدة لفكر وحضارة الاغريق •

على أنهم قد أثقلوا أيضا كاهل الشعب بالضرائب وعينوا موظفين
من الاغريق فى المناصب الهامة فى طول البلاد وعرضها ، وكان ذلك
سببا فى قيام الكثير من الثورات ضد حكمهم وخاصة فى الصعيد •
وكان من الممكن أن يعيش المصريون والاغريق جنبا الى جنب ، ولكنهم
ظلموا متباعدين نتيجة للريبة والازدراء ، نتيجة لموقف الملوك البطلمة
الذين لم يستطيعوا أن يصبحوا مندمجين فى البلاد اندماجا تاما ،
وكان الاغريق يزددون المصريين وانزوى المصريون منطوين على
عباداتهم السرية وأسرارهم الغامضة •

وبالرغم من أن الكهنة كانوا يلقبون أسلافها بلقب الفراعنة
ويتهلون اليهم بخشوع فى الاحتفالات المقدسة ، فان كليوباترة كانت
البطلمية الوحيدة التى آمنت فى اخلاص بآلهة البلاد • أما الآخرون
فكانوا يكتفون بالقول فقط دون أن يؤمنوا بما يقولونه • وفى أثناء
حكم أبيها بطليموس الحادى عشر ، كانت مصر على صلة بجمهورية
روما التى كانت نجم قوتها يزداد تألقا ، وقد كانت هذه الصلة على
أساس أن مصر دولة صديقة وكانت روما تسمح لملكها أن يحكم
لأنها لم تكن مستعدة لأن تلتهمها بعد ، وكان هذا الوضع غصة فى
حلق العازف على الناي بل وشوكة فى جانب ابنته الثانية
كليوباترة التى كانت مقتنعة بأنها من النسل المقدس للالهة ايزيس
والتي أحبت مصر واعتبرت نفسها وريثة لسحرها وجلالها القديم •

وكثيرا ما كانت تذهب فى مناسلتها ، كأي فتاة مصرية أخرى ،
للتعبد فى هيكل هذه الالهة التى كانت على المرتفع الصخرى بالقرب

من القصر • وهناك كانت الأمواج تتضارب وتتصارع مثلما يدق قلبها ،
وهي تسأل ايزيس أن تحميها ضد الوشاية والغيرة والذسائس القتالة •

وكثيرا ما كانت تذهب في السنوات الثلاث الأخيرة ، الى كهف
ايزيس أكثر من ذى قبل • وعندما كانت في الحادية عشرة من عمرها ،
وكانت برنيكى أختها في الثامنة عشرة ، كان على أبيها أن يفر هاربا
من المدينة يطارده رعاياه الحائقون الذين استاءوا من الضرائب
الجديدة التى فرضها عليهم ليدفع لروما ديونه المتضخمة •

وترك كليوباترة وبقية أسرته بالاسكندرية غير مطمئنين الى
مصيرهم ، بينما أقام هو فى روما ، كملك لاجئ ، محاولا أن يسترد
مملكته بما كان يعد بدفعه من كنوز البطالمة التى جمعها أجداده على
مر القرون • وان فى استطاعة روما الاستيلاء على مصر بسهولة ،
وكانت كليوباترة تعرف ذلك ، ولكن عندما يكون مثل هذا العمل فى
مصلحتها وميسورا لها ، وكان تصلى للالهة ايزيس وقلبها يحس
بالذل والغضب وعدم الطمأنينة ، لتحضى بلادها اذ كانت تحس فى
نفسها بإيمان وحب عميق لم يتغير لمصر وأهلها ، وقد بادلها المصريون
هذه العاطفة وحفظوا لها جيلها وردوه فى السنين التالية •

وكانت هذه الفترة فترة محيرة بالنسبة لكليوباترة • فقد ظهرت
برنيكى الجميلة فى صورتها الحقيقية • فقد ساعدها الحزب
الاسكندرى ، الذى جرض الغوغاء ، والاسكندريون دائما جمهور
سريع التهيج يلتهب بسهولة هستيرية وضعيف متقلب كزغب العوسج ،
ليطردوا أباهما من المدينة • واستولت على عرشه وأعلنت نفسها الملكة
برنيكى الرابعة •

ولم تعرف كليوباترة ما الذى تفعله ازاء ذلك • انها لم تحب أباهما

بنوع خاص ولكنها مخلصة لفكرة الملكية • وان تصرف أختها ليس الا اغتصابا للسلطة وأيقنت من ادايتها ، ولكن فطنتها جعلتها تخفى مشاعرها الحقيقية ، وبعلمها هذا تعلمت درسها الأول في النفاق عند الدفاع عن النفس وتستطيع أن تتخيلها وهي تقول « اننى طالبة علم ومشغولة بتعلم لغة جديدة وأدرس الفلسفة والرياضيات ، ولا تهمنى السياسة فى شىء » تتخيلها تقول مثل هذا الكلام فى القصر ولاشك أن طبيعتها المخلص لها أوليمبوس كان يتولى ترديد هذه الأقوال لتنتشر بين الآخرين •

وهكذا تظاهرت كليوباترة ، وهى لاتزال طفلة لم تكد تبدأ سن المراهقة بتجاهل الأحوال الجارية وأنها تشغل نفسها فى الدراسات كالمسترجلات وأصبح بعض مشاهير العلماء فى ذلك العهد مثل فيلوستراتس الفيلسوف والمضو فى أكاديمية العلوم من أصدقائها المخلصين وأهدوا كتبهم اليها •

وهكذا مرت الشهور العvisية الى أن جاءت أخيرا أنباء للأسرة، أنباء حسنة بالنسبة لها ، ولكنها أنباء كئيبة بالنسبة لبرنيكى وأصدقائها فقد كانت روما تحتفل بتنصيب القيادة الجمهورية الجديدة للحكم الثلاثى المكون من يوليوس قيصر ، وبومبى ، وكراسوس ، وأن مجلس الشيوخ قد آزر أباهما المنفى وأن القائد العظيم جانيوس مساعد بومبى كان فى طريقه فعلا الى الاسكندرية ليعزل الملكة المغتصبة ويعيد أباهما الى عرش مصر •

وكان ذلك فى العام الرابع والخمسين قبل الميلاد ، وكانت كليوباترة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقد انتهت أيام طفولتها وأوشكت قصة حياتها أن تبدأ وأعد المسرح للفصل الأول •

كانت أصوات الترحيب تقترب عندما كانت الجماهير ترافق الفرقة العسكرية من البوابة الكانوية الى القصر ، وكان الذين طاردوا أباهما الى خارج المدينة منذ ثلاث سنوات ونادوا بابتته الكبرى ملكة مكانه ، هم أنفسهم الذين كانوا يحتفلون اليوم بعودته ورجوعه الى عرشه ، أما برنيكى فقد هربت •

وأدركت كليوباترة عندما أصبحت الجماهير على مرأى منها ، أن تلك الجماهير كانت تحبى عرض الرومان لمظهر سلطانهم ، أكثر مما كانوا يحبون أباهما • وكان الضباط الرومان يسرون أمام جانيوس ليظهروا سلطته الرسمية نيابة عن حكومة روما لتنصيب الملك بطليموس مرة أخرى على العرش • وكان الجنود الرومانيون ذوى وجوه جامدة وشفاة رقيقة مطبوعة ويسرون بدقة آلية ونظام كامل مما بهرها وأدخل الروع فى قلبها •

وكان يجلس الى جوارها أرسينوى وأخواها الصغيران ، وقد استطاع الأولاد بصعوبة أن يتمالكوا أنفسهم من الاضطراب • ولم يكن هناك حب على الاطلاق بين كليوباترة وأرسينوى ولم يكن قليل من الحب بين كليوباترة ذات القلب الدافئ وبين أخويها الصغيرين بسبب ضعف شخصيتهما ، على العكس من شخصيتها التى تفيض بالقوة والاستقامة • وفضلا عن ذلك فقد باعدت بينهم دسائس القصر الى حد كبير • وكان بوثنوس معلم الأولاد والذى كانت له سلطة كاملة عليهما ، يكرهها وكانت هى تبادله تلك الكراهية من كل قلبها • وكان هو وزملاؤه من بينهم أخيلاس قائد الحرس يؤلفون حزبا خطرا معاديا لها وجعلوا التعاطف الطبيعى والثقة مستحيلة بين الأخت والأخوين الصغيرين •

وكانت تجلس فى ذلك المكان وهى غير عالة بأن تقرير مصيرها

كان قريبا منها ، ولم يكن ليدور بخلدّها أنّها ستضطر يوما ما لأن تحارب أصدقاء أخويها ومستشاريها الأشرار حربا حتى الموت ، وأن الولدين سيضلان بسببهم وسيكونان مجرد ألعوبتين في يد غيرهما .

وفي هذه اللحظة لاح لناظريها أبوها والقائد الروماني ، وكان يسير خلف جابنيوس ذى النظرة النيلة الصارمة ، عملاق ، عملاق باسم صغير السن له شعر أشقر وعينان زرقاوان واسعتان في وجه ملهى بالحيوية والدفء . وكان قويا جدا وكانت تستطيع أن تستشف ذلك من عضلاته التى لم تخفها النقبة الرومانية القصيرة ومن ذراعيه اللتين لم تكن يغطيها رداؤه الروماني الذى رمى بطرفه فوق كتفه دون مبالاة . وألقى نظرة عليها وهى تجلس مع وصيفاتها اللاتى كن يتحدثن بصوت مرتفع ، وكن فتيات صغيرات مثلها . ثم نظر بعد ذلك الى أرسينوى .

وكانت كليوباترة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وكانت طالبة علم تتكلم لغات عدة ، ومغرمة بالفلسفة والرياضيات والشعر ، فتاة نشأت فى مدينة كانت تعبد الالهة أفروديت الهة الحب وتناديها باسمها المصرى حتحور ، وكانت عبادتها تمثل اندماج العقائد المصرية القديمة والعقائد الاغريقية ، ولا تكثر بأى نظام خلقى أو قانون للفضائل ، لقد رأت تلك الفتاة مارك أنطونيوس . فماذا كانت أفكارها ومشاعرها ؟ هل وقعت فى غرام العملاق الأشقر الذى كان جنده يعشقونه ؟ أم أنها لاحظت علامات الضعف من شكل ذقنه وانغماسه فى الملذات من شكل فمه ؟

اننا لا نعرف . ولكن من المحتمل أنه فى الوقت الذى كانت تعجب فيه بطلعته الوسيمة ، وبكل سحر روما القوية الذى يكمن وراءه ، أحسّت أنها أرفع منه منزلة وأنها أقوى الاثنين . وبينما كانت تراقب

الموكب ، نستطيع أن نتصورها وهي تدير حول اصبعها الخاتم الذى كان مركبا فيه فص من الأمايتست (حجر الجمشت) وعليه صورة اله الخمر ، وحكمة تقول « ان السكر عبد للصحو » • فقد كانت تعرف كيف يمكن أن يشرب الرجال الأشداء المملوءون حيوية مثل هذا العملاق الذى يسير أمامها • لقد كان جدها وأبوها متحمسين للاله ديونيسوس ولن يشذ هذا الرومانى عنهما • ولكن الرمز السرى الذى ترتديه دائما كان يذكرها بأنها كانت صاحبة الأمر على الهة الخمر وصاحبة الأمر على السكارى •

انه مازال ينظر الى شقيقتها — كلا ليس الى أرسينوى ولكن اليها هي الآن وانها لنظرة لها قيمتها ، نظرة عمت جسمها المتلى ، وما فيه من اغراء وهي ترتدى الرداء الهللىنى البسيط الزينة ، وعينيها الرماديتين اللتين أطالتهما بالكحل على الطريقة المصرية وشعرها الكستائى الموج وبشرتها الذهبية •

ربما كانت الفتيات الرومانيات أكثر جمالا فى تقاطيع وجوههن وربما كن أكثر طولا ولكن عيني هذه الفتاة كان فيهما اغراء ودعوة وفيهما بريق من نار فى داخل نفسيهما • ولم يكن باستطاعته أن يسمع صوتها ، مبعث جاذبيتها العظمى ، ولكنه استمر فى طريقه وهو ينظر اليها ثم وصفها فيما بعد بأنها « زهرة يانعة » •

وكانت الجماهير تهدر فى أثناء مرور الفرق الرومانية • لقد عاد بطليموس الحادى عشر « الزمار » الى عرش مصر باذن كريم من روما • على أن الشئ الذى كان أكثر خطرا فى مستقبل الأيام هو أن مارك أنطونيوس رأى كليوباترة ووجدتها جميلة •



ولم تكن السنوات الثلاث التالية بالنسبة الى بطليموس أوليتيس سنوات سعيدة فبالرغم من أنه عاد الى العرش ، فانه لم يجلس عليه باعتباره فرعون عظيما ، له كيان مستقل عن الجميع ، ولكنه تولاه بفضل الجمهورية الرومانية • وكان عليه أن يتقبل الالهانة بقبوله تعيين مفتش روماني للضرائب يرأس مفتشه المصري وكان الجند الذين تركهم جابينوس للمحافظة على هدوء سكان الاسكندرية ، بمثابة جيش احتلال صغير • وبالرغم من أنهم سرعان ما انغمسوا في ملذات المدينة المترفة ، فان كل انسان كان يعرف أنهم كانوا في مهمة يؤدونها في تلك المدينة •

فاذا شاء قيصر أو بومبي أن يخلعه عن العرش - كما أراد كراسوس عضو الحكومة الثلاثية الثالث أن يفعل ذلك من قبل - فلم يكن هناك ما يحول دون تنفيذ مشيئتهما • وكان ابناه مجرد طفلين ، وكانا واقعين تماما تحت نفوذ مربيهما بوثنوس وثيودوتس ، ولم يكن لهما أى قيمة أكثر من كونهما صغيرين لا قيمة لهما في معارك ودسائس البلاط ، ومع ذلك فقد حتم القانون المصري بأن يعلن أحدهما وليا للعهد ويتزوج من الوريثة للعرش ، يتزوج أخته الكبرى ليتولى العرش بعد ذلك بصفة شرعية •

وكانت برنيكى قد ماتت اذ ذاك ، اذ نزلت بها أقصى عقوبة توقع على شخص لعدم ولائه ، ولهذا كانت كليوباترة هى الوريثة • وكانت هى الوحيدة فى أسرته التى تستطيع بما لها من همة وشجاعة هادئة وعقل راجح ، أن تتغلب على روما • وكان يعلم أنها تستطيع أن تحكم مصر بمفردها ، وأن أهل الاسكندرية سوف يمنحونها اخلاصهم وولاءهم لانهم كانوا ذوى مروءة ونخوة تجاد ملكاتهم أكثر منهم تجاه ملوكهم • ولكن روما لن تعترف أبدا بامرأة كحاكم بمفرده ، وكان

الحل لذلك الاشكال هو أن تنصب كليوباترة وأكبر الولدين شريكين في الملك وأن يصدر أمر رسمي بأن يتزوجا ، وذلك ارضاء لشعور رعاياهم المصريين •

وكتب بطليموس وصيته سرا ، وجعل مجلس الشيوخ الروماني منفذا لتلك الوصية اذ أن احترام الرومان للقانون كان مضرب الأمثال ، وأودع تلك الوصية مع كاهنات المعبد اللاتى أقسمن ألا تفض أختامها الا بعد وفاته •

كانت هذه السنوات بالنسبة الى كليوباترة مريرة ومقلقة • فقد ذهب مارك أنطونيوس منذ زمن بعيد ولم يترك في مخيلتها سوى ذكرى باهتة وأصبح والدها ، نظرا لمركزه المتأرجح ، انسانا يتهرب من المسؤولية أكثر من قبل • وكان عزفه على الناي يزداد حزنا مع مرور الأيام • وكانت صحته آخذة في الانحطاط وأخذ يفرض في الأكل والشراب • وكان جليا أن الحياة أخذت تسيل من جسده قطرة بعد قطرة ، فما الذى سيحدث لها عند موته ؟ ربما كان في صالح معلمى أخويها وأخيلاس قائد حرس القصر الذى كان الجيش من ورائه ، أن يتخلصوا منها وعلى هذا يستطيع أكبر أخويها الذى كان يسمى بطليموس أيضا ، وكان شخصا ضعيفا يسهل خداعه أن يحكم بدون أن تتدخل أخته المتوقدة الذهن في شىء • ولكن كان يتحتم عليها أن تخفى هذه الهموم وأن تتصنع راحة البال التى لم تكن تحس بها في حقيقة الأمر وأن تتظاهر بأنها تستمتع كل الاستمتاع بالأعياد والاحتفالات التى كان يقيمها الشعب المحب للمسات في داخل المدينة وعلى شواطئ بحيرة مريوط حيث كانوا يذهبون الى هناك في سفن مزينة بالأنوار وتصدح بها الموسيقى والأغاني طوال الليل المصرى ذى النسيم العليل •

وأخيرا توفي أبوها بطليموس وكانت في الثامنة عشرة وكان أخوها بطليموس في العاشرة • وجاءوا بوصيته من محراب المعبد وكسروا أختامها وقرأوها • وكان على كليوباترة أن تتزوج أخيها الأكبر بطليموس وأن يحكما معا تحت اسم كليوباترة السادسة وبتليموس الثاني عشر ملكي مصر • ونص في الوصية قائلا « انتي استودع باحترام هذين الاثنين في حماية الشعب الروماني النبيل » •

ومهما يكن من أمر مشاعر بوثنوس وثيودوتس وآخيلاس نحو هذه الوصية فانهم كانوا مضطرين لأن يخفوا مشاعرهم وقتذاك اذ أن الجند الرومان كانوا هنالك لينفذوا وصية الملك الراحل • وتزوج الشابان الصغيران طبقا للطقوس المصرية وتوجا بالتاج المزدوج لمصر العليا ومصر السفلى ورضي بهما الكهنة والشعب كحاكيهم المقدسين • وقدمت القرابين في جميع المعابد القديمة في جميع أنحاء البلاد ، وولد أمل جديد بأن يكون الرومان الصغيران منقذيه من الحكم الأجنبي •

ولا نعرف الا القليل جدا عن حياة كليوباترة في السنتين التاليتين، على أنه من السهل أن نخمن وجود مكائد ودسائس كانت تحلق في القصر وكانت تفرق بين الملك الشاب وبين ملكته وزوجته التي تكبره سنا ، فسممت تلك الدسائس أفكاره ضدها ، ووافق في آخر الأمر على تأمر بوثنوس وثيودوتس ليخلعاها عن العرش ، واندس أعوانهما سرا بين جماهير أهل الاسكندرية في الطرقات والأسواق يبدرون بذور الكراهية والشك •• ان كليوباترة كانت عميلة مؤتمرة بأمر روما •• وسوف تباع الاسكندرية ومصر بأجمعها الى قيصر •• انها فاسدة •• وشرهة لجميع الثروة •• وسوف تزيد الضرائب •• انها تتسنى موت أخيها واغتصبت سلطاته الشرعية •• هكذا أخذوا يملئون آذان الشعب بكل فرية يتفتق عنها ذهنهم وكل ما كانوا يظنون أنه أكثر تأثيرا •• كما أخذوا يدسون الذهب في أيدي أفراد الشعب أيضا •

و ذات يوم ، استيقظت كليوباترة لتجد نفسها هدفا لجماهير
متهكمة غاضبة مهددة تطالب بتنازلها عن العرش ، ولاشك أنها قابلتهم
بشجاعة ، ولكنهم كانوا أقوياء جدا بالنسبة لها وكان عليها أن تهرب
من المدينة مثلما فعل أبوها قبل ذلك . وكان عليها أن تغادر لأول مرة
في حياتها مدينة الاسكندرية موطنها الذى تحبه . وتركت زوجها
الضغير الذى كان زوجها بالاسم فقط ومستشاريه الدهاة وفي يدهم
سلطان الحكم .

ولكن كليوباترة لم تكن عبثا وريثة لعرش الفراغة ومن تتجسد
فيها ايزيس على الأرض كما كانت تعتقد في نفسها منذ أن أصبحت
ملكة .

واستطاعت أن تدبر الهرب الى سورية وهناك جمعت جيشا
وعادت الى مدخل مصر ، الى حصن بلوزيوم الذى لم يكن يقع بعيدا
عن مجرى قناة السويس الحالية وهناك انتظرت لتشب المعركة بينها
وبين بطليموس . ويروى التاريخ قصة معارك عديدة شهيرة لم تقع
أبدا بالرغم من التأهب والاستعداد والعتاد الحربى الكامل التى أعد
لها ، وهذه المعركة واحدة منها ، وتدخلت روما مرة أخرى ، اذ أن
الخيوط المتشابكة لمصري مصر والجمهورية الرومانية قد ازدادت
تشابكا أكثر من ذى قبل .

كان الحسد والتنازع سببا في فصم عرى الحكومة الثلاثية ،
وما أن عاد يوليوس قيصر الى روما من حملاته الخارجية ، حتى
التحم في نضال مميت مع بومبى من أجل البلمطة . وهددت المنافسة
والحرب الأهلية بين الرومانى والرومانى بحلول كارثة ، اذ أنها
لا يمكن أن تنتهى الا بالقضاء التام على واحد منهما .

وفي موقعة فارسالوس عزف جيش بومبي عن مقاتلة أخوته في السلاح فحلت بيومبي هزيمة ساحقة بدلا من النصر الذي كان واثقا من الفوز به والاحتفال به بلبس أكاليل الريحان وتقديم الخمر •

وبينما كانت كليوباترة في الناحية الأخرى من البحر المتوسط ، تستعد لملاقاة أعدائها عند بلوزيوم ، فر بومبي من أرض الموقعة وهرب في سفينة ، وقد أصبح شخصا مضيقا تخلى عنه أصدقاؤه القدماء ، وكان يريد اللجوء الى أى مكان ولكن الى أين يذهب لينشد الأمان والحماية ؟ •

وكان هناك مكانان محتملان ، أفريقيا ومصر • وكانت أفريقيا أكثر بعدا من روما ولكن بومبي كان لا يميل الى ملك موريثانيا الملك جوبا ، وكان يعرف أنه لن يكون على الرخب والسنة اذا ما جاء الى بلاطه طالبا منه الحماية • فصمم على الذهاب الى مصر حيث كان يتوقع أن يجد ملاذا •

وحوالى نهاية شهر سبتمبر سنة ٤٨ ق.م • عندما كانت شمس مصر الحارة قد أخذت تفقد قوة حرارتها اللافتة ، ظهرت السفينة التى كانت تحمل بومبي وزوجته كورنليا وابنه الصغير ، أمام أبصار الجيشين المتنافسين ، جيش كليوباترة وجيش بطليموس اللذين كانا يواجهان بعضهما البعض عند بلوزيوم • ونزل رسول من السفينة يحمل رجاء من دكتاتور روما السابق الى ملك مصر طالبا منه الحماية والمساعدة •

وتشاور السادة الحقيقيون للبلاد ، بوثنوس وثيودوتس وأخيلاس ، وقرروا أنهم اذا هم أنقذوا بومبي فانه لن يكون نصير الى جانب عدوتهم كليوباترة ولكن من الناحية الأخرى فان ذلك

سوف يغضب منهم قيصر ، ومن المحتمل أن بومبي سوف يصبح أمرا
ناهيا بينهم • وكان لثيودوتس ، مدرس البلاغة ، الكلمة النهائية ،
« ان الموتى لا يعضون » • وسوف يكون قيصر شاكرا ان هم قتلوا
منافسه • وكان قيصر وقتئذ أقوى روماني حى ، ومن ناحية أخرى
فان بومبي سوف لا يكون قادرا على أن يلحق أى ضرر بهم •

وعهدوا بعملية القتل الغادرة الى الرجل القوى فيهم وهو
آخيلاس • فاختار ضابطا غادرا من ضباط بومبي السابقين ، اسمه
سبتيوس ، وقائد مائة لمساعدته • فنزلوا الى زورق صيد ، وأخذوا
يجدفون نحو السفينة لكي يعودوا ببومبي الى الشاطئ ليتفاوض مع
ببليوس •

وعندما عاد زورق الصيد ثانية الى الشاطئ نهض بومبي من
مكانه وأخذ بيد جندي ليساعده على النزول الى الأرض ، وفى هذه
اللحظة ضرب سبتيوس بومبي من الخلف وطعنه بسيفه العريض
وفعل آخيلاس والقائد نفس الشيء ، وغطى بومبي وجهه ليخفى ما كان
يحس به من ألم ، وسقط بومبي العظيم ميتا بدون أن يتفوه بكلمة
واحدة •

وكان من الميسور رؤية المأساة بوضوح من السفينة ، وترددت
أصدا صرخة كورنليا المفزعة على الشاطئ • وأمر القائد بالاقلاع
على الفور وأن تفرد شراعها حتى يستطيعون الخروج الى عرض البحر
تدفعهم الرياح القوية •

واذا كان ثيودوتس وبوئينوس وآخيلاس قد ظنوا أنهم بهذا
العمل الخسيس سوف ينالون حظوة لدى يوليوس قيصر ، فانهم
كانوا مخطئين • فبعد أربعة أيام رسا قيصر على شاطئ البحر عند

الاسكندرية بفرقه وهو يطارد منافسه المهزوم * وأسرع ثيودوتس ليقابله ومعه رأس بومبى * ولكن قيصر أشاح برأسه في فزع ويأس ، وعندما أعطوه خاتم بومبى الذى نقش عليه صورة أسد ممسكا سيفه ، أخذه وبكى * لقد كان هذا عملا دنيئا وعملا لا ترضى عنه أخلاقه القويمة * لقد كان بومبى رومانيا مشهورا وجنديا ممتازا وخصما عظيما وشريفا * فطرد قيصر قتلته وأقام له جنازة تناسب رتبته ومكاته ، وأرسل سفينة مجللة بالسواد ومعها رماد جثة بومبى الى أرملة كدليل على احترامه العميق *

ونقل جواسيس كليوباترة كل هذه الأنباء اليها في خيمتها في بلوزيوم * وكان قيصر قد نزل الى البر ومعه فرقتان وحرس من الفرسان ونزل في القصر الملكى في برخيون ، في منزلها ولكى يظهر أنه أراد أن يفرض ارادة روما على سياسة الاسكندرية سار خلال شوارع المدينة على رأس جنده مسبوقا ، كما لو كان في موكب قنصلى الضباط الرومانيين الذين كانوا يحملون رمز سيادة روما ، حزمة العصي المربوطة *

ومع أن أهالى الاسكندرية قد أعجبوا بالعرض ، فقد استنكروا هذه الاهانة الموجهة الى سلطتهم الوطنية ، واندلعت المظاهرات والاضطرابات فأرسل قيصر فى طلب الامدادات من سورية اذ صمم على اصلاح الأمور فى البيت المالك المصرى المنتقسم على نفسه *

وسمعت كليوباترة بكل هذا وهى فى معسكرها فاثارتها تلك الأنباء * ها هو ذا رجل تستطيع أن تعجب به ، رجل عظيم لدرجة تجعله يكرم عبده المهزوم ، ولا يخجل من أن يذرف الدمع على نهايته المحزنة وسألت طبيبها أوليمبوس ، كم عمر قيصر هذا ؟ وأى نوع من الرجال هو ؟ *

فأجابها بهذا الرد الغامض « انه كبير السن ، ومع ذلك فهو ليس
برجل شيخ * رجل قام بأعمال عظيمة وعاش حياة قاسية ولم يرحم
نفسه أبدا ، ومع ذلك فهو رجل يغنى بملابسه ويجب النساء اللاتي
يختارهن بنفس العناية في تأنقه الشديد * رجل يحلم بأنه سيحكم
العالم وقد ولد ليحكم الرجال » *

وسرحت كيلوباترة بأفكارها * انها انسانة منفية بلا أمل في
الاقتراب منه لعرض قضيتها لتعرض عليه حقها الشرعى في الجلوس على
العرش كحاكم شريك مع بطليموس (الذى كان قد أسرع عائدا الى
العاصمة فلم يخوضا معركتهما) ولكن أعداءها يحيطون بقيصر *
وسوف تلقى حتفها قبل أن تصل اليه اذا حاولت ذلك علانية *

وعند ذلك خطرت لها فكرة أخرى ، أن قيصر قد ركب خلال
البوابة الكانوية لمدينتها ، لا باعتباره ضيفا وحليفا ، ولكن باعتباره
غازيا وسيد مصر الأعلى ولوح بحقه الشرعى ليفصل في النزاع على
العرش باسم مجلس الشيوخ الرومانى * وسرت في نفسها موجة من
الغضب مختلطة بشعور من الاعجاب * فلتدبر أمرها *



تهب في أثناء شهور الصيف على شاطئ مصر المطل على البحر
الأبيض المتوسط رياح قوية آتية من الشمال كان الاغريق يسمونها
الرياح الموسمية الصيفية * وكان من الأمور الصعبة المخفوفة بالخطر
أن تنزل السفن التي كانت تستخدم في أيام كيلوباترة التي تسافر من
الاسكندرية نحو الشمال الا عندما تخف حدة الرياح عند حلول
الخريف * ولهذا كانت موانئ الاسكندرية مغلقة وكان قيصر يعرف
أنه يتحتم عليه أن ينتظر هو وسفنه هناك ، وكان الموقف صعبا عليه

فقد عسكر هو ورجاله داخل القصر الملكي وما حوله في بروخيون ،
ووصل الى علمه أن آخيلاس قد استدعى الجيش المصرى وحاصره .
ولم تكن امداداته من سورية قد وصلت بعد وكانت سفن الحرب
المصرية راسية في الموانى تقابل سفنه ، وفيها الرجال على أهبة
الاستعداد .

وكان الملك الصبى بطليموس الثانى عشر قد وصل بناء على
استدعاء قيصر له وكان معه في القصر . وكان من السهل جدا أن
يتوسط لصالحه هو ، تاركا بوثنوس ليحكم نيابة عنه باعتباره قاصرا
كما كانوا يريدون . ولم تكن كليوباترة هناك لتعرض قضيتها ولم
تكن هناك فرصة سانحة تستطيع بها المرور بين صفوف الجيش المصرى
وهى على قيد الحياة : فان ثيودوتس وآخيلاس لن يجعلا الفرصة
تفوت من بين أيديهما .

ولم يكن يوليوس قيصر قاهر بلاد الغال ، قد عرف الا القليل من
صفات كليوباترة . فقد يتحتم عليها أن نخدع أعداءها وأن تصل اليه
بطريقة ما لقد أخبرها أوليمبوس بأن نقطة الضعف فيه هو تأثره
بالنساء فاذا استطاعت فقط أن تواجهه شخصا فانها كانت واثقة
من قوة سحرها وكانت واثقة من استمالة الى جانبها . وكانت معرفتها
بسكان بلادها واللهجات العديدة التى يتخاطب بها الناس في الاسكندرية
وما حولها ستفيدها كثيرا وتساعددها على أن تتنكر وتشتري ما تشاء :
فاربا صغيرا بمجاديف ، وسجادة ، واخلاص بحار قوى يستطيع أن
يحفظ سرها ، واذا كان ممكنا فليكن ايطاليا وليس اغريقيا أو مصريا
حتى لا يثير شكوك خرس قيصر .

وعند غروب الشمس في احدى الليالى ، عندما كانت صخور
مقر قيصر المؤقت تقف صامدة داكنة في سماء يشع فيها اللون

الذهبي ، تسلل قارب صغير يقوده ملاح شجاع ، تسلل دون حدوث ضجة الى داخل الميناء الكبير آتيا من البحر وقد أعمل المجاديف متجهها نحو السفن الراسية هناك واتخذ طريقه الى الميناء الملكي الداخلى .

وكانت الشمس البرتقالية اللون قد أخذت تنزل الى الأفق خلف المنارة التى فى جزيرة قاروس المقابلة ثم اختفت خلف حافة الأفق وقد أضاء نور الغسق القصير كل شىء بشعاع غير عادى ، وذلك فى اللحظة التى دخل فيها القارب الصغير بهدوء الى داخل الميناء بمجاديفه المستعدة للتجديف وشق طريقه الى رصيف رسو السفن ، وكان الضوء قد أخذ يخفت وحل الظلام كما لو أسدل الانسان ستارا ثقيلا .

ومن المرجح جدا أن الحارس الرومانى قد اعترض طريق القارب ولكن الملاح الذى كان من أهل صقلية أقنعه بأنه لا يقصد أى ضرر وأنه قد أتى بقاربه عبر البحر ليسلم بساطا الى القصر ، ولكى يثب صدق قوله أسرع فى الحال والتقط لفة طويلة مربوطة بجبل كانت موضوعة فى قاع المركب وحملها فوق كتفه ونزل الى الشاطئ .

كانت التعليمات المعطاة له بأن يسلمها الى قيصر نفسه فقط ، وأخيرا وجد البحار نفسه فى حضرة الرجل العظيم .

وأُنزل اللفة الى الأرض وفك الجبل الذى كان يربطها به وخرجت منها ملكة مصر الشرعية كليوباترة شخصا . ان ما رآه قيصر الذى ملأته الدهشة لم يكن الا شابة جميلة فى الثانية والعشرين من عمرها لا تزال « الزهرة اليانعة » التى جذبت أنظار مارك أنطونيوس ولكن قد زاد عليها شدة رباطة فى الجأش وثقة فى قوتها .

وكان شعرها الكستنائى قد تهدل قليلا بسبب لفها فى السجادة . ولكن مجيها وعينيها الرماديتين الجميلتين وقوامها النحيل كانت كلها تسلب العقل ، أضف الى ذلك أنه كان فى استطاعته أن يسمع صوتها

الذى اتفق جميع مؤرخى عصرها ، مهما بلغ كرههم لها ، على القول
انه كان أكثر صفاتها اغراء للرجال ولم يتمالك قيصر نفسه فضحك •

ما الذى رآته كليوباترة ؟ رأت رجلا قد جاوز الخمسين من
عمره ، ولكنه نحيف قوى وذو مظهر يدل على قوة • وكان طويل
القامة وبشرته صافية وعينه سريعتان سوداوان لا يفرتهما شئ ،
وكان يرتدى رداء أبيض مزخرف الحافة بلون أرجوانى ، وكان منسجما
عليه • أما شخصيته ، فكانت تستطيع أن تحكم عليها من مظهره
ومما كانت قد سمعته ، كانت شخصية صريحة وحازمة • وكان رجلا
عمليا وليس خياليا ، أضف الى ذلك أنه كان رومانيا منتصب القامة
شديدا فى معاملته للناس ، كريما مع الذين يطيعونه والمخلصين له ،
كريم الأخلاق نحو أعدائه فى بعض الأحيان ولكنه لا يهتم بالعواقب
كالأيام التى كان يعيش فيها وتعيش فيها كليوباترة • ولكن أعظم
ما راق لها فيه هو جرأته التى لا تقل عن جرأتها • وما من شك فى أنه
كان أشجع من جنوده ، وكان مستعدا لأن يعيش حياة شاقة كما كانوا
يعيشون وكانت شعبيته بينهم وحبهم له مثالا سائرا فى كل أنحاء
العالم •

وقد اختلق جورج برنارد شو حوارا شائقا فكها بين قيصر
وكليوباترة فى أول لحظات لقائهما ، فى روايته « قيصر وكليوباترة »
ولكن حقيقة ما دار بينهما سيظل سرا خاصا بهما • وكل ما يعرفه
العالم هو أن كليوباترة « قد أتت ورأت وغزت » (١) وأن قيصر
المحارب القديم والسعيد بزواجه من كالبورنيا السيدة الرومانية النبيلة،
قد وقع فى حب « الساحرة المصرية » كما كان يسميها الرومان المتجنون
عليها • وقد أيدھا بحكمه بأن تكون « ملكة مصر » وأن تحكم

(١) عبارة مأثورة فى غزوات قيصر ، وهنا تكتئ بها الكاتبة عن انتصار

كليوباترا على قيصر •

بالاشتراك مع زوجها وأخيها الأكبر بطليموس الثانى عشر طبقا لنصوص وصية أبيهما •

وكانت الرياح الموسمية الصيفية قد أخذت تخف ، ولكن بالرغم من أنه كلما طالت اقامة قيصر بالاسكندرية كان محتملا أن يقوم حزب بطليموس الساخط تحت زعامة بوثنوس وثيودتس وآخيلاس بتدبير المكائد ضده ، فقد تباطأ قيصر فى تركه للاسكندرية •

لقد أحباها وكان عليه أن يتأكد من أنها كانت آمنة مطمئنة كشريكة على العرش • وبالرغم من أن وجوده فى روما كان ضروريا للغاية ليزيل آثار ما خلفته الحرب الأهلية مع بومبى ، فقد بقى ليستمتع بربيع كهولته ، وكان كلاهما ، هو وكليوباترة ، منعمين بالسعادة •

لقد انقضت كل تعاستها القديمة وانتهت أيام فشلها بسبب علاقاتها السيئة مع أخويها ومخاوفها من أجل مستقبل مصر بأن يحكم بطليموس منفردا يؤازره الثلاثى الخبيث - وعلى الأخص بوثنوس - ويرشده الى ما يجب عليه عمله • لقد أصبحت الآن الملكة التى تجسدت فيها ايزيس وريثة تاج الفراعنة المزدوج وهى وحدها صاحبة الحق فى الاشتراك فى حكم البلاد • فقد كان زوجها مظهرا رسميا فقط • وقد أحست الآن أنها امرأة يتعلق بها أعظم رجل حى ، رجل أحست معه أنها تبادله عواطفه • لقد تمت أن تحمل منه بولد ، لأنه لم يكن لديه ولد يخلفه بعد وفاته • ولما كانت قد أخفت أغراضها عن طبيعتها أوليمبوس الذى كان لا يؤمن الا بالعلم فمن المحتمل أنها أرسلت خادمة مصرية لتبحث لها عن تعويذة سحرية من تعويذات العتيقة القديمة ، بردية مكتوب عليها كلمات غريبة بخط الكهنة بالكتابة الهيروغليفية ، وأن تأتى بها سرا الى مغارة ايزيس ، انها تريد ولدا

ذكرا ، ولن تخيب توائم السحر القديمة التي كانت معروفة في بلادها ،
رجاءها في ذلك •

ولكن احساسها بالفرحة والأمل لم يكن خاليا من الشعور بالقلق،
فقد كان الملك بطليموس يتميز غيظا في السر وكان ساخطا لمنصرة
قيصر لكليوباترة لتأخذ مكانها الشرعى معه كحاكم شريك في الملك •
وأعد مؤامرة هو وبوثنوس فقد كان أهل الاسكندرية متخوفين من
روما ، خائفين من أن يفقدوا سيادتهم الوطنية وخائفين من الضرائب
والجزية التي يفرضها قيصر عليهم ، وألا يكونوا ملتزمين بدفع الديون
الجسيمة التي جلبها على نفسه بطليموس الحادى عشر فحسب بل
يلتزمون أيضا بدفع نفقات حملات قيصر الحربية •

ونشر بوثنوس ، ذو الخبرة السابقة في ترويج الشائعات
الزائفة ، بين سكان المدينة أن قيصر يهدف حقيقة الى اغتصاب مصر
لروما مخفيا أغراضه تحت ستار قبول بطليموس وكليوباترة بأن يسيا
ملكا وملكية وأرسل محاسبيه ليجردوا المعابد من كنوزها قائلين ان
ذلك بأمر قيصر ، وذات يوم ذهبت كليوباترة لتناول طعامها كالعتاد
مع قيصر وبطليموس في اللقاء الرسمية بالقصر لتجد أطباقا وصحافا
خشبية ليأكلوا منها بدلا من الأطباق والصحاف الذهبية التي أخفاها
بوثنوس مدعيا أن قيصر قد أمر بذلك ليرضى جشعه للمال •

وازداد هياج الشعب •• أن قيصر طاغية شره •• واصطخبت
المدينة بحمى العزة الوطنية ، وكان الأسطول المصرى مجهزا بالرجال
وأعد آخيلاس جنوده ليهاجموا القصر ويلقوا بالرومان في البحر •

وكان قيصر ورجاله أقل بكثير في العدد من أعدائهم وكانت سفنه
محاصرة في الميناء الكبير أمام القصر ، وعقد هو وكليوباترة مجلسا

واتفقا على ضرورة العمل السريع بدون انتظار للإمدادات ، وكان من عاداته التصرف السريع ، ولهذا استولى قيصر على المنارة بجزيرة قاروس بضربة جريئة وأضرم النيران فى الأسطول المصرى الذى كان يحاول أن يقطع عليه طريق انسحابه بحرا • ولابد من أن دم كليوباترة الثائر قد طرب وهى تراقب النيران تنتقل من سفينة الى سفينة فى مراسيها وعندما سمعت الرجال يصرخون وهم يقفزون الى الشاطئ أو يسبحون ناجين بحياتهم •

وفى اليوم التالى ، تلقوا الأنباء السارة بأن الاثنين والسبعين سفينة التى تكون الأسطول السكندرى كله قد احترقت ولم تعد تصلح للعمل • ولسوء الحظ احترقت أيضا كميات من الكتب الخاصة بمكتبة الاسكندرية حيث اندلعت النيران فى المدينة وظلت هناك بعض الوقت ، وقد سمعت كليوباترة هذا النبأ فامتلت نفسها بالحسرة •

ولكن المكاسب الحربية لها ولقيصر عوضت هذه النتيجة المشؤمة غير المنتظرة ، ولم يصب أسطول قيصر المكون من أربع وثلاثين سفينة تجارية صغيرة بأى ضرر ، ولم يكن هناك ابتداء من الآن ما يمنع خروجها الى عرض البحر لقد كان كل شئ حسنا حتى الآن •

ومهما يكن فان المصريين لم تثبط عزيمتهم بسهولة • فقد كانوا ولا يزالون يستولون على ميناء العود الحميد خلف حاجز الأمواج الطويل ، والهبتاستاديون وهناك انصرفوا الى العمل فى بناء أسطول جديد • وعندما سمع قيصر بذلك عن طريق جواسيسه أرسل رسالة عاجلة فى غاية الأهمية بطلب النجدة من القائد الرومانى فى سورية وكان يسمى دوميتيان يسأله أن يرسل الفرقة السابعة والثلاثين بأسرع ما يمكن لمساعدته ولأول مرة تقتنع كليوباترة بترك مجرى الحوادث

لشخص آخر ليرتبها ، فقد أصبح قيصر سييدا لها ، وقبلت هي ذلك بسرور • الرجل الأول والوحيد الذى تيسر له ذلك ، فقد كانت هي التى تسيطر على الرجال الآخرين ، فارادتها وادراكها كانا فوق مستواهم • ولكن قيصر لم يكن كذلك • لقد أحست نحوه بضعف واذعان من نوع غريب وعرفت أيضا أنها كانت تنتظر حادثا سعيدا ، تنتظر ولادة طفل من قيصر •

لقد جعلتها السعادة والرضى لا تبالى بشيء ، ولكنها بوغت تماما عندما اختفت أختها الصغرى أرسينوى فى احدى الليالى • وبالرغم من أنه لم يكن هناك حب مفقود بين الأختين فان كليوباترة لم يكن لديها أى فكرة فى أن لأختها أرسينوى أى طموح لأن ينادى بها ملكة على مصر بدلا منها ، أو أنها قد استمالت الى جانبها آخيلاس القائد العام للجيش المصرى لينفذ بالقوة ما كانت تدعيه •

وأقام بطليموس وبوثينوس فى القصر حتى يكونا دائما تحت رقابة قيصر • وأحسا الآن بأنهما كانا مهاجمين من ناحيتين لا من ناحية واحدة وسوف تصاب قضيتهما بأذى نتيجة للتصرف الطائش الذى قامت به أرسينوس • وأرسل بوثينوس رسالة سرية الى آخيلاس يخبره بأن يبقى مخلصا للملك ، ولكن الرسالة كانت سبب ضياعه • فقد ضبط الحراس حامل الرسالة فى منطقة القصر ، ولما تحقق قيصر من خداع بوثينوس أمر بإعدامه • تخلصت كليوباترة أخيرا من ألد أعدائها • وبعد مدة قصيرة كان على كل واحد آخر من ثلاثى الشر أن يلتقى مصيره • فقد ذاعت الأنباء فى القصر أن أرسينوى قد سخطت على آخيلاس لخروجه على حدود الولاء ، فقتلته وعينت معلمها الاغريقى جانيميد قائدا عاما فى مكانه •

ونستطيع أن نتصور كليوباترة وهى تقول لقيصر : « ليس لدينا

ما نخشاه بعد ذهاب آخيلاس • ان جانيميد ليس الا رجل علم •
ولكنها لم تكن على صواب • فان الرجل العالم قد حارب بأسلحة
مختلفة ولكنها أشد فتكا من أسلحة الجندي آخيلاس •

كانت مياه الشرب اللازمة للقصر تأتي من خزانات في التلال التي
ترتفع وراء المدينة، وعمل جانيميد على رفع مياه البحر سرا ليخلطها
بالمياه العذبة في القنوات التي تجري بها • وعندما ذهب جنود الرومان
الذين كانوا يحسون بالعطش دائما في حرارة مصر التي لم يتعودوا
عليها ، لملء زمزمياتهم وأوعيتهم بالماء ليشربوا فوجدوا الماء مالحا •
« وواجه كل من قيصر وكليوباترة » سخط الجنود ورغبتهم في
التسليم • وقد عبر رسول الجنود الرومان عن مشاعر زملائه عندما
قال لقيصر « انا نفضل أن نواجه حشدا من المتوحشين البرابرة ،
عن أن نموت من العطش هذه الميئة الفظيعة » •

وكان هناك شيء واحد يمكن عمله ، وهو البحث عن مورد ماء
عذب فكثيرا ما زحفت وركضت كليوباترة عندما كانت طفلة صغيرة في
كل مكان حول القصر ، في الحدائق ، وبين المغارات والخلجان
الصخرية للميناء الملكي ، ولهذا كانت ارشاداتها عن الأمكنة التي يمكن
الحفر فيها عن المياه عظيمة القيمة • أخذ الجند وقد غلبهم العطش
والحر يحفرون طوال الليل والنهار وهم يسبون ويدمدمون ولكن
كوفئت جهودهم اذ وجدوا ماء عذبا •

وفي اليوم التالي وصلت امدادات لقيصر من سورية وراى
كليوباترة أسطول السفن وهو يحمل الفرقة السابعة والثلاثين ويحاول
أن يشق طريقه بحرا الى داخل الميناء الكبير • ولكن ريحا جنوبية
شرقية هبت فأخطأ الأسطول المدخل الضيق ، وجهر قيصر - كعادته في

الاندفاع — سفنه بالملاحين والجنود القليلين الذين كانوا لديه وأقلع ليعود بهم تاركا القصر بدون حراسة تقريبا .

وأثبت جانيميد أنه كان قائدا ومنظما بارعا بالرغم من أنه كان عالما وليس جنديا ، فقد أسرع بالأسطول الاسكندري الجديد ، الذى كان قد بنى سفنه بسرعة ، ليقطع على قيصر الطريق بينه وبين السفن التى أتت بالامدادات ولكن أسطوله رد على عقيبه فى المعركة البحرية التى تلت ذلك وأسرع ليحتمى فى ميناء العود الحميد ، وقد ساعدته على ذلك الظلمة التى كانت قد بدأت تنتشر والتى منعت قيصر من تتبعهم حول الجزيرة .

وكان منظر السفن الحاملة للفرقة السابعة والثلاثين ، وهى تنزل مراسيها ظافرة فى داخل الميناء الكبير ، باعثا على تقديم كليوباترة شكرها الى ايزيس ، ثم أسرع بعد ذلك الى الرصيف الملكى لتحيى قيصر المنتصر العظيم وقد ملأ الفرح قلبها .

ولكن قيصر لم يكن راضيا عن ترك الأمور كما هى . كان يتحتم عليه أن يقضى على أرسينوى وجانيميد قبل أن يكون عرشها ثابت الدعائم . وكان يعرف أيضا أن بطليموس — برغم ما يدعيه من محبة وولاء له ولكليوباترة — يكرهما من كل قلبه ويتربق الفرصة ليوقع بهما ، وكان هو وبوثينوس ينتظران حتى تحين فرصة مواتية ، ولكن التهديد المباشر كان آتيا من الناحيتين العسكرية والبحرية . كان كل يوم يمر يرى الأسطول المصرى يزيد من قوته ، وأصبحت المنشآت التى حول ميناء العود الحميد ، قاعدته البحرية ، أقوى تحصينا هى والهبناستاديون وقد نقل جواسيس كليوباترة أن جانيميد كان يتفاخر بأنه سيكون قريبا سيد البحر . كما كانت أرسينوى أيضا تزداد غطرستها كسلطة مع مرور الأيام .

وانقسمت عواطف أهل الاسكندرية • انهم كانوا يفضلون كليوباترة على أرسينوى واعترفوا بحقها الشرعى باعتبارها وريثة العرش ، ولكن السم الذى نفثه أعداؤها فعل فعله فى كثير منهم ، وأدى بهم خوفهم من الاستعمار الرومانى الى القول انها خائنة لمصر بسبب غرامها لقيصر • كما أن الخلافات الأسرية بين أفراد أسرة البطالمة جرت عليهم مصائب الحرب الأهلية •

لقد حل اذن الوقت لتحدى جانيميد • كان يتحتم على قيصر أن يضرب بسرعة ويشن الهجوم على العدو • وجمع السفن الست والثلاثين التى كانت تحت امرته وأبحر بها الى ميناء العود الحميد • وكان قيصر فى موقف أفضل لأن الأسطول المصرى تجهز على وجه السرعة وكانت الأماكن الضحلة والصخور تقوم بين الأسطولين ولا تترك الا ممرا ضيقا لا يجزؤ أحد على المخاطرة بالدخول فيه ليكون البادىء بالهجوم • وبينما كانت سفن جانيميد تقوم بالمتاوراة لتتخذ مواقعها ، اندفعت أربع من أسرع سفن قيصر الى داخل الممر وسهلت بذلك للأسطول الرئيسى أن يدخل وراءها • وواجهت السفن بعضها البعض وقام قتال عنيف بين الجنود فوق ظهور السفن المتحاربة ، ولكن بالرغم من أن المصريين كانوا قد أجبروا على التقهقر والالتجاء الى مبانى الميناء المحصنة والهيئاتاديون ، فقد اضطر قيصر الى الانسحاب أمام شدة مقاومتهم • ان انتصاره لا يمكن أن يكون كاملا الا بعد أن يستولى على المرتفع الأرضى الموصل الى الميناء •

وكانت خطوته التالية هى هجوم جرىء مباغت على جزيرة فاروس • وكان هجوما ناجحا لدرجة أنه استولى على كل الجزيرة وحصل بهذا العمل على نقطة ارتكاز على الطرف الشمالى للهيئاتاديون ، والآن فقط يستطيع أن يضع كل امكانياته فى هجوم عام مؤيدا بسفنه •

وكانت الفيالق الرومانية متعبة من هذا النوع من القتال الذي يدور في أماكن ضيقة ، وكانوا قد سثموا من حصارهم في برخيون ، ورجبوا في انتهاء حرب الاسكندرية ومغادرة مصر ليحاربوا في مكان آخر ، في جو أكثر اتساعا أو أن يعودوا الى وطنهم روما . فهاجموا دون أن يكون لديهم الصبر ولكن جنود الاسكندرية الذين كانوا يحاربون وهم هادئون ، أوقعوا بهم الهزيمة وألجئوهم الى الفرار سريعا ، وقد قتلوا أربعمئة منهم وأغرقوا منهم الكثيرين . وقفز بعضهم الى السفينة التي كانت تحمل قيصر ، ولكنهم بدلا من أن يساعدوه فانهم قلبوا السفينة وكان على قيصر أن يسبح لينجو بنفسه وقد امتدت خلفه في الماء عباءته القرمزية وأصبح رأسه الأصلع هدفا لرماة المصريين . ولكن القدر لم يكن قد قرر أن تكون هذه هي النهاية ليوليوس قيصر ، وقد نظر الى الأمر كله باستخفاف عندما وصل الى الشاطئ عند سلم القصر وهو يقطر بللا .

ومهما يكن فقد كانت هزيمته ضربة شديدة عليه وتحقق هو وكليونباترة ، والحسرة تملأ نفسيهما ، أنه بعد فقدته للكثيرين من رجاله القليلين نسييا ، لم يعد تحت امرته من الجنود الا ما يكفي للدفاع عن النفس . ومن المؤكد أنهما لن يكون في استطاعتهما معاودة الهجوم أو اكتساح أسطول العدو . وكانت خطتهما هي اكتساب الوقت انتظارا لامدادات أكبر من المنتظر وصولها قريبا .

وجاءت الأنباء الى قصر أن بعض زعماء المواطنين في الاسكندرية قد أخذوا يضجون من استيلاء أرسينوى ومن قائدها جانيميد ، وطالبوا بضرورة التصريح لبطليموس بأن يغادر القصر ويحضر اليهم حتى يمكن التغلب على سلطة أرسينوى وجانيميد والقضاء على مطامعهم .

وجاء بطليموس يطلب من قيصر أن يسمح له بالذهاب ، وبكى
لفكرة مفارطته صديقه وحاميه وأخته كليوباترة ، وزوجته العزيزة ••
ولكن ربما كان من الواجب عليه أن يذهب •

وكان كل من قيصر وكليوباترة يعلم أنه خائن مستتر ولهذا سرا
للتخلص منه ، ومهما يكن فقد تظاهرا بأنهما قد خدعا بدموعه ، ومثلا
دورهما مثلما مثل هو دوره ، وقد علق على ذلك أحد المؤرخين
المحدثين « وبمثل هذه الخفة بدأ الملك الحرب ضد قيصر وبدت
دموعه فى المقابلة كما لو كانت دموع الفرح » •

وكشف بطليموس عن خطته فى الحال • وقد برهن وقتئذ ، وقد
أصبح مسئولا عن نفسه ومستقلا عن أوصائه ، أنه كان على جانب
من الهمة والخبرة الحرية فلما تسلم قيادة الجيش من جانيميد ، أرسل
جزءا منه ليقف امدادات قيصر الجديدة من التقدم نحو الاسكندرية،
وأرسل الباقي فى فرع النيل الكانوبى ليقطع على عدوه طريق
الاتصال بهم •

ولكن عبقرية قيصر الحرية كانت أعظم من خطة بطليموس • فقد
ترك كليوباترة فى القصر ورافق قواته ليهاجم بطليموس قبل أن تنجح
خطته • وكان قيصر قد استطاع تدين الاتصال بالامدادات التى كانت
فى طريقها اليه فلما هاجم بقواته التى معه والامدادات الجديدة حصن
كانوب بقوة شديدة لم يجد جنود بطليموس الذين كانوا يدافعون
عن الحصن بدا من التسليم • وفى أثناء الذعر الذى تلا هذا الهجوم
وقع بطليموس فى الماء ومات غرقا •

وكان قيصر متلهفا على أن يخبر كليوباترة بالأنباء ، وفى الوقت
ذاته يضيق على أرسينوى الخناق ويأخذها أسيرة قبل أن تسمع بهزيمة

الاسكندرية وتولى الأدبار ، فقد امتطى جوادا وأسرع به عائدا الى
المدينة تاركا الجند المشاة يسرون على مهل •

ودخل قيصر في موكب انتصاره من البوابة الكانوية ، ليجد أن
أنباء انتصاره قد سبقته اذ قابله هناك وفد من المصريين جاءوا يحملون
تمائيل آلهتهم لتتشفع لهم وتحصل على عفوه • ولكن لا عفو عن
الخائنة أرسينوى ، وقد أرسلها قيصر الى روما أسيرة لتزيد من فخامة
موكب نصره في المستقبل •

حتى ولو توسلت كليوباترة من أجل أختها فانه لن يخلى سبيلها،
ولكن لم يكن لدى كليوباترة أى ميل نحو أرسينوى • كما أنها لم
تخف شعورها بالارتياح عند سماعها أخبار موت بطليموس • ولم يعد
هناك بعد الآن من يحول بينها وبين تاج مصر المزدوج • ولم يضيع
قيصر وقتا فى أن يعلن على الشعب ، انه باسم مجلس الشيوخ الرومانى
سيجعل وصية الملك بطليموس الحادى عشر نافذة المفعول وأنه قد
أقام كليوباترة الوريثة للعرش لتحكم بالاشتراك مع أخيها بطليموس
الذى كان على قيد الحياة والبالغ من العمر عشر سنوات ، باعتباره
زوجا لها ، طبقا للتقاليد المصرية ويحكمان باسم كليوباترة السادسة
وبطليموس الثالث عشر • وقد بر قيصر بكلمته •

لقد هام قيصر حبا بكليوباترة وكانت حاملا بطفل منه •• وسوف
يكون ولدا بالطبع ، لأن ايزيس ستهتم بهذا الأمر • وقد خفض مبلغ
الدين الذى كان جدها ووالدها قد استدانه وسيكون فى قدرتها أن
ترده دون أن تثقل كثيرا كاهل الشعب • ولكن أهم من كل ذلك ،
فقد اعترف علانية باستقلال مملكة مصر التى كانت تحبها • وأخيرا ،
وقد اجتازت كل العواصف وتخطت كل العقبات ، وصلت سفيتها - فى
أمان - الى ميناء العود الحميد ، الى ملاذها من الطمأنينة والرضى ، حق

عليها أن تقدم شكرها الى ايزيس في مغارتها المطلة على البحر ، والى
سيراييس الاله الحارس للاسكندرية (الالهين زيوس الاغريقى
وأيس المصرى متحدين) فى معبده الفخم المشيد فوق التل .



كانت الشواطىء الرملية لبحيرة مريوط مزخرفة بالألوان الزاهية
عقب الموسم القصير للأمطار الشديد فى فصل الشتاء ، اذ تزدهر
الأزهار ، حيث كان لا يوجد من قبل الا رمال قاحلة فقط ، أزهار
الخشخاش ذات اللون الأحمر القانى وفى وسطها بقعة سوداء ،
والأقحوان الذهبى ، وسنابل البروق الصفراء وزهور الريح الرقيقة
وزهور السوسن والمنثور الزرقاء الصغيرة جدا ، انها كلها نضيرة
ومشرقة ولكنها سرعان ما تجف وتختفى فى حرارة الصيف عند
قدومه .

اليوم يرمى البدو من العرب ، قطعان أغنامهم وخرافهم فى هذه
المنطقة ويحصدون محصولهم القليل من الشعير بمعاونة ابلهم وحميرهم
التي تحرث الرمال لهم ، وقد تعلم الحريصون منهم أن يزرعوا ويعنوا
بأشجار التين ويبيعوا هذه الفاكهة الحلوة الى تجار المدينة . وكانت
المنطقة فى أيام كليوباترة غنية بالتين والزيتون والعنب والقمح الفاخر
وكان يقوم بزراعتها جماعات من المستوطنين الاغريق المحبين لجمع
المال ، والذين كانوا يخزنون مياه الأمطار الثمينة فى خزانات مبطنة
بالأحجار وقد ماذ الرمل والطين معظمها الآن ، ليستعملوها خلال
الشهور العشرة التى ينعدم فيها المطر . ولم يكن يعيش هناك فى ذلك
الوقت بدو رحل يتنقلون بقطعانهم من الماعز المخربة التى تأكل أوراق
النباتات . والآن وقد انتهت الحرب أصبح فى استطاعة قيصر أن
يستريح وكان يمكن لكليوباترة أن تريح الزيتون الفضى والجذوع

البيضاء المحملة بالتين الأخضر ، وسنابل القمح النامية المبتجئة ذات اللون الأخضر الضارب الى الصفرة ، وثمار الغنص الصغير الحجم ، ولكن بالرغم من كل ما بذله المستوطنون في أعمال الزراعة فان الزهور البرية تأسر العيون بجمالها المتألق .

وكانت تود أيضا أن تربه حقول قصب السكر والكتان والذرة والبطيخ ونخيل البلح وشواطئ النيل المغمورة بالطمي والتي تظل جافة الى وقت الصيف عندما يعود الفيضان في دورته مرة أخرى ، وتربه كذلك الناس وقراهم والمعابد والأهرام : وكل ما حوته بلادها العتيقة .

وكان واجبه يناديه ليعود الى روما ، ولكن قلبه وبهجة روحه كانت مرتبطة بكليوباترة في ذلك الوقت ، كما كانت تحتاج الى وجوده لسبب آخر . فان زوجها الملك الصغير بطليموس الثاني عشر كان قد توفي . وقد أصبح واضحا أنها حامل ولم يعد خافيا أن الأب هو يوليوس قيصر . فمن الضروري اعلان زواجهما منه في حضرة الاله آمون طبقا للتقاليد المصرية . فاذا كان طفلهما ولدا فهو الفرعون المقبل ، واذا كانت بنتا أصبحت الوريثة لتاج الوجهين المزدوج ، وسوف يؤكد هذا الاجراء شرعية وألوهية الطفل .

وبما أنها كانت تحكم فعلا كملكة فقد يتجتم عليها أن تتبع أيضا عادة أخرى قديمة وذلك أن تقدم نفسها الى شعبها في طول البلاد وعرضها وأن تقدم القرابين الى الآلهة في هياكلهم المقدسة المتعددة ، وعلى هذا وكما فعلت نفرتيتى وأخناتون ، وغيرهما من الأزواج ، بدأت هي وقيصر رحلتها لشهر العسل على صفحة النيل .

وأبحرا على السفينة الملكية ، وكانت سفينة ضخمة ذات طابقين

ويبلغ ارتفاع صاريها مائة قدم ، ذات قلع من الكتان له حافة أرجوانية مطرزة وصفين من المجدفين ليقوموا بالتجديف اذا وقتت الرياح التى تهب من الشمال • لقد كانت أشبه بقصر مصغر وكانت مجهزة بقاعة للمآدب مبطنة جدرانها بوزرات من خشب الأرز والسرو ومزينة بالزخارف المصرية ذات الألوان الذهبية وغيرها من الألوان الزاهية ومزودة بأثاث اغريقى ، وبها أماكن فاخرة للنوم وأماكن غير مسقفة لضجعة مسترخية فى ساعات الصباح وأوقات بعد الظهر التى تحلو فيها الراحة ، بالإضافة الى حديقة صغيرة بها محرابان أحدهما للإلهة فينوس والثانى للإله دبونيسوس ، الهى الحب واللهو •

وكان يرافق السفينة أسطول مؤلف من أربعمئة سفينة محملة بالجنود الرومانيين اذ كانت لدى قيصر فكرة التوغل الى ما وراء حدود مصر بعد شلال النيل الأول فى بلاد النوبة والى ما وراء البلاد التى تعرف اليوم بالسودان • ولكن الشلال عاق تقدم الجنود الى حد عظيم فاضطرت الحملة الى تغيير اتجاهها وأبحرت عائدة فى النهر مرة أخرى •

وعلى أى حال فقد حققت كليوباترة غرضها ، ففى مدينة أرمنت — حيث كان فراعنة الدولة الحديثة يتوجون كما جرت التقاليد — قبل الكهنة الاعتراف بقيصر زوجها لها وباعتباره الشخص الذى تجسد فيه الاله آمون على الأرض • وعلى جدران المعبد الذى بنى باسمها وهناك نقش يمثل زواج كليوباترة مع آمون الذى رسم فى صورة انسان برأس آدمية ملامحه تطابق ملامح قيصر ، وله قرنا كبش ملتويان •

واعتبر المصريون هذا الحادث ، وهذه السنة سنة ٤٧ ق م • بداية حكم كليوباترة وأرخت كل الحوادث التى تلت ذلك من

تلك السنة • وقد ذكر في مقبرة أحد الأشخاص أنه قد توفي في السنة العشرين من زواج كليوباترة بآمون - قيصر •

وعندما مرا بأمجاد طيبة التي حل بها الخراب بعد أن كانت العاصمة المتشامخة لمصر منذ أمد قريب ، لاحت لكليوباترة فكرة بناء معبد جديد فاخر باسمها للالهة حتحور التي كان الاغريق يسمونها بالآلهة فينوس فقد كان الحب والجمال يسيطران على حياتها في ذلك الوقت ، ومن المناسب أن تعبر عن شكرها للالهة التي جلبت لها هذه السعادة • وراق لها موقع دندرة على جانب النيل الحبيب ، الى الشمال من طيبة • وكان هذا المكان مقدسا لحتحور وسوف يقوم الكهنة بطقوسهم الكهنوتية هناك بسرور ، هم والكاهنات أيضا •

ويقوم معبدها هناك الى يومنا هذا وهو أكثر المعابد البظلمية حفظا في كل أنحاء البلاد وأجملها ، وتوجد على جدرانه نقوش بارزة تخلص اللب ترى فيها الالهة حتحور وقد حمل الكهنة تماثيلها داخل ناووس لتمتع عينيها برؤية الشمس وتراقفها كاهنات يسكن بالأغصان المورقة وأكاليل الزهر لحتحور « الهة الزهور » • وفي نقوش بارزة أخرى نرى مناظر قصة موت وبعث أوزيريس ممثلة بكهنة يقومون بدور أشخاص تلك القصة ويلبس بعضهم أقنعة ورءوس حيوانات ويسيرون في موكب تكريما لذلك الاله •

وعلى الجدار الخارجى نرى رسما هو أصدق صورة وصلت إلينا لكليوباترة • وهى ترتدى التاج الخاص بالالهة ايزيس ويتكون من قرص الشمس والقرنين ويقف معها ابنها قيصرون • ووجهها مكتنز ولها عينان واسعتان تبعدان قليلا عن بعضهما البعض ، وقد أطأت شرطة الكحل من اتساعهما ، ولها فم صغير دقيق وترتفع الشفة قليلا الى أعلى ، ولها أنف دقيق معقوف • ويشبه وجهها الى حد كبير وجه

أيها بطلموس أوليتيس ، كما نستدل من تمثاله الذي يوجد الآن
بالمتحف البريطاني .

ولم يمس وقت طويل على عودتها الى الاسكندرية حتى وضعت
طفلها ، وكان ولدا ، فقد استجابت ايزيس لصلواتها . ومن يدرى
قربما يصبح هذا الطفل الحديث الولادة يوما ما سيد العالم ! كما حلم
الاسكندر أن يكون ، وأن يحكم كلا من مصر وروما في امبراطورية
واحدة عظيمة تضم الشرق والغرب . وعلى أى حال فقد كانت عاقلة
واحتفظت لنفسها بهذه الأفكار . فان قيصر كان رومانيا ، مواطننا في
دولة تحكم بواسطة مجلس للشيوخ . أما مطامحه الشخصية فقد كانت
هى وحدها التى تستطيع أن تخمنها ، أما فى أعين الشعب وأمام الناس
فقد كان خادم الجمهورية . أعظم خدامها وأقواهم ، ولكنه خادمها
أولا وأخيرا . وكان من المستطاع أن يكون قنصلا أو دكتاتورا ،
ولكن فكرة الملكية لا بد أنها بغیضة اليه . ولكن هل كانت بغیضة
حقا ؟ . انها لم تكن متأكدة تماما من هذه النقطة .

وأخيرا أصبح له ولد . ولكن قيصرون كان ابنا غير شرعى فى
نظر القانون الرومانى . كان قيصر متزوجا من كاليورنيا ولكن زواجه
المصرى كان فى أعين مجلس الشيوخ والشعب الرومانى مجرد علاقة
فقط . لقد أحب كليوباترة ولم يحب كاليورنيا التى لم تمنحه أبدا
ورثا . فمن المؤكد أنه سيطلقها عندما يعود الى روما ! وكان متشوقا
للرحيل الآن ، وفى طريقه الى وطنه يجب أن يحارب الملك البارثى الذى
شق عصا الطاعة فى آسيا الصغرى . وستدعه يسافر دون أن تتذمر
مطسنة لهذه الفكرة . ولكن ما الذى يحدث اذا تردد ؟ حسنا فانها
بمجرد انتهائها من توطيد حكمها هنا فى مصر ، واصلاح النظام الادارى

بعد ائمال أئها والحرب الأهلية بين أفراد الأسرة سوف تتبعه الى روما وتخوض المعركة مع منافستها .



رحبت شمس يونيو الايطالية الدافئة والنسيم العليل الذى يهب فى ذلك الشهر ، بمقدم كليوباترة الى روما فى عام ٤٦ ق.م. أى بعد رحيل قيصر بعام تقريبا . وقد جاءت فى الظاهرة باعتبارها ضيفة رسمية لتشاهد احتفالات انتصار قيصر ، ولكنها كانت تعلم فى قرارة نفسها أنها قد أتت لتحقيق حلمها . وجاء معها أخوها الأصغر زوجها بطليموس الثالث عشر والطفل قيصرون وازدحم الشعب الرومانى فى الشوارع ليشاهد الملكة الشرقية الأسطورية وهى تمر أمامه . وكان كل فرد يعلم أنها كانت قد غلبت بطلمهم بتعويذات سحرية وجملته يتجرع جرعة حب مزجه السحرة المصريون .

وتوقفت الشائعات ، على أن منظر موكب الملكة ومعها من الأرقاء الافريقيين السود ، والموظفين المصريين المتحجين ذوى الأردية الطويلة والشعر المستعار الطويل ، والأعلام الغريبة التى يحملها الجنود ذوو النقبات القصيرة المزينة برءوس الحيوان أنوبيس وحورس وأيس وآمون ، لم تفعل كل هذه شيئا لتبديد الشعور الذى كان يحسه الشعب بأن ذلك المظهر كان مظهرا أجنيا وغريبا عنهم .

وكانت الملكة تبدو جميلة وهى محمولة فى محفنتها ، متوجة بعصبة من الذهب وتاج رأس الأفمى « سيدة الحياة » فوق جبينها ، وكان يجلس فوق ركبتيها طفل ذهبي البشرة ، كانت ملاصقه هى ملاصق قيصر دون شك ، ولم تكن هناك حاجة لأى برهان آخر لاثبات نسبه .

كان ترحيا ملكيا لسيدة ملكية • فقد انتظر قيصر ، القنصل والدكتاتور ، مع جميع أعضاء مجلس الشيوخ وقضاة الشعب ليحيوها في الفوروم باسم الجمهورية الرومانية •

وأخيرا وبعد قرابة عام أصبحت كليوباترة مرة أخرى هي وقيصر وجها لوجه • ولم يكن هناك شيء فاتر أو جاف في ترحييه برغم كل رسميات المناسبة ولكن لم يحدث أى طلاق بعد • فقد كان لا يزال متزوجا من كاليورنيا وكان ابنهما لا يزال ابنا غير شرعى في نظر القانون الروماني • وكان يجب عليها ألا تدع أحدا يرى خيبة أملها اللهم الا أوليمبوس ووضيفاتها اللاتي كن موضع ثقته أمام قيصر وأمام روما ، فيجب أن تظهر كملكة مصر المحبوبة المرغوب فيها والأم الفخور بالابن الوحيد لقيصر وملكة دولة مستقلة قد أتت لزيارتهم •

ونزلت كليوباترة في فيلا فاخرة عبر نهر التير أعارها لها قيصر نفسه وتقع في حدائق ضيعته الخاصة ، أما هو وكاليورنيا فكانا يعيشان في المقر الرسمي للدكتاتور في المدينة • وقد هيات كليوباترة نفسها في تلك الليلة لمقدمه ، فكحلت أهدابها وصففت شعرها وأبدلت ملابسها بملابس شفافة ، وعطرت نفسها بكل العطور الزكية الجميلة الرائحة المجلوبة من الهند وبلاد العرب ، وبعد أن تسلب لبه ، فسوف تكشف له تدريجيا عن أفكارها في الملكية وتبث فيه رأيها في موضوع اقتسام العالم بينهما •

وقد أصبح ذلك الآن جزءا من التاريخ ، فان أحلامها لم تتحقق • فقد نجحت مرة أخرى في ادخال البهجة على نفس حبيها ، ولكنه قد ازداد في تقدمه في السن وازدادت رأسه الصلعاء صلعا وأصبحت شفاته النحيلتان أكثر نحولة • ولكن عينيه الثابقتين هما فقط اللتان بقيتا على بريقهما • وكان يأتي في كل ليلة ليزورها ويستريح بين من

يكون معها من مجبى السرور • وقد اوصى اشهر مثال في ذلك الوقت ليعمل تمثالا لها يمثلها في صورة فينوس جنتريكس ليزين به عمودا في المعبد الجديد الذى بناه لهذه المعبودة في الفوروم • وقد أطلق سراح أختها أرسينوى اكراما لها بعد أن سارت مصفدة بالأغلال خلف عربته في احتفالات انتصاره ، ولكنه لم يطلق كالبيورنيا أو يتحدث الى كليوباترة في موضوع زواجهما زواجا رومانيا •

وجعلت كليوباترة من الفيلا وحدائقها الغناء ، منتدى كان يرتاده أمهر وأذكى الرومان وأكثرهم أناقة ليروها ويتمتعوا بكرمها المفرط وحصافتها وعلمها • ولكن الزوجات - اللاتى لم تكن تدعوهن - قد استبدت بهن الغيرة والحقد على « المصرية » وقلن عنها أنها متعجرفة ، وقد أيد هذه الحقيقة المؤرخ المعاصر شيشرون الذى كان يمتنها • لقد كانت طموحة ، وهذه حقيقة لا يمكن انكارها ، ولم تكن على درجة كبيرة من الحرص فى أقوالها وأفعالها ولكنها كيف تكون على غير هذه الصورة اذا راعينا النشأة التى نشأتها ؟ وقلن أيضا بأنها كانت تفسد أخلاق أزواجهن وأخوانهن وأبنائهن • ولكن ذلك كان فرية يجانبها الصدق • فعندما كان قيصر حيا كانت مخلصنة له كل الاخلاص ، وبالرغم من أنها كانت ترى كثيرا الضابط الوسيم مارك أنطونيوس الذى وجدته جذابا كفتاة ، فلم يكن بينهما شىء سوى الصداقة •

ولكن الأمر الذى كان أكثر خطرا على قضيتها ، هو أن الرجال كانوا قد بدءوا يشكون فى أنها كانت تبث أراء غريبة فى الدكتاتور الذى كان قد أخذ يستحوذ على كل السلطة لنفسه • وكان من بين الرجال الذين أتوا الى الفيلا ، بروتوس ، الذى عبس فى وجهها ، وأكتافيوس الصغير صهر قيصر • يا له من شخصية سمجة كئيبة ، لقد

تمنت بعد زيارته ألا تراه أبدا مرة ثانية • ان حب قيصر له لا يمكن تفسيره •

وهكذا مر عامان ، لعبت فيهما ملكة مصر دور الملكة في مجتمع كله من الرجال في فيلا خاصة عبر نهر التيبر ، ومصر بلا حاكم ، الى أن كان يوم ١٥ مارس من سنة ٤٤ ق.م • عندما امتز العالم لمقتل أعظم رجل فيه لمحاوخته فرض حكم مطلق لم تكن روما قد تهيأت له اذ ذاك ، فقد حدث الصدام بين عبقريته وبين التقاليد الرومانية الراسخة فتحطم قيصر في ذلك الصدام •

لقد طعن قيصر في مجلس الشيوخ ووجه الطعنة القاضية الى بروتوس حبيبه العزيز والذي كان يعتبره ابنه - « وأنت أيضا ، يا ولدي ! » وقد ذاعت الأنباء خلال المدينة « لقد قتلنا الظالم » وكان الناس يسمعون هذا الهتاف من المتآمرين وهم يجرون في الشوارع ملوحين بسيفوفهم وخناجرهم التي كانت لا تزال مخصصة بدماء قيصر • ولكن أحدا لم يحيمهم أو ينضم اليهم • وقد بهت سكان المدينة وحملتهم المصيبة على التزام الصمت •

وعندما انسل أحد غبيد القصر الى داخل الفيلا وأخبر كبير باثرة بالأنباء المزعجة أدركت أن حلمها بالامبراطورية العالمية التي يقتسمانها معا قد تبدد واختلطت أحزانها الشخصية بالفرع الذي أصابها من النبأ • لقد فقدت حلمها وان لم تكن قد فقدت كل شيء مثلما فقد قيصر كل شيء • لقد كانت لا تزال تتمتع بالحياة والشباب وبيلادها وابنها • وكانت على ثقة من أن قيصر قد عين في وصيته قيصرون ورثا له •

واختفى بطليموس الثالث عشر بهدوء عن مسرح الحوادث في

أثناء الهرج الذي تلا الكارثة ، وأقامت كليوباترة الى جانبها ابنها وأعادت تسميته باسم بطليموس قيصر . ولاشك في أنه سوف يرث الدكتاتورية التي كانت لأبيه في أثناء حياته ويزيد عليها تنصيبه ملكا على مصر تحت وصايتها . هكذا كانت تعزى نفسها ولكنها لم تدرك أنه في اللحظة التي توقف فيها قلب قيصر عن الخفقان ، ظهر الى الوجود عالم جديد ، وأن العالم القديم قد مات بموت قيصر وأنه لم يكن في هذا العالم الجديد مكان لها أو لابنها في خارج مصر .

وحضر مارك أنطونيوس بعد ذلك بليال قليلة ليخبرها بوصية قيصر . وكان قد كتبها قبل ذلك بستة أشهر كما لو كان لديه الهام باقتراب منيته فجأة ، وأودعها لحفظها عند الراهبات العذارى « النستاليا » وقد حملن الوصية بعد موته الى دار مارك أنطونيوس وفضت وقرئت في حضور الشهود .

قسم قيصر أملاكه بالتساوي بين سكان روما وأقربائه الذين كان من بينهم أنطونيوس الذي كان قريبا له من ناحية والدته ، وعين صهره أكتافيوس كوريث له وابنه بالتبني ،

« وماذا عن ابنه الحقيقي .. وماذا عنى ؟ »

« انك غير مذكورة في الوصية على الاطلاق يا صاحبة الجلالة » .

« لا بد أن هناك وصية أخرى » .

« لا توجد وصية أخرى » .

ما الذي أنر على قيصر حتى أصدر هذا القرار القاسي ؟ لاشك أنها كاليورنيا ، ولكن الآن وقد أصبحنا نقرأ تلك الحوادث المشؤمة بعد مدة طويلة من وقوعها ، فانه يبدو واضحا أن كاليورنيا لم يكن

لها دور في ذلك ولكن رومانية قيصر هي التي أخذت مكان الصدارة .
يجب أن يبقى مصير روما في أيدي الرومان وليس في أيدي من تختلط
فيهم دماء الاغريق والمقدونيين والمصريين . لقد رفض يوليوس قيصر
في هذه الوصية التي كتبها بنفسه حلم كليوباترة في امبراطورية عالمية
تضم الشرق والغرب ، وركز فقط عينيه تماما على الغرب ، وقد نجحت
كليوباترة في شيء واحد فقط وهو الاحتفاظ بمصر دولة مستقلة .
ولكنها فشلت في كل ما عدا ذلك . ولم يكن أمامها شيء الا أن تعود
مع ابنها الى الاسكندرية .

على شاطئ نهر التايمز بلندن تقوم مسلة كليوباترة ، كذكرى
لهيام غير وجه التاريخ وقضية عظيمة خسرتها صاحبها . وتبدو هذه
المسلة كل يوم أقصر مما كانت عليه اذا قورنت بالبنائات الخرسانية
الحديدية الضخمة التي ترتفع حولها ، وقد تحول لون الجرانيت
بما عليه من رموز غريبة محفورة ، الى لون أسود داكن بفعل
الدخان والضباب ، ولم تعد قممها الهرمية ، وهي تواجه شمس بلاد
شمالية ، تعكس الأشعة الذهبية كما كانت من قبل .

وهذه المسلة واحدة من اثنتين كانتا قائمتين في فناء معبد الشمس
في هليوبوليس وقد قطعت أصلا من محجرها في أسوان قرب الشلال
الأول للنيل ونقشت بالكتابات الهيروغليفية التي تسجل الأعمال
العظيمة التي قام بها الفرعون تحوتمس الثالث ذلك الجندي العبقري
الذي كان الزوج الثاني لحتشبسوت . وكانت كليوباترة قد أخذتها
من هليوبوليس لتقيمها في فناء المعبد الجديد الذي كانت تشيده في
الاسكندرية وسمته « قيصريوم » تكريما لزوجها الجديد وحبيبها
الجديد مارك أنطونيوس . وهناك ظلت هذه المسلة مع أختها أمام
المعبد الفخم تحيط بهما الأعمدة الرخامية البيضاء في أجمل مدينة

فى العالم الهللىنىستى • لقل شاهل هلا المبلل الرلل الذى شىل تكرىما له وهو ىرقلل الى قلة اقلصاره ثم رأى فشلل وسقولل ، وقل أذل معل المرأة والمملكة الللى ترك لها كل شىء وأضاع كل شىء • ثم سقلل المسئلة أىضا وبقلل ممللة بىن ألال المبلل والبىول الطىنىة فى الملىنة العربىة الللى أنشئت حولها قلى حملل فى النلألة بعللا عبل البحر لقلل منقلصة مرة أخرى فى بلاد بعىلة للا • أما الللانىة فقلوم الآن فى نىورلك •

لقل أصبح اللل الذى أقلل هله المسئلة لقللىله أسقورة من الأساطىر تناولها الشعر ولللها مثلما للل هىام هلوىز وآبالرل ، أو لل لرىسلان واىزولل أو لل لانسلول وللىنىفر ، ولكن ما هى الوقائع الصللىلة ؟

عائل كللىوبالرة ومعها قىصرون الصلفر الى وطنه مصر بعل موآ يولىوس قىصر وألزلل لبالر للىل البلاد • ونظمل الضرائب واهلمل بالزراعة والرل وقول لسلور القنوال الممللة • وبالرغم من الملاءة الللى سببها انللفاض النيل الذى أبى أن ىرقلل أعلى من منسلوب « ذراع الموت » وهو منسلوب ملىاس اللل الذى كان ىنبىء عن لللوآ الكارثة - فقل لقلل قللرا من الرلاء والطمأنىة للبلاد • كما أن اعقللها فى نفسها بأنها اىزىس ، أعالل للناس قلقلهم بأنفسهم وایمانهم الللىنى • وكائل سىاسلها الللى سارل عللها ، وهى منل السلطة الى المصرىىن الوطنىىن بللا من قصرها على المسلقونلنىن من الاغرىق والمقللوئىىن ، سببا فى وضع لل للقللل المزملة فى مصر العللا ، واكلسبل من ملللة الناس وللائهم أكثر مما لملل به أبوها أو لللها من قبل •

وقل عبل الأسقف للىا النىقى ، وهو كابل مصرى من القرن

السابع الميلادي ، عن الشاعر المصرية نحوها بقوله « كانت الملكة كليونباترة امرأة ممتازة لصفات الشخصية وقوة أعمالها • ولم ينجز أحد من الملوك من أسلافها مثل تلك الأعمال العظيمة التي أنجزتها • لقد عملت كل شيء بسخاء لمصلحة البلاد وقد قامت حتى وقت وفاتها بأعمال عظيمة كثيرة عديدة وأنشأت مؤسسات هامة (١) •

فقد زادت من تجميل الاسكندرية وأعدت تكوين مكتبة الميوسيون بعد أن احترق الكثير من كتبها في هجوم قيصر على الأسطول المصري • وشجعت العلماء والمشتغلين بالعلوم الكيماوية والرياضيات والفلسفة ، على أن يكرسوا أنفسهم مرة أخرى لأعمالهم ورعت فنون التصوير والفسيفساء والنسيج • وفي أيام حكمها بلغت تماثيل الاسكندرية الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق المطلق والتي كانت توضع في قبور الأحياء كقرايين شكر للآلهة درجة عالية من جمال وروعة الصناعة كما شجعت أيضا الصناعات المحلية واهتمت لدرجة كبيرة بتطور الكيمياء : السموم ، والروائح ، والعطور فان كل هذه الأشياء لم تغب عن دائرة فكرها المتوقد •

وقد اشتهرت — حتى بين حاسديها من الرومان — بقدرتها على صنع الذهب ولكن ذلك هراء ولو سمعت به لكانت أول من يهزأ به ، احتقارا له ، وعلى أي حال فانها لم تكن بحاجة الى ذلك • فقد كانت بلادها ذات موارد كثيرة وكان لديها كنز البطالمة العظيم الذي كانت تستطيع أن تأخذ منه متى أرادت ومن المحتمل أنها كانت تستطيع أن تعيش حتى آخر أيام حياتها على هذه الصورة قانعة بأن تحكم كملكة مطلقة على مملكة مستقلة والى جانبها ابن ليخلفها على العرش • ولكن تيارات التاريخ كانت تجري في اتجاه مضاد ،

Zotenberg, H., Chronique de Jean Evêque de Nikiou.

(١)

ولا يمكن أن يستمر طموحها وحلمها وقتا طويلا • ويطغى البحر ببطء على مدينة الاسكندرية ولهذا فمن يرد البحث عن قصرها وعن الميوسيون يجب أن يبحث عنهما تحت الماء وهكذا كانت روما قد أخذت تطفئ أيضا على مصر وتقترب منها ببطء •

لاحت أمام عيني كليوباترة فرصة أخرى لتقتسم حكم العالم • ان اقتسام السلطة بين شخصين أمر كثير الصعوبة ، فقد أصبح مارك أنطونيوس ، وأكتافيوس ، ابن قيصر المتبنى ، والوارث لحكمه ، متنافسين وأصبح التصادم بينهما لا مناص منه • وقد صممت كليوباترة على أن تظل مصر على الحياد وألا تساعد أحدا من الجانبين • ولكن أنطونيوس الذي كان في حاجة الى المجد والثروة من أجل أغراضه الخاصة للوصول الى ما ينشده من قوة ، لم يكن ليركض مملكتها الغنية وشأنها • وعندما استدعاها لتمثل أمامه في طرسوس بآسيا الصغرى ، كان هدفه أن يبين للعالم أن مصر كانت مملكة تابعة لروما مثل سورية أو مملكة هيروود (اليهودية في فلسطين) •

وذهبت كليوباترة ولكن برضاها التام كما تريد ، ففتحت ما لديها من كنوز واستدعت أمهر الصناع في الذهب والفضة والأحجار الكريمة والصباغة والستائر المنسوجة •• كما دعت أعظم طهااتها ومقدمي الشراب واصططعت أجمل الغلمان والبنات ليقوموا بخدمتها •

وقد أخذ شكسبير الوصف النثرى للمؤرخ بلوتارك عن وصولها وكتبه شعرا :

كانت السفينة التي أقلتها أشبه شيء بالعرش اللامع

تلمع فوق الماء ، وكانت مؤخرتها من الذهب المطروق

وقلوعها أرجوانية اللون ومضمنة بالروائح العطرية الى الحد
الذى جعل الرياح سكرى بالحب معهم . وكانت المجاديف من الفضة
وكانت تضرب صفحة الماء على نفحات الناي ، وجعلت
الماء الذى ترتطم به يسير خلفها بسرعة أكثر
كأنما هام بضرباتها . أما هى نفسها
فانها تزيد وتعلو عن كل وصف ، كانت تضطجع
فى سرادقها ، المصنوع من قماش من خيوط الذهب من نسيج
تزيد فى صورتها على فينوس ، حيث نرى
الصناعة قد قامت فى جمالها على الطبيعة وعلى الجانبين منها
وقف غلمان رشيقون ، بخدودهم غمازات ، وكل منهم يشبه كيوييد
وهو يتسهم

ومعهم مراوح ذات ألوان متعددة ، كأنما كان نسيها الذى ترسله
يزيد من حمرة الوجنات اللطيفة التى كانت ترطبها
ثم تعود فتلغى ما عملته ، لتعمله من جديد

وكانت كليوباترة عندئذ قد بلغت التاسعة والعشرين وكانت فى
ذروة جمالها وتقاطر أهل المدينة الى أرصفة الميناء ليروها ، وأرسل
أنطونيوس رسالة ترحيب بها ودعوة لتناول العشاء معه فى تلك الليلة .
وكان ردها على ذلك أن وجهت اليه دعوة منها فقبل أنطونيوس
الدعوة وكان ذلك نصرا لها .

وفى العشاء قدموا لهم أفخر الأطعمة والأنبذة على صحاف
ذهبية وهيأت كليوباترة نفسها لكى تخلب لب ضيفها القوي . وكانت

زبنتها وعطرها وملابسها المغربية ، تهدف الى فتنته وخلق له وكان على جمالها وكياستها وصوتها الحنون أن تقوم بالباقي •

ولم يكن أنطونيوس يمتنع عن شرب الخمر مثل قيصر بل كان سكيراً مفرطاً فاستمتع بلذة الطعام الفاخر • وكانت هي أيضاً على صواب عندما قدرت أنه سوف يبهز نظريه ما يراه من تلك الفخامة المبهرة التي تحيط بها وذلك الاسراف في الأدوات المنزلية والأطباق الذهبية التي قدمتها له بعد الانتهاء من العشاء والستائر الثمينة ، وترى الشرق الذي كان لا يستطيع أن يقاومه جندي روماني بسيط • لقد بهز كل ذلك أبصاره ، ولكن الشيء الأهم من ذلك كله هو وقوعه تماماً في حبها •

والقصة معروفة جيداً • فقد تخلى أنطونيوس عن مستقبله في روما ليتبع كليوباترة الى الاسكندرية ويستمتع بحبها • وبعد شهرين وضعت توأمين هما الاسكندر هليوس ، أى الشمس ، وكليوباترة سيلين ، أى القمر ، وكان حب الأم للأطفال سبباً في تهدئة طموح كليوباترة القلق بعض الوقت • وكانت تستطيع أن تهنىء نفسها بأنها قد أنقذت مصر مرة أخرى من روما ولكن الثمن الذي كان يتحتم عليها أن تدفعه كان مخيباً لحسن الحظ في ثانيا المستقبل •

وماذا كان من أمر أنطونيوس ؟ فقد كان لديه جنده المدربون خير تدريب على القتال أكسبتهم الحروب صلابه ، وكان من السهل عليه أن ينحيا عن العرش وأن يستولى على كنز البطالة الشهير ويعود الى روما بطلا : ان لم يكن غازياً فعلى الأقل رجلاً يجلب الثراء للجمهورية • ويكون اخضاعه للملكة المتعجرفة التي حاربت بعناد من أجل استقلال بلادها ، سبباً في جعله شهيراً الى حد كبير وسيجد أكتافيوس في هذه الحالة أنه من الصعب عليه منازعته في السيادة •

ولكنه أحب كليوباترة • لقد أحب نساء كثيرات من قبل ، ولكن هذا الحب كان الحب الأكبر في حياته • فطرح مصلحته الشخصية وراءه ظهريا واستقر في الاسكندرية ، وأغرق نفسه في جميع الملذات التي قدمتها له ملكته المتقلبة ، وكل ما كانت تستطيع أن تقدمه المدينة العالمية •

ولكن الى أى مدى أحبت كليوباترة أنطونيوس ؟ انه من الصعب أن نعرف ولكنها كانت زوجة مخلصه له أمينة أنجبت له عدة أطفال خلال السنوات العشر التي عاشاها معا ، ولكن سحر أنطونيوس كان يخفى وراءه انغماسا في الملذات ونقصا في التوازن • وعلى النقيض من قيصر الذي كان متعظا زاهدا في الطعام والشراب ، كان أنطونيوس يكثر من الشراب الى حد العريضة ، وعلى خاتم كليوباترة فوق الحجر مصنوع من الأمايست جملة صادقة وهي أن الثامل عبد لغيره • انها كانت أقوى الاثنين وأشدّهما ذكاء • لقد عرفت كيف تملّقه كما عرفت كيف تخلب له وتفتن مشاعره • فأى رجل يستطيع مقاومة اغراء المناداة به الها ، يعبد في معبد فخّم بنى خصيصا تكريما له ؟ كان هذا بعد زواجها منه ، وبعد أن طلقته في النهاية زوجته الرومانية الفاضلة أكتافيا أخت أكتافوس

لقد حطمت كليوباترة العادة القديمة المقدسة التي كانت تقضى بأن الاحتفالات بمواكب النصر الرومانية لا يمكن اقامتها الا في روما فقط ، وذلك باقامتها موكب انتصار رائع لأنطونيوس في الاسكندرية لتخلد ذكرى حملاته الآسيوية ، وقد ركب فيها أنطونيوس عربة ذهبية تجرها جياد بيضاء في لون اللبن يسير من خلفه الملوك أسرى مصفدين في الأغلال •

وقد راقب أكتافوس ومجلس الشيوخ والشعب الروماني ذلك

من بعيد وقد استبد بهم الحق والمرارة ، وأخذت تتوالى التقارير
الشيعة من ازدياد اعتزاز الملكة التى كانوا يكرهونها ويخشونها .
لقد أصبحت الاسكندرية عاصمة الامبراطورية الشرقية ، وهذا ما لم
تستطع الامبراطورية الغزية أن تقبله وتصبر عليه ، كما أنها لم تستطع
أن تسكت على معاملة أنطونيوس لزوجته الشرعية التى كانت تتحلى
بكل ما يجب أن تكون عليه السيدة الرومانية : فقد كانت امرأة
فاضلة رقيقة الطباع ، كثيرة الاحتمال ورحيمة ، وازداد الحقد العميق
فى صدر الشاب الرزين العاطفة أكتافيوس ، على عاشقى الاسكندرية
الى درجة الشر من أجل أخته .

ولم يكن أكتافيوس هو الرجل الوحيد الذى كان يكره
كليوباترة . فقد كان هيرود ملك جوديا عدوها اللدود أيضا وقد
أذاع على الملأ أنها حاولت أن تغريه .

ولكن الحقيقة أن العكس هو الصحيح . وكان أنطونيوس قد
وهب كليوباترة بعض الممالك الصغيرة التى فتحها فى آسيا الصغرى
كهدايا زفاف ، ولكنها كانت تبغى المزيد . وكانت تنمو فى وادى
الأردن ، بالقرب من أريحا حدائق البلسم الشهيرة ذى الأريج العطر
الذى كان جميع الناس فى العالم القديم وفى العصور الوسطى أيضا
يمتدحونه جدا من أجل الزيوت العطرية التى كانت تستخرج منه
وتستخدم فى الطقوس الدينية . وكان هيرود ملك جوديا محتكرا لها .

وطلبت كليوباترة من أنطونيوس : « أعطنى جوديا أيضا » . ولكن
أنطونيوس الذى كان لا يستطيع أن يرفض لها سؤالا فى العادة استبد
به العناد وأجابها « اننى لا أستطيع ، ان هيرود صديقى لى » . فلم
تنس كليوباترة ذلك ولم تغفره لهيرود . ولكن اذا لم تستطع أن تأخذ
مملكته فلا أقل من أن تأخذ حدائق البلسم .

فبعد زواجهما الذى تم فى أنطاكية على الشاطئ السورى ،
قضت هى وأنطونيوس الشتاء هناك • وعندما تركته لتعود الى مصر
بمفردها وضعت نفسها تحت حماية هيرود وقامت بزيارة حدائق
البلسم • وقالت كليوباترة فى لهجة الأمر لهيرود « انك ستؤجر لى
الحديقة مقابل مائتى وزنة من الذهب سنويا » فاستشاط هيرود غضبا
الى أبعد الحدود وبدأ يضع الخطط الشريرة لكى يقطع عليها الطريق
ويقتلها عندما تغادر بلاده • ولكن نفوذ روما كان يكتنف العالم
بصورة قوية وكان أنطونيوس هو سيده وأقوى روماني فى الشرق •

انه اذا نفذ ذلك أصبحت مملكة هيرود ومعبده فى اورشليم فى
خطر • ولهذا أرسل فى استدعاء القتلة الذين كان قد بعث بهم لقتلها
بعد الترسد لها فى الطريق ، ووافق على طلب كليوباترة الذى أثار
غضبه محاولا الظهور فى أحسن مظهر سمح ولكنه اتقم لنفسه باسما
الرومانيين قصصا كلها فضائح وافتراء ، لأنهم كانوا راغبين فى ذلك •

ولم تكتف كليوباترة بما كانت تجنيه من أرباح من زهور البلسم
الشمينة ، بل أخذت تجلب عقل وبذور البلسم الى مصر وتزرعها
بضاحية المطرية قرب هليوبوليس فى أرض النيل الخصبة • وقد نبت
النباتات ، وعندما لجأت الأسرة المقدسة الى مصر بعد أقل من نصف
قرن بعد ذلك الوقت كان أول مكان استراحت فيه بعد عبورها
الصحراء ، حسبما جاء فى الروايات المأثورة ، كان تحت شجرة فى
حديقة البلسم بالمطرية • ويدعى الكتاب المسيحيون بأن النباتات لم
تزدهر جيدا وتنتج زيوتهم المقدسة الا بعد مجيء العذراء والمسيح
ومباركتهما لها •

وحتى يومنا هذا لا يزال الناس من جميع الأديان يزورون شجرة
الجميز - أو نبتة وليدة من نوعها على الأقل - ويعلق عليها السذج

والبسطاء من المتدينين قطعاً من ثياب قديمة كقرايين شكر ، ولكن حديقة بلسم كليوباترة تزرع الآن بالذرة وقصب السكر (١) . على أن اختفاء نباتات البلسم لم يكن منذ أمد طويل إذ أن الحجاج والرحالة الأوربيين حتى أيام القرن السابع عشر ، كانوا يصفونها ويتحدثون عن الثروة التي يجنيها حكام المسلمين من تلك الحدائق .



لقد أعد المسرح للفصل الأخير من رواية حياة كليوباترة . تتابع الأحداث سريعا حتى وصلت الى قمة المأساة دون أى توقف يذكر . هل كانت تريد أن تصبح امبراطورة روما ؟ . وكثيرا ما تساءل الرومان الذين استبد بهم القلق ، صحة ذلك ، وهل كانت تهدف اليه ، خصوصا بعد أن أضافت الى اسم ابنها لقب « ملك الملوك » ؟

وها هي روما تقف ضد الاسكندرية وأكتافوس ضد أنطونيوس وكليوباترة . وأصبح من المستحيل أن يعيشا معا فى سلام ويتحتم عليهما أن يخوضا غمار حرب الى النهاية .

وقد تقابل أسطولاهما المتحاربان أمام أكتيوم على شاطئ البحر الأدرياتيكي وقد هزم أنطونيوس . أما سفن كليوباترة فانها بدلا من أن تستجمع قواها وتهب الى نجدته فقد أخطأت تفسير الإشارة وقفلت عائدة الى وطنها فزادت الى سفن أنطونيوس اضطرابا .

وتبع أنطونيوس كليوباترة ، مهزوما حاقا ، مدركا أن كل شئ قد ضاع ولا يمكن استرداده ، فلم يتحدثا الى بعضهما البعض . وظلا على خصامهما مدة ضعة شهور وكانت اتهاماته لها مليئة بالمرارة وبدا الأمر كما لو أن حبهما قد مات ، ولكن هذا الحب بدأ ينتعش تدريجيا فيما بعد . وقد قالت كليوباترة « سنعيد بناء أسطولنا ونحارب

(١) تحولت الان الى منطقة سكنية الأسف فى حى المطرية .

أكتافيوس مرة أخرى » • ولكن لونا من الكسل والضعف أصاب قوته بالشلل وبدلاً من أن يضع الخطط أخذ يشرب الخمر ويضحك مع رفاقه وبنى لنفسه خلوة على مرفأ العود الحميد ، وأخذ يقول مازحا انه سوف يعيش مثل ثيمون أثينا في عزلة عن الناس وأنه سينهى أيامه وهو يرتدى الأسمال ويأكل القواقع ! ولكن الوقت لم يكن بعد ، وكان عليهما أن يعيشا في سعادة كما كانا قبل ذلك • ان السرور يصبح عقارا مفيدا عند اقتراب الموت •

حتى الآلهة أخذوا يتخلون عنه كما تخلو عن الاسكندرية أيضا • وفي احدى الليالى سمع الناس الاله ديونيسوس الذى كان يجب أنطونيوس وأنطونيوس يحبه - يغادر المدينة فى صخب من الموسيقى والأغاني السماوية وعرف كل انسان أن الكارثة على وشك الحدوث •

وكانت كليوباترة مثل كل فرعون من الفراعنة شيدت ضريحا ، وكان بناء مكونا من طابقين فوق ربوة صخرية بالقرب من محراب مغارة ايزيس الذى أحبته وكانت تأتي لتصلى فيه منذ أن كانت طفلة • وملأت غرف المقبرة السفلى بالكنوز والذهب والأمتعة الثمينة ولبان الذكر على أمل أن تحرقها كلها معها فى النيران التى كانت تتوقع أن توقدها لتحرقها هى وأنطونيوس اذا ما أسرها أكتافيوس •

ولكن هذه الخطة اليائسة الأخيرة فشلت أيضا • فقد جاءت النهاية فى أواخر شهر أغسطس سنة ٣٠ ق.م • ذلك الشهر الحار الرطب الذى يرتفع فيه النيل • لقد وقف أكتافيوس عند بوابة كانوبوس ، وارتدى أنطونيوس عدة الحرب وخرج ليحاربه • ولما حاقت به الهزيمة مال على سيفه ليقتل نفسه ولكن هذه المحاولة فشلت أيضا ، وحملوه وهو يعاني سكرات الموت الى كليوباترة التى كانت قد لجأت الى داخل الضريح • وصحا فى قلبها كل حباها القديم

له عندما وقعت عليه عيناها وهو يعاني الموت ، فأخذت تقبله وهي تتحب وغطته بثيابها ومات أنطونيوس بين ذراعيها •

وكانت هناك فرصة واحدة أخيرة لانقاذ كل شيء : لم تكن حياتها هي الشيء الذي تهتم به في تلك اللحظة بل كانت حياة أطفالها وحياة مصرها الحبيبة • لقد سبق لها أن أنقذتها مرتين عندما تغلبت في كل مرة على واحد من الرومانيين •

ووقعت في الأسر ، ووجدت نفسها في حضرة أكتافيوس الذي استولى على المدينة ، وعند لقائهما التقت مدينتان وجها لوجه وأخذتا تتصارعان من أجل السيادة • استقبلها أكتافيوس وهو جالس على أريكة ، وكان شعرها متهدلا من الحزن وثيابها الشفافة منحسرة عنها وهي تقف أمامه • وقد بذلت آخر ما في طوقها • فهل كان في استطاعتها استمالة الشاب الرزين الى جانبها ، ذلك الشاب الذي أحست عندما زارها في روما منذ زمن بعيد أنه غبى الى أبعد حد ؟ •

ولكن « الشاب الطيب » كما كان يسمى ، أصابته صدمة عند رؤيتها ولا شيء أكثر من ذلك • فنظر اليها ببرود وأملى عليها شروطه ببرود • كان يجب عليها أن تذهب معه الى روما وأن تمشي في موكب انتصاره هي وأطفالها •

وكانت كليوباترة قد شاهدت أختها أرسينوى وهي تسير مصفدة بالأغلال خلف عربة قيصر • وهذا لن تفعله أبدا • وقد سألت المنتصر ، جميلا واحدا ، هل تستطيع أن تذهب وتسكب قربانا من الخمر على قبر أنطونيوس ؟ • وقد منحها أكتافيوس ما سألته •

وانسلت خارجة وقد تدرت بملابس ثقيلة مع تابعيها المخلصين شارميون وايراس ليصاحبها عند تقديم ولائها الأخير لزوجها الميت •

وعندما عادت ثانية الى الضريح أغلقت على نفسها الباب في الغرفة العليا من مقبرتها •

وأحضر عبد من عبيدها الى الضريح سلة من التين لتأكل منه • ومن المحتمل أنه كان بداخل السلة تلك الحية التي اختارتها أداة لموتها • وقد شك أحد الحراس في الأمر ولكن عندما اقتحم الجنود الرومانيون غرفتها وجدوا الملكة ترقد مسجاة وهي تلبس كل ثيابها الملكية وقد وضعت على جبينها تاجها الملكي المحلى برأس الحية الذهبية « سيدة الحياة » وكانت ايراس عند قدميها وقد فارقت الحياة ولم تبقى على قيد الحياة الا شارميون التي كانت تترنح وهي تسوى وضع الناج فوق رأس كليوباترة •

وقد سألها الجند الرومان وقد امتلئوا ذعرا « هل يصح ذلك ؟ » فأجابتهم « نعم • لقد أحسنت صنعا » وسقطت ميتة •

لقد ماتت كليوباترة آخر بطالمة مصر ، ميتة ملكية ، مفضلة الموت على فضيحة مخزية واستهزاء روما بها ، وقد أثبتت طريقة موتها كيف أنها آمنت كل الايمان بالديانة المصرية • ان الكوبرا مثل « سيدة الحياة » التي كانت تتحلى بها كملكة ، كانت شعار مصر السفلى ورسولة اله الشمس الذي كان ينتظر ليضم ابنته اليه لتعيش خالدة الى جواره •

وكانت كليوباترة وقتئذ في التاسعة والثلاثين وقد حكمت اثنتين وعشرين سنة وقد دفنها أكتافوس مع أنطونيوس وأقام أمام مقبرتهما تمثالين لشارميون وايراس اللتين أصبح اسماهما رمزا للولاء والتضحية وقد قتل أكتافوس قيصرين اذ أنه كان لا يستطيع أن يسمح بوجود منافس يدعى لنفسه حقوقا ، وأخذ أطفالها الآخرين ليمشوا في موكب انتصاره في روما • وأصبحت مصر ولاية رومانية •

ما الذى يظنه الصيادون ، والأطفال الذين يجلسون على الصخور
عن نهاية ربوة السلسلة وهم يلقون بشخوصهم فى مياه البحر الأبيض
المتوسط المتلألئة وخلفهم عمارات الاسكندرية المشيدة بالخرسانة
المسلحة وأمامهم قلعة السلطان قايتباى على جزيرة فاروس ، اذا
ما علموا أنه فى المكان الذين يجلسون فيه جرت أحداث احدى
المآسى العالمية العظيمة ؟ هل يسقطون من أماكنهم الخطرة ، فى مياه
البحر فرارا من الفرع الناشئ من الخرافات ؟ *

من الأرجح أنهم سوف يهزون أكتافهم استهجانا • ان اليوم يوم
طيب للصيد شكرا لله • لقد اصطاد حسان أضخم سمكة هذا العام
ولعل الصيد الطيب يستمر باذن الله • ولكن بالرغم من عدم اهتمامهم
وعدم مبالاتهم بالرغم من كل المؤلفات التى كتبت عنها والتى أطلقوا
فيها أسماء لاذعة عليها مثل « الوحش السفالك » أو « حية النيل
العجوز » فانها كما قال هوراس الشاعر الرومانى الشهير « ان العمر
لا ينال منها ولا تستطيع العادة أن تجعل صورتها الأبدية مبتدلة
مهانة » *

لقد ذمها الرومان عمدا خدمة لمآربهم الخاصة وافترضوا عليها
ونظموا دعاياتهم للنيل منها وسبها ، وعلى قرون عديدة كانت الصورة
التي رسموها لها هى الصورة التي عرفها الغرب • ولكن المؤرخ
بلرتارك بالرغم من أنه بدأ كتابته عنها متأثرا بوجهة النظر الرسمية
فانه لم يتسالك نفسه من الكتابة عنها بالاعجاب المطلق والعطف كلما
تقدم فى سرد قصتها • وقال عنها : « ان سحرها كان يجد طريقه الى
أغوار نفوس الرجال » ولكن روما لم تكن تكرهها فحسب ولكنها
كانت تخشاها كما خشيت رجلا آخر فى زمانه وهو هانيبال •

وكانت كليباترة محبوبة ومحترمة فى مصر ، بل كادوا يؤلهونها

بعد موتها • وكانوا يشيرون اليها ببساطة باسم « الملكة » وقد دفع أحد رعاياها المصريين ألقى طالت (١) لينقذ تماثيلها من التحطيم • وقد أصبحنا اليوم أكثر اقترابا من وجهة نظرهم • هل كان حلمها طموحا أنانيا فقط أم كان شيئا أعمق من ذلك ؟

وكان الناس في أيامها كثيرى القلق من جراء ما تحدثت به إحدى النبوءات بأن كليوباترة سوف « تفتتح عهدا ذهبيا تشترك فيه آسيا وأفريقيا في ابعاد الحرب •

وستترك الشرور الأرض وسينتهى النزاع بين الشرق والغرب الى الأبد ويتصافيان في عهد من العدل والحب » •

ومهما كان الدافع لها فما من أحد يستطيع أن ينكر أنها كانت قد تأثرت بروح الاسكندرية • وبالرغم من أنه لم يعد باقيا بالاسكندرية اليوم شيء من مدينة كليوباترة الرخامية فان سحرها لا يزال يعيش فيها في مياه الميناء ، في البحيرة التي ينمو فيها البردى ، وكأنها مرآة تنعكس فيها السماء الصافية ، وفي الزهور العديدة التي تلمع كالجواهر والتي تنبت بجمالها بين الرمال لفترة قصيرة ، كما فعلت ذلك لها ولقيصر ليسعدا برؤيتها منذ ألفى سنة •

(١) كان يختلف وزن الطالنت من آن لآخر ، وفي هذا الوقت كان ٥٨ رطلا — ولم تذكر المؤلفة الكتاب ومن أى معدن كانت . (المراجع)

شجرة الدر

تحت السماء الباهتة في احدى بلاد الشمال ، تمدد رجل في
مقفل العمر شاحب اللون ، « كانت حياته كلها صلاة وكل هدفه أن
ينفذ ارادة الله » ، كان هذا الرجل تفتك به الحمى التى جعلته يظهر
كما لو كان على وشك الموت • وبينما كان يتقلب من جنب الى جنب
فى الدورات المتعاقبة من النوبات بين القشعريرة وارتفاع الحرارة
الشديد التى تدل على الملاريا ، كانت تعذبه فكرة أن العرب قد
امتلكوا بيت المقدس ، مدينة الصليب ، وعندما استدعى اليه زوجته
المخلصة والقسيس الذى سيعترف له ، أقسم فى حضورهما أنه اذا
ما استرد عافيته فسوف يذهب لينقذ بيت المقدس ويستردها من
العرب •

وقد استرد عافيته فعلا ، وكان يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨ م
- بداية الحملة الصليبية السادسة • ففى ذلك اليوم ، أبحر ملك فرنسا
لويس التاسع « القديس لويس » الذى يبلغ من العمر ثلاثين عاما ،
من ميناء « ايج - مورت » ومعه ١٨٠٠ سفينة و ٥٠٠٠٠ رجل ،
وبرفقته زوجته الملكة مارجريت أميرة بروفانس وأخواه روبرت كونت
أرتوا وشارل كونت آنجو وزهرة نبلاء وأمرء فرنسا ، ليشتبك فى
حرب مقدسة مع الصالح أيوب حفيد صلاح الدين سلطان مصر
وسوريا وصاحب بيت المقدس •

وكان من بين جماعتهم جان دى جوانفيل ، رئيس دائرة شامبين
الذى كتب تاريخ ما شاهده من الأحداث • وانضمت الى الأسطول

الملكى الفرنسى فى عرض البحر السفن الانجليزية التى كانت تحمل فرق الجنود البريطانية المؤلفة من النبلاء وأتباعهم تحت امرة وليم لونجسورد ، وايرل سالسبورى ، وكان من المقرر أن تكون قبرص قاعدتهم الشرقية حيث كان الملك هنرى قد وافق على الترحيب بهم وقد تمت الاجراءات الأولية لكى تخزن هناك المؤن قبل وصولهم •

وفى أقل من شهر ، وصل أسطول الصليبيين الى خارج مياه ليماسول فى ١٧ سبتمبر سنة ١٢٤٨ م • وانضم اليهم نائب قائد فرسان سان جون الاسبتارية فى بيت المقدس وقائد فرسان الداوية (فرسان هيكل سليمان) والبارونات والفرسان المسيحيون من مملكة عكا الصليبية •

وقد جاءوا معهم بأنباء تفيد أن السلطان الصالح قد انتشرت الأقوال عن مرضه بمرض عضال ، وأن ابنه توران شاه لا يمكن أن يعمل له حساب لأنه كان ثملا على الدوام وقد أفسدته الملذات • واقترح بعض العظماء الذين كانوا فى قبرص بأنه من الأفضل الانتظار وكانت حجتهم فى ذلك أنه اذا حدث وفاة السلطان فإن ابنه سيكون عدوا أقل خطرا •

بل وصل الأمر ببعضهم الى حد النصيح بالاتصال بالخليفة فى بغداد الذى كان يعتبر الرئيس الدينى الأسمى للعالم الاسلامى • فاذا اتضح له أن قوتهم الصليبية هائلة لدرجة كبيرة فربما يوافق على أن يجبر الصالح على التنازل عن بيت المقدس فى مقابل بعض البلاد الأخرى التى كان المسيحيون يحتلوها •

ولكن لويس الذى كان يبدو ضعيف البنية نحىلا رقيقا ، كان ذا خلق عنيد • انه أتى ليشن حربا مقدسة ضد الذين كانوا فى نظره كفارا

ولياخذ بيت المقدس الى الأبد من خليفة وسلطان المسلمين . وعلى هذا فقد استقر الرأي على خطة أخرى ، أنهم يمضون شهور الشتاء في قبرص ليهيئوا الفرصة لانضمام مجندين جدد الى الحملة ، وفي الوقت نفسه يكون قد تحسن الجو وأصبح أكثر ملاءمة لسفنتهم الصغيرة ، ويشيرون بأنهم كانوا يستعدون لغزو سورية وبهذا يعدون السلطان وجيشه عن البلاد . وربما أدت هذه الخطة الى جعل السلطان يترك مصر ، القلب النابض لامبراطوريته وأغنى أقاليمه ، مكشوفة وعرضة للهجوم ، فإذا أمكنهم النزول الى البر بسلام على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من دمياط على المصب الرئيسى للنيل فان ذلك سوف يمكنهم من السفر مصعدين بطريق النهر والاستيلاء على استحكامات قلعته وعلى عاصمته القاهرة دون مقاومة كبيرة .

وقامت الشائعات الكاذبة التي روجها العملاء بطريقة خبيثة بما كانوا يتوقعونه منها . فقد اتجه السلطان بجيوشه الى سورية ، بينما استعد الملك لويس وحلفاؤه وأعدوا سفنهم للاتجاه بها الى ناحية أخرى .



كان الحمام الذي يصفق بأجنحته في سماء البلاد العتيقة ذا ألوان برونزية وشقراء ورمادية وذات علامات واضحة . كان الحمام يصفق بأجنحته وهو يحلق في الجو المصرى الدافئ ، من أبراجه ذات الفتحات والمشيدة بقوالب الطوب اللبن ، أو الجير الأبيض والمبينة على شكل المعابد ذات الأبراج ، وقد أحيطت بأشجار النخيل وهى تعكس صورتها في مياه النيل الخضراء الداكنة . وكان الحمام يحلق بالئات ويدور بسرعة ثم يهبط مرة أخرى ليلتقط غذاءه في حقول قصب السكر والذرة والبرسيم كما كان الحال عندما كانت حشيشوت

ونفرتيتى وكليوباترة ملكات يحكمن مصر ، وكان قد مضى ما يقرب من ألف وثلاثمائة عام منذ وفاة كليوباترة •

وكان البطالة والرومان قد ذهبوا ودحرت الجيوش الاسلامية خلفائهم من البيزنطيين المسيحيين • وأصبحت مصر دولة اسلامية تعتنق عقيدة الاسلام ما عدا أقلية مسيحية صغيرة نشيطة من القبط تنتسب الى سلالة الفراعنة وشعبهم •

ولم يعد الحمام يسمع فى أثناء طيرانه صوت آلات السستروم^(١) تنبعث من فناء المعبد أو جلبة الأجراس تدوى من أبراج الكنيسة ، وأصبحت تسمع أذان المؤذن للصلاة ينبعث من مآذن المساجد العالية خمس مرات فى كل يوم •

الا أن حمامة بيضاء كان طيرانها يختلف عن طيران الحمام الآخر • فقد كانت تطير مارة بالطيور الأخرى متجهة نحو المدينة دون أن تلقى بالا الى غيرها ، بدلا من الدوران السريع العاثر أو النزول الى الأرض لالتقاط الأكل أو تفرد ريش أجنحتها فى أشعة الشمس الدافئة • انها حمامة ملكية ، رسول من رسل الملك ، تحمل رسالة سرية لسيدة شابة تقيم فى حريم السلطان الذى كان يحرم الاتصال به على أى انسان • وظلت الحمامة تطير قدما بدون أن تخطئ فى المرحلة الأخيرة فى رحلة طويلة متتابعة •• فوق الصحراء ، وفوق المسلة وأطلال المعبد الذى كان قد شيد لعبادة الشمس فى هليوبوليس فوق حديقة البلسم وشجرة العذراء قاصدة الأسوار القوية والبوابات الضخمة لمدينة القاهرة « المحروسة » وفى الشوارع والأسواق المزدهمة التى كانت تطير فوقها ، كان يوجد حمام محبوس فى أقفاص ، كما كان يوجد

(١) الشخاشخ •

أرقاء من بنى الانسان من كل لون ، كانوا يباعون ويشترون ، ولكن الحمامة البيضاء لم تلق بالا الى هولاء أو أولئك واستمرت في طيرانها محلقة فوق المدينة الصاخبة لترتفع فوق الجبل وأسوار « قلعة الجبل » ذات البروج المحصنة •

واسم « قلعة الجبل » هو الاسم العربى للقلعة التى كان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى كان الصليبيون يسمونه « سلاطين » (١) فقط ، قد بناها على مرتفع من تلال المقطم المتجهمة والتى تشرف على المدينة ، وفى الفناء الشمالى الخارجى كانت هناك أبراج حمام ، ولكن هذه الأبراج كانت للحمام الزاجل العادى لتسلم فيه رسائلها • أما الحمامة البيضاء فقد تجاهلت هذه الأبراج واستمرت فى طيرانها الى « البوابة السرية » فى السور الداخلى وكانت مغلقة ومسدودة بقضبان حديدية ويحرسها عبد عملاق ، وكان الموت ينتظر من يدخل هذا المكان ، اللهم الا السلطان نفسه أو وزيره • ولكن الحمامة لم تهتم أبدا بالأسوار والأبواب المغلقة أو الحراس من الأرقاء المتوحشين ، وبعد أن طارت فوق رؤوسهم حطت فى النهاية فوق برج الحمام الملكى فى فناء مدينة القصر المسورة لتجد ما تستحقه من مكافأة •• لتجد أليفها وشربة من ماء محلى بالسكر •

ومهما يكن ، فإن المشرف على الحمام الذى كان يقيم هناك لم يكن ليجرؤ على أن يعفى الحمامة المنهكة من الرسالة المحررة على الرق ، التى حملتها من مكان بعيد ، اذ أنه لا يمكن أن تقوم أى يد بعمل ذلك الا يد ملكية ، وكان السلطان الصالح فى خارج البلاد وكذلك كان ابنه توران شاه • ولم يكن هناك الا شخص واحد فقط

(١) السلطان صلاح الدين الأيوبي •

يسمح له - باعتباره السلطان - بأن يأخذ الرسالة ويقرأها وكان هذا الشخص سيدة ملكيه تكاد تعيش في عزلة في حريم القصر طبقا للعاده المتبعة بين المسلمين . وكان من الضروري أن يصل اليها أفواج من الرسل ، واحد بعد الآخر ، وكان يتحتم عليهم أن يسرعوا في تأدية عملهم ولكن كان يتحتم عليها أن تترك كل شئ وتأتى في الحال لتأخذ المكاتبة لأن مثل هذا الأمر لا يمكن أن تهمله أو تحيد عنه .

وبعد لحظات قليلة ، كان شخص محجب تماما يميل على الطائر، وحلت أنامل يدين بيضاوين مخضبتيين بالحناء الوردية الرسالة المثبتة في ساق الطائر ، وأصبح الطائر طليقا .

وكانت الأنباء التى أتت بها الرسالة أنباء مثيرة . كانت الرسالة من زوجها السلطان الصالح أيوب الذى كان طريق الفراش في حالة خطيرة في دمشق ، مريضا بالسل وسناقه متقرحة متقيحة ، بينما كانت قواته تهاجم قلعة حمص . وقد أخبرها زوجها بأن هجوم الصليبيين المتوقع على سورية كان خدعة منهم .

لقد شوهد جزء من أسطول الفرنجة مندفعاً نحو الشاطئ المصرى في منطقة دمياط . فلم يتردد الصالح في الأمر بالانصراف عن حصار حمص وبالرغم من حالته ، قرر العودة بجيشه الى بلاده ليشتبك مع المهاجمين . وكان يجب عليها في الوقت ذاته أن تلم شعث الممالك الباقين تحت قيادة الوزير الثقة فخر الدين ، وأن ترسلهم بطريق النهر ليمنعوا نزول الصليبيين الى البر . أما الدفاع عن مدينة دمياط فيجب أن يعهد به الى قبيلة بنى كنانة العربية ويجب أن تجهز المدينة جيدا بالموءن والسلاح والذخيرة خوفا من تعرضها لحصار طويل . وكان يجب عليها أخيرا أن تهتم بتحسينات القاهرة ، اذ أن العاصمة ستكون هدف الفرنجة الأول اذا ما نجحوا في هجومهم .

ومن الجائز جدا أن شجرة الدر قد أصابها الدهول في تلك اللحظة . الصليبيون هنا ؟ ويمكننا أن نتخيلها ، وقد فقدت القدرة على الكلام الى أى أحد وأن نتخيلها وهي تسير الى شرفة حديقة الحريم وتتطلع خلال الشيش الذى كان يحميها من العيون التى لا يحق لها أن تراها . وكانت ترتفع فوق الأسوار وخلفها ، من جانب واحد ، صخور جبال المقطم القاحلة التى قطع منها الفراعنة الأحجار لينوا أهرامهم ، وأمامها عبر حدود الأراضى الزراعية الخضراء وشريط النيل الملتوى ، تقوم الأهرام ذاتها على حافة الصحراء ، وان كانت تشاهد بوضوح ، خلال حرارة الصيف ، تلك الآثار العجيبة الباقية من زمن تشبه الناس منذ وقت طويل .

ولكن كان يلوح أمام عينيها عن كسب تذكارات بشع يتصل بالتهديد الحالى ، ويتمثل فى الخراب القائم الذى أصاب ضاحية الفسطاط المدينة الاسلامية الأولى فى مصر والتى نمت فى المكان الذى نصب فيه القائد العربى عمرو بن العاص ، خيمته بعد أن أجبر الحامية البيزنطية فى حصن بابليون المجاور على التسليم . لم يعد للفسطاط المدينة المتشامخة وجود . بل أصبحت كوما من الرماد والأنقاض ، أما سكانها الكثيرون فقد تشتتوا فى كل مكان بسبب الغزو وتقدم العدو نحو القاهرة وذلك فى أثناء حملة صليبية سابقة ، فقد أحرق السلطان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت المدينة عمدا كخطة لجعلها أرضا محروقة ليحرم الغزاة من الاستفادة بها .

وفى أسفل المكان الذى كانت تقف فيه وعلى مقربة منه ، كانت تمتد وتنسبط مدينة القاهرة الجميلة داخل أسوارها القوية ، غافلة عن المصير الذى كان يتهدها ، وكانت الشمس تغمرها ويزيد من جمالها

مساجدها العديدة ، والمآذن المرتفعة في الهواء ، وبيوتها القمصة ،
والمدارس الاسلامية ، والأسبلة المزخرفة ، وطرقاتها الضيقة ، وأسواقها
الملأى بالتوابل وأدوات الترف والملأى أيضا بالدسائس . لقد كانت
المدينة الحقيقية التى تصورها قصص ألف ليلة وليلة حيث كانت تدور
الألعاب وحيث كانت تخرج نسوة محجبات تماما ممتطيات
ظهور الحمير ، لموعد سرى ، وحيث كان العشاق يتبادلون الرسائل
مع محبوباتهم الفاتنات من وراء أسوار الحريم وينالوا ما يستحقونه
من مكافأة وشاحا معطرا أو زهرة شذية . ان من لم ير القاهرة لم
ير الدنيا ، ان ترابها ذهب ونيلها معجزة ونساءها حوريات الجنة
وبيوتها قصور وهواءها عليل ورائحتها طيبة كخشب العود تنعش
القلب ، وكيف لا تكون القاهرة كذلك ، وهى أم الدنيا !

وهكذا كانت الفسطاط يوما من الأيام ، أهلة بالسكان زاهية
وموسرة ولكنها كانت وقتئذ مأوى العفارىت المخيفة والأرواح
الشريرة وكان المشردون فقط هم الذين يجربون على أن يعيشوا فى
حفرها المظلمة . وهنا أيضا . . ينبغى ألا يقتحم أبدا الفرنجة غير
المؤمنين طريقهم الى داخل هذه القلعة القوية والقصر الذى كانت
تأوى اليه هى وابنها الصغير خليل ابن السلطان والحفيد الأصغر
لصلاح الدين يوسف بن أيوب نفسه .

ومع أن شجرة الدر كانت قد ولدت مسيحية ، فى بلاد أرمينيا
التركية الجبلية البعيدة ، فقد كانت القاهرة وقتئذ وطنها والاسلام
عقيدتها التى تؤمن بها مخلصه . وكافت تتذكر فى صورة مبهمة فيما
يشبه كابوس الأحلام ذلك اليوم الرهيب عندما اختطفوها من وسط

المذبحة ولهبب النيران لتباع في سوق من أسواق النخاسة الشرقية ،
مع غيرها من الغلمان والجوارى البيض • أما قلبها كفتاة ، وكعذراء ،
وكامرأة فانه كان هناك في المدينة التي احتضنتها •

وكباقي أترابها اللائى جلبن من تركيا ، نشأت على العقيدة
الجديدة ولم يعد لها أية صلة بعقيدتها القديمة • وكان بعض أترابها
مازلن جوارى وان كن مكرمات ويعتز بهن أصحابهن ، كما أصبح
بعضهن أحرارا ، وكان الغلمان عندما يكبرون ، ينتظمون في حرس
السلطان ويدربون على كل فنون الحرب والرياضة الخاصة بالرجال
ورمى السهام ورمى الحراب والصيد بالصقور ولعب البولو • وكانوا
يسمون المماليك ، وعاشوا في قلعة خاصة بهم - وكانت معسكرات
فاخرة حقا - وكان السلطان قد بناها لهم في جزيرة الروضة وسط
النيل بالقرب من المكان الذى يقوم فيه مقياس النيل القديم • وكانوا
لهذا السبب يسمون بالمماليك البحرية - مماليك البحر - وقد أثرى
بعضهم وأصبحوا من المقربين فى القصر واشتروا بدورهم مماليك
آخرين ليقوموا على خدمتهم وليحاربوا من أجلهم هم ، وقد استحوذوا
على أغلب المراكز الرفيعة لدى السلطان • لقد أصبح بعض من تم
شراؤهم من أسواق النخاسة في بغداد ودمشق والقاهرة يتولون
وظائف هامة مثل الوزير وقائد الجيش الذى كان يلى السلطان مباشرة •
كما تولى مماليك آخرون بعض الوظائف التى لا يتولاها الا الموثوق
فيهم مثل ساقى السلطان الذى يتذوق طعامه خشية وجود السم فيه
وصاحب جواده ، وقد أصبحوا في الحقيقة في غاية القوة ، حتى ان
شجرة الدر كانت قد بدأت تخشى المماليك وتقلب عواطفهم ومطامعهم •
وكانت تخشى منهم على زوجها وابنها كما كانت تخشى منهم أيضا على

نفسها بالرغم من أنها هى نفسها كانت جارية مملوكية • وعندما كانت فى حريم القصر كجارية لزوجة السلطان الصالح أم توران شاه ، ساعدها جمالها وذكائها على الظفر بحب الملك • فقد وقع الصالح ، ذلك الجندى العبوس القليل الكلام ، فى حب للشريعة الرشيدة شجرة الدر فأعتقها وتزوجها • وكان يمكنه طبقا للشريعة الاسلامية أن يكون له أربع زوجات على شريطة أن يعاملهن جميعا بالتساوى • ولكن عندما ماتت أم توران شان أصبحت شجرة الدر بمفردها فى قلبه • وقد أحبته وصممت على ألا تكون لها منافسة وكان حبهما قد تتوج منذ بضعة شهور مضت بمولد ابنهما خليل •

ولم تتردد شجرة الدر طويلا • وكان يجب عليها أن تتصرف بسرعة وعندما استدعت كبير أغوات القصر جمال الدين محسن طلبت اليه حضور الوزير الشيخ فخر الدين سريعا ، فى قاعة الأعمدة ، وهى قاعة الاستقبال فى القصر • وهناك وراء ستار حريرى ، أصدرت أوامر السلطان وغقت عليها • يجب أن تذهب قبيلة بنى كنانة فى الحال الى دمياط لتكون حامية مقيمة فيها وأن تجهز المدينة بالأطعمة والذخيرة • ويجب أن تقوى تحصينات القلعة والقاهرة وأن يوضع حرس اضافى على الأسوار والبوابات • ويجب على فخر الدين أن يجمع جيشا ثانيا من المماليك وأن يتقدم بهم فى الحال ليحول دون نزول الصليبيين الى البر • أما هى فانها ستسافر لتقابل السلطان وتأخذ معها الطفل الأمير خليلا ليكون فى مكان أكثر أمنا •

ويمكننا أن نتخيل كبير الوزراء وهو يعترض •• « ولكنه يا سيدتى قد يكون أكثر أمنا لك وللامير خليل أن تبقي هنا فى القصر » • كما يمكننا أن نتخيل اجابتها « اتنا يا صديقى بين يدي الله • ان والد خليل مريض ويجب على أن أكون الى جانبه » •



كان ذلك في ٤ مايو سنة ١٢٤٩ عندما ألقى الملك لويس ، ملك فرنسا ، الذي كان في سفينة الرئاسة ، واسمها موتيجور على رأس لأسطول الملكى للحملة الصليبية السادسة ، مراسيه على مسافة من ساحل مضر بالقرب من الشاطئ الغربى لمصب النيل . وعلى بعد ميلين من مصب النهر ، وعلى الشاطئ الشرقى كان يوجد هدفه الذى يريده وهو ميناء دمياط ، مفتاح الدلتا وحركة النقل النهري للبلاد المنظمة . وكانت دمياط محمية من الخلف ببحيرة المنزلة وهى مساحة واسعة من المياه المالحة وراءها لسان ممتد من الرمال الى حيث توحد مدينة بورسعيد الحديثة . وكان الوصول الى دمياط من الشاطئ الغربى الا يمكن أن يتم الا بواسطة عبور جسر من القوارب . وسيكون النزول الى البر والاستيلاء على دمياط مغامرة خطيرة وخصوصا وأن لويس كان يعرف أن السلطان قد اكتشف خدعته وكان عائدا بجيشه راجعا من سورية ليصد الهجوم الصليبي . ولم يعد من السهل القيام بغزو مفاجئ . وأشار عليه قواده باتخاذ جانب الحذر ، فقد أعطيت العواصف بعض ناقلات الجنود بعد مغادرتها لقرص وأبعدتها عن طريق سيرها فذهبت الى الموانئ الفرنجية فى سورية . ولهذا فمن الأفضل الانتظار حتى تصل فينزلوا جميعا الى البر ومع ذلك فمن ذا الذى يدرى كم كان عدد المسلمين الذين كانوا مستعدين للقائهم على الشاطئ ؟

ولكن لويس كان قد انتظر الشتاء كله ليبدأ الحرب مع المسلمين . وكان يحس الآن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر من ذلك . وفى فجر اليوم الموافق ٥ من مايو قاد بنفسه أول جماعة تنزل الى البر ، فكان ما رآه فى انتظارهم مخيفا . ويقول المؤرخ الفرنسى دى جوانفيل انهم « قد وجدوا جيش السلطان كله على الشاطئ وكانوا قوما على

درجة كبيرة من الجمال ، وكان السلطان يلبس عدة حرب ذهبية انعكست عليها أشعة الشمس ببهاء » ومهما يكن فقد كان دى جواتفيل مخطئا . فان القائد الذى كان يرتدى عدة الحرب (الزرد) المصنوعة من الذهب لم يكن السلطان ولكنه كان وزيره فخر الدين ، أما السلطان الصالح فقد كان مريضا جدا ، واستلزم الأمر أن ينقل محمولا طول الطريق من دمشق الى القاهرة على محفة ، وكان فى هذه اللحظة يرقد فى خيمته فى أشمون طناح وقد امتلأت نفسه بالمرارة لعدم قدرته على قيادة قواته بنفسه ضد الغزاة الملعونين ، فانه طبقا لرواية مؤرخ عربى « ساد الجيش تمرد شديد بسبب مرضه ولم يستطع أحد أن يفرض أوامره على الجنود » .

ولم يعلم الصليبيون شيئا عن هذا الأمر . وأظهر الملك لويس شجاعة شخصية عظيمة وهو يقود عملية النزول الى البر بالرغم من سهام وحراب المماليك والبدو من العرب . وكانت قواته كثيرة العدد، وبالرغم من أنهم قد أنزلوا خسائر جسيمة بالمسلمين فقد تولتهم الدهشة عندما فوجئوا بمفاجأة غير مرتقبة لهم عندما تحطم الدفاع العربى فجأة وأصبح فى استطاعتهم أن يثبتوا مراكزهم جيدا فوق أرض مصر .

وعندما أרךى الليل سدوله ، تقهقر فخر الدين الذى لم يستطع السيطرة على مماليكه الذين لا يطيعون الأوامر ، وانسحب عبر جسر القوارب ، أمرا بنى كنانة بأن يضرعوا النيران فى القوارب بعد أن يعبر هو والمماليك وأن يظلوا هم بالمدينة محتفظين بها من أجل السلطان . وبدلا من اطاعة أوامره فان رؤساء البدو الذين أصابهم الرعب عندما أصبحوا دون قائد ودون جيش يساعدهم ، أغفلوا أن يحرقوا الجسر وأخذوا يصيحون وهم يعدون داخل دمياط ، بأن كل

شئ قد ضاع ، وأضرمو النيران فى الأسواق وهربوا ، ولكن عندما عادت الى أذهان سكان المدينة المسلمين ذكرى المذبحة القاسية التى حدثت عندما استسلمت المدينة الى حملة صليبية سابقة ، هربوا هم أيضا فى هلع وتركوا وراءهم فى المدينة الأقلية المسيحية الصغيرة فقط التى لم تكن خائفة من وصول أبناء ملتهم • وعبر أحد المسيحيين المصريين النهر ليخبر الفرنجة أن الحامية العربية والسكان المسلمين قد ذهبوا وأن المدينة قد أصبحت لهم •

وفى اليوم التالى تقدم الملك لويس وقواته ، فى زهو فوق الجسر ودخل المدينة واستولى على جميع الأسلحة والذخيرة والأطعمة التى كانت شجرة الدر قد أمرت بتخزينها هناك بناء على تعليمات زوجها لاحتفال مواجهة حصار طويل •

ولو كان لويس استمر فى تقدمه نحو الدلتا فلربما كانت أصبح القدر قد خطت فصلا آخر فى صفحات التاريخ يختلف تماما عما حدث • فقد كانت الحالة النفسية فى جيش السلطان المريض منهارة وكانت قواته المنتقاة من الممالك بعيدة عن متناول يده • وبالرغم من أن النيل كان على وشك الفيضان بعد وقت قصير الا أنه كان هناك وقت ممكن معه الملاحاة فى شبكة القنوات المتداخلة التى تصل مصبى النهر بالمجرى الرئيسى على بعد أقل من اثنين وعشرين ميلا من العاصمة • فلو أن لويس قد استمر فى تقدمه لأمكنه فى حركة واحدة جريئة أن يجعل من نفسه سيد القاهرة وحاكم بيت المقدس •

ولكنه تريت ، ويبدو أن ذلك كان لأسباب وجيهة • فمن ناحية كان خائفا من أن يدركهم الفيضان الذى كان وقته يقترب • ومن ناحية أخرى فانه لم يكن يعلم بالحالة فى معسكر السلطان ، ولهذا فضل أن ينتظر سفن النقل المختلفة وكذلك وصول أخيه الثالث

الفونسو أمير بواتو ليعزز بقواته جيشه الصغير • وتحولت دمياط الى مدينة من مدن الافرنج وكانت شعائر الدين المسيحي تقام في المسجد الكبير ، وعين أسقف لها وأعطيت الشوارع التجارية للصليبيين القادمين من المدن التجارية في ايطاليا • وأرسل في طلب الملكة مرجريت وغيرها من سيدات الصليبيين اللائي كن قد ذهبن الى عكا من قبرص عندما أبحر لويس قاصدا مصر ، واستقر رجال البلاط والجيش ليعيشوا هناك في سعادة تامة طوال أشهر الصيف الرطبة الى أن يأتي الخريف ويهبط النيل • وبعبارة أخرى حتى ينتهى المخزون من الأطعمة وتبدأ الحمى والأمراض تفتك بهم •

وأوقع وصول فخر الدين وجيشه المتقهقر معسكر السلطان في ذعر فمن الذى يجرؤ ويخبر السلطان ؟ لقد كان مزاجه ثائرا نتيجة لآلامه واحساسه بعدم قدرته على النشاط والحركة ، وبالرغم من أن المؤرخين العرب لم يسمحوا لأنفسهم بالكتابة عن الأمور الأسرية الخاصة ، أو يذكروا النساء بالاسم اللهم الا في الظروف غير العادية ، يمكننا أن ندرك أن شجرة الدر هى التى كان يتحتم عليها نقل الأخبار الى زوجها •

وهاج وثار غضبه ، ضد فخر الدين والمماليك أولا ، وبذلت شجرة الدر كل ما تستطيعه لتمنعه من أن يصدر حكمه فى الحال باعدام الوزير المخلص وأحد الرجال القلائل الذين كانت تعرف أنهم جديرون بالثقة فيهم • ولكنه أنصت اليها - كما اعتاد أن يفعل دائما - وأبقى على الرجل الشيخ لخدمته الطويلة وولائه الذى لا ريب فيه بالرغم من أنه طرده وأعفاه من قيادة الجيش •

أما رجال قبيلة بنى كنانة الجبناء فلسوف يحكم عليهم بالموت شنقا ولم يكن لدى شجرة الدر ما تقوله حيال أولئك • فقد كان

الوقت عصيبا ، وكان من الضروري اتخاذ تدابير صارمة ضد من خانوا الأمانة وكان ضياع دمياط ضربة خطيرة وكان على بنى كنانة أن يدفعوا ثمن ما اقترفوه •

وقبل أن يصدق السلطان على حكمه على زعماء القبيلة أراد التأكد من أنه لم يكن بجانب شرع الله واستدعى مستشارية الدينين من رجال الشرع وسألهم عن العقاب الذى يجب أن يوقع على الجنود الذين يتخلون عن مواقعهم وكانت الفتوى باجماع الآراء هى القتل وهكذا نفذ حكم الاعداء شنقا فى زعماء قبيلة بنى كنانة •

وعرف الصالح وقتئذ أنه كان على وشك الموت • وعرفت شجرة الدر ذلك أيضا • ولم تكن من أولئك الذين يغمضون أعينهم عن الواقع مهما كان قاسيا • لقد كان قلبها يتمزق لضعفه وآلامه ولكنها لم تجرؤ على التفكير فى مصير حياتها بعده • وكانت شجاعتها مساوية لشجاعة كليوباترة ، ويجب أن يكون انقاذ مصر من الغزاة الأجانب مقدما على كل الهموم والأحزان الشخصية •

وكان الموقف خطيرا وكان هناك الكثير مما يستدعى الاهتمام به • انها كانت ترتاب فى اخلاص رؤساء الأمراء المماليك وخشيت قيام الصليبيين بهجوم مباشر من دمياط مدفوعين بنجاحهم السهل • وربما يكون من الأفضل التفاوض معهم وعرض التنازل عن بيت المقدس مقابل رحيلهم عن دمياط كما سبق أن فعل والد الصالح قبل ذلك بعشرين عاما • اذ من الأفضل جدا أن يخسروا المدينة المقدسة على أن يحتل الفرنجة جزءا من مصر مهما كان صغيرا • وكانت هذه النصيحة قاسية على الصالح • فقد كان يكره المسيحيين وكان قد استولى ثانية بنفسه على بيت المقدس بعد اعتلائه العرش • ولكنه

أصغى إليها ووافق في النهاية على أن يرسل رسالة الى لويس يبلغه فيها العرض رسميا •

وبينما كانوا ينتظرون الرد في قلق ، كان الصالح يتقلب من جنب الى جنب في نوبات الحمى وكان دائم السعال الذي تسيل معه أيام حياته ويتعذب من ساقه المتقيحة • وكان ضميره يقلقه ، ولهذا طلب من شجرة الدر أن تصدر بلاغا باسمه يطلب فيه من كل شخص يحسن أن السلطان قد ظلمه أن يحضر للشول بين يديه ويعرض قضيته فانه سوف يصحح ما حاق به من أضرار • لقد كان الجندي الذي عرفته الدنيا متجهم الوجه محبا للوحدة ، كان في قرارة قلبه رجلا عادلا شريفا يخاف ربه ، رجلا كانت شجرة الدر تحترمه كما كانت تحبه ، وكان قلبها مطمئنا وهي تصدر القرار وقد ختمته بخاتم زوجها اذ أنها تعرف أنه كان يعد روجه لتدخل الجنة •

ولم يكن الرد المنتظر من الملك لويس قد وصل بعد • وأخذت شجرة الدر تسائل نفسها أى نوع من الرجال كان هذا الرجل ؟ كانت تعرف أنه رجل متوسط العمر ويصغر زوجها البالغ من العمر أربعين عاما بعشر سنوات • وكانت التقارير تصفه بأنه كان نحिला شاجبا كثيرا ما يمرض ولكنه شجاع في كل ما يتعلق بدينه ، بل أن البعض كان يسميه قديسا وكانت له زوجة ، لقد سمع عبيدها هذا الكلام مما تناقله الألسن • وكانت الملكة مرجريت ، مثلها ، قد تبعت زوجها الى أرض المعركة • فهل كانت صغيرة وجميلة ؟ وهل كان لها ولد صغير مثل ابنها خليل الذي كانت تعبه ؟ انها كانت تتمنى أن ترى وجهها وملابسها ومجوهراتها ، وهل كانت مجوهراتها تعادل اللؤلؤ العجيبة والجواهر التي أغدقها عليها الصالح ؟ ولكنهما لا يمكن أن يتم التلاقي بينهما لقد كاتتا متباعدتين ويفصل بينهما سور من العداوة أقامه الدين بين زوجيهما •

ولا توجد لدينا أى صورة لشجرة الدر ، ويرجع ذلك الى حياة المسلمين وللعزلة الشديدة التى كانت مفروضة على النساء - فيما عدا الفلاحات اللائى كن يعملن فى الحقول الى جانب أزواجهن • هل كانت صورتها تطابق تصور الشاعر المعاصر لها بهاء الدين زهير الذى كان يصف المرأة الجميلة فيقول بأن شعرها المتموج يسدل على خدها وأن قوامها سمهري يشبه الرمح ، أم أن حياة الحریم قد أكسبتها نعومة وأضفت على قوامها تلك البدانة التى لحقت بالكثيرات من الجميلات النحيلات اللائى حكم عليهن بالكسل والراحة فوق الوسائد الوثيرة ؟ ولكنها لا تزال صغيرة جدا وذات شخصية نشطة تواقه ، ولهذا فمن المحتمل أن تشبیهها بالرمح كان مازال منطبقا عليها •

ويمكننا أن نتخيل من صور العازفات على العود والمغنيات التى نراها مصورة على الأطباق ذات الطلاء اللامع التى ترجع الى العصور الوسطى فى مصر كيف كانت خصلتا شعرها مقصوصتين فى استدارة على خديها لتزيد من تحديد خطوطهما وكيف كان باقى شعرها الأسود الفاحم ، مجدلا فى صفائر طويلة مسترسلة على كتفيها ، ولربما كانت فروع لآلئها المشهورة تتدلى مزينة أذنيها ومثبتة الى منديلها الحريرى ذى اللون الوردى الذى كانت تضعه فوق رأسها وعصابة رأسها الذهبية محلاة بزمردة •

وكانت خواتمها وأقراطها وقلاداتها وأساورها من الذهب ، وتضع فى ساقها خلاخيل فضية ثقيلة كانت ترن عندما تمشى ، تلك الخلاخيل التى قال عنها أحد الشعراء : ان رنة هذه الخلاخيل قد سلبتة العقل ، ولربما كانت هذه الخلاخيل تكمل مجموعة حلبيها •

ومن المحتمل أن ملابسها كانت تشتمل على معطف ورداء حريرى وشال وسراويل حريرية منتفخة مربوطة عند خنقة الساق وخفين

مطرزين ، من السهل عليها أن تخلعهما عندما كانت تضطجع على أريكة من الوسائد أو تجلس وهي متربعة لتأكل أو عندما تؤدي فريضة الصلاة خمس مرات في اليوم على سجادة الصلاة التي جيء بها من بلاد الفرس •

وكانت العادة القديمة في صبغ الحواجب والرموش باللون الأسود واستطالة حدود العينين بالكحل قد جعلت من عينيها أكثر ما يلتفت النظر في ملامح وجهها ، وكانت عيناها تلمعان حتى من خلال الخمار الذي كان يغطي وجهها عندما كانت تغادر الحريم •

وكانت المرأة المحجبة عند العرب امرأة تستحق المدح والتقدير • وبنفس الأسلوب أخفت شجرة الدر أعلى ما كانت تمتلكه تحت معطفها وكانت تسمية تتدلى من شريط فوق كتفها الأيسر ، وهي صندوق ذهبي صغير الحجم مرصع بالجواهر وملفوف بقطعة قماش ناعمة وبداخله جزء من القرآن الكريم كتبه بدقة أحد خطاطي القصر •

وقد أحست شجرة الدر في هذه اللحظة أنها كانت في حاجة الى هذه التسمية اذ أن أخبار عودة رسول السلطان من بلاط الفرنجة في دمياط كانت قد وصلت اليها • فأسرعت هي الى جانب زوجها ، لتعلم ما هو الرد الذي رد به الملك لويس ؟ هل قبل العرض بالتنازل عن بيت المقدس مقابل دمياط ؟

وكانت الاجابة بالنفي ، ان الملك لويس لن يساوم مع من اعتبرهم كفارا • واستشاط الصالح غضبا ، ولو كانت صحته في حالة حسنة لقاد رجاله في هجوم يكتسح فيه الغزاة المتعجرفين ويرمى بهم الى البحر •

وجاءت أنباء سيئة في أعقاب الأنباء السيئة • فبينما كانت شجرة الدر تحاول أن تهدىء من ثائرة الرجل المريض الحزين ، جاء صديقها الشيخ الوزير فخر الدين الذي كان السلطان قد طرده من منصبه يلتمس المشول بين يدي السلطان • وقد سمح له بذلك على كره منه ، وفي هذه المقابلة أخبرهما فخر الدين بأن المماليك كانوا يدبرون ثورة ، وأن رجال حرس السلطان أنفسهم قد انضموا إليهم أيضا • أما هو فقد رفض أن ينضم إليهم •

ما الذي كان يريده الثوار ؟ انهم يريدون الحرب ، فقد برموا من طول الانتظار وعدم مهاجمة العدو • وكانوا بلا قائد ولهذا بحثوا في امكانية الاستفادة من ضعف الصالح لكي يشبعوا طموحهم وطمعهم في السلطة • وكان قيام ثورة في القصر بغية التخلص من السلطان وزوجته وابنه الصغير ، في أثناء غياب توران شاه ووجوده بعيدا عن البلاد ، يترك الباب مفتوحا أمام قائد جديد ليظهر من بينهم ويستولى على السلطة ويعلن نفسه سلطانا •

وكان الموقف حرجا للغاية • وكان ينبغي على الصالح أن يتصرف بسرعة ولكنه كان بين نارين • فان هو سحق الثوار بقسوة - كما كان يجب أن يفعل - فليسوف يفقد بذلك ممالكه المتنازعين وأحسن ضباط وجنود الجيش • وان هو توانى ازدادت الثورة اشتعالا وكان هناك حل آخر لوضع نهاية للثورة التي بدأت تتجمع نزرها وربما كانت شجرة الدر هي التي أرشدته اليه - وذلك أن يشتري الثوار الى جانبه • وكوفىء أولا فخر الدين لولائه وذلك باعادته الى وظيفته كقائد للجيش • وبعد ذلك ، وبمساعدة شجرة الدر، ألبسوا الرجل المريض ملابس السلطانية ، وجلس في قاعة الاستقبال ليستقبل زعماء الأمراء وليكافئهم على إخلاصهم وذلك بأن يخلع على كل منهم كسوة رسمية ، وكانت تقوم عند العرب مقام التيشان ، وهدايا ثمينة من الجياد والذهب والأسلحة •

وكاد المجهود أن يقتله ، ولكن الحيلة نجحت • لقد أخبر الصالح المماليك أنه قد أسند القيادة مرة ثانية الى الأمير فخر الدين وأنه ينبغي عليهم أن يتركوا المعسكر ويسرعوا بأقصى ما يستطيعونه من سرعة الى مدينة المنصورة التى تقع على بعد بضعة أميال من دمياط • وأنه يجب الاحتفاظ بالمنصورة بأى ثمن • ان اسمها مشتق من النصر، وبناها وأطلق عليها اسمها السلطان الكامل والد الصالح ، فى مكان انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة • وعلاوة على ذلك فقد كانت تعتبر خط الدفاع الأمامى لمدينة القاهرة بالرغم من وقوعها على بعد أميال كثيرة منها •

وقد انصرفوا من حضرة السلطان ، يقودهم عملاق شركسى أبيض البشرة أزرق العينين يدعى بيرس ، بعد أن أقسموا بطاعة السلطان وتصميمهم على الدفاع عن المنصورة وأنهم لن يمكنوا الصليبيين من المرور • وهكذا قضى على مؤامرة المماليك وهى فى المهد •

وعندما بدأت مياه النيل تتلون باللون البنى وتختلط مياهه بالغرين ، وارتفع الى مستوى فيضانه على الأراضى ، وضع الجيش المصرى الخطط ونظم وسائل الدفاع عن المنصورة • وقد أقام المماليك معسكرهم شمالى المدينة الى جانب القناة الموجودة الآن والتى تسمى « البحر الصغير » والتى كانت تفصل دمياط عن المجرى الرئيسى للنيل وهو الطريق الموصل الى المنصورة ومن ثم الى القاهرة • وأسرع رئيس حجاب القصر وكبير الأغوات ، جمال الدين محسن على رأس حاشية السلطان ليعد القصر السلطانى على واجهة النهر شمالى المنصورة ، لاستقبالهم • وكان لابد من انقضاء ثلاثة شهور قبل أن يهبط النهر ويستطيع الفرنجة التحرك من دمياط •

واليوم يجد الزائر الذى يصل الى المنصورة أنها احدى مدن
الدلتا الهادئة حيث يتحرك الجميع فى هدوء وسرعة ما تنتهى المناقشات
فى كل مكان بالمصافحة والابتسام .

وهى أشبه بجزيرة فى وسط مساحات شائعة مبسطة من الحقول
الخضراء المنزرعة بالقطن والبصل والبرسيم والقمح والتي تسير فيها
القنوات ، وتبدو بيوتها ذات المشربيات الخشبية المتينة ، وماذنها
المدنية ، التي ترتفع فى السماء أهم بكثير مما هى فى الواقع . وعلى
طول صف الأشجار الجميل الممتد على واجهة النهر توجد مجموعة من
المقاهى المقامة فى الهواء الطلق ، تكمل صورة ذلك الهدوء ، فان
الجالسين عليها يلبسون الملابس السوداء والعمامات البيضاء ويرتشفون
قهوتهم ويتكلمون ويلعبون الترد ويدخنون النارجيلة ونادرا
ما يتحركون فى جلستهم الرزينة عندما تمر بهم العربات وما يصدر من
صوت رتيب عن عجالاتها . ومن المستحيل ، وأنت تقف فى أحد
شوارعها وتشتري كوبا من بائع الشربات أو وأنت تتبع مجموعة لطيفة
من النسوة الفلاحات فى أرديتهن السوداء وهن يحملن سلال الخس
والكرنب الكبير الحجم أو الأوز الحى فوق رؤوسهن أن تصدق
أو حتى تتخيل أن هذا كان المكان الذى شهد مصير مصر الاسلامية
عندما كان معلقا فى كفة القدر وأنه تقرر مصيرها فيه للأجيال التي
تلت ذلك .

فمنذ سبعمائة عام مضت وقعت احدى الشخصيات الرئيسية فى
هذه الرواية المليئة بالقلق والعنف ، وراء أحجة نوافذ الحريم بالقصر
السلطانى الذى كان يقوم فى مواجهة النهر خارج المدينة القديمة
المحاطة بالأسوار ، وهى تراقب مياه الفيضان المرتفعة وقد أخذت تصفر

بعد أن ترسب الغرين منها ، وأخذت تهدأ من جديد ، وأخذت شواطئ
النهر الخضراء تظهر أمام العين •

وكلما أخذت المياه فى الهبوط كان قلقها يزداد • فقد جاء
الجواسيس بأخبار تقول ان الأخ الثالث الملك فرنسا ، الأمير ألفونسو
أمير بواتو ، قد وصل الى دمياط ومعه كثير من السفن والرجال ليعزز
قوة الصليبيين • وكان الوقت آنذاك نهاية شهر أكتوبر وأصبح النيل
على وشك الهبوط لدرجة تسمح لهم ببدء حملتهم • وكانت شجرة الدر
تعرف أن ذلك السكون غير الحقيقى الذى فرضته فترة الانتظار يمكن
أن يتبدد فى أى لحظة • ومع ذلك كان من الواضح أن زوجها لن
يعيش طويلا ، وهو وحده الذى كانت سلطته الملكية كافية لايقاف
الماليك الطموحين المترددين عند حدهم • وفى الحقيقة ، كان بقاؤه
حيا حتى الآن معجزة حققتها ارادته الحديدية •

وكانت تعرف أنه على مسافة بضعة أميال شمالى المنصورة على
شواطئ البحر الصغير ، كان رجال الجيش المصرى قد اعتادوا على
حياة أضعفت من روحهم العسكرية • فقد دأب الأقوياء من أمثال
بيرس وأبيك على أن يحضروا الى خيامهم الفخمة ، الكثير من مظاهر
الترف واللهو التى كانوا قد تعودوا عليها فى القاهرة • وبالرغم من
أن فرقهم الموسيقية الخاصة من قارعى الطبول الكبيرة والصغيرة
ونافخى الأبواق والمزمار كانت أصواتها تدوى بالنداءات العسكرية
بشكل واضح وبالرغم من أنهم كانوا يمضون بعض الوقت فى
التدريبات العسكرية مثل المبارزة ورمى السهام فانهم كانوا يفضلون
عليها لعب البول وصيد الغزلان بالصقور فى الصحراء • وكانوا قد
أخذوا يتعودون كثيرا على الحياة السهلة المريحة •

على أنه من المؤكد كانوا يحافظون على نظم دينهم بأداء فريضة

الصلاة خمس مرات في اليوم وأنهم كانوا يؤمنون المسجد لصلاة الجمعة ، لكنهم كانوا أيضا يأخذون حماماتهم التركية حيث يقوم العبيد بتدليكهم ، وكانوا يلبسون الأردية الحريرية التي تعطر بماء الورد ، والإحزمة والعمائم المرصعة بالجواهر كما كانوا يضمخون لحاهم بالمسك ، أما هؤلاء الذين كانت لحاهم قد وخطها المشيب مثل القائد فخر الدين ، فانهم يصبغونها بالحناء باللون الأحمر •

ولم يكن الترف والحياة الناعمة ، ولا الاستماع الى أغاني الحب وعزف العود وشرب الخمر (وقد نهى عنها الدين ومع ذلك فقد كانوا يشربونها) من قناني النبيذ النفيسة بينما يشاهدون إحدى راقصات الفجر وهي تتمايل يمينا وشمالا لم يكن ذلك كله من العوامل التي يمكن أن تسمى حياة معسكرات حقيقية • وكانوا قد هدأت ثأرتهم باسناد القيادة الى فخر الدين ولكنه كان يتحتم عليه أن يخفى عنهم كيف كان السلطان مريضا بشكل ميئوس منه •

وقد قال فخر الدين لشجرة الدر انه عندما يتأكد تماما من اخلاصهم فانه سوف يقودهم في هجوم مباغت على الصليبيين قبل أن يكون لدى العدر فرصة لمقابلة ذلك الهجوم • ولكنه لم يجرؤ على ذلك •

أما بالنسبة لما سوف يحدث عندما يموت الصالح •• فان التفكير في ذلك كان سابقا لأوانه • وكان وجه السخرية في الموقف يتلخص في أن كلا من الجانبين كان يعمل على كسب الوقت غير متنبه الى ضعف الآخر • وقد بقي كل من المسلمين الصليبيين في مراكزهم وهم مترددون بدلا من المبادأة الجريئة بالهجوم عندما سمح بذلك هبوط مياه الفيضان • وكيفما كان الأمر فقد اتضح في معسكر الفرنجة أنه من الخطر عليهم أن يتباطئوا أكثر من ذلك • فقد كانت كميات الطعام قد أخذت في النقصان وازدياد عدد من يجب اطعامهم من رجال

الامدادات الجديدة ، فان الموقف كان يزداد خطورة • كما أن حرارة ورطوبة الصيف قد أخذت تضعف من قوى أبناء الشمال • وأخذ المرض يحصدهم ويموت بعض منهم في كل يوم •

ودعا الملك لويس الى مؤتمر من اخوته ونبلاء وفرسان الصليبيين من المملكة الصليبية - بساحل الشام - وكانت تلك الخطة تقضى بمباغطة الجيش المصرى ، والتقدم نحو الاسكندرية بدلا من المنصورة وبذلك يخطون الخطوة الأولى نحو القاهرة ، لأن المسلمين سيتوقعون من الصليبيين أن يسيروا في الطريق الذى سلكته الحملة الصليبية السابقة في سنة ١٢١٩ ويتقدمون في ذلك الطريق دون أن تتبادر الى أذهانهم خطة الاستيلاء على الاسكندرية • ولو أنهم اتبعوا تلك الخطة ونجحوا في المباغطة بها لأصبح كل ساحل البحر الأبيض المصرى ملكا لهم ولأصبحت السيطرة على البحر بين أيديهم •

ولاشك أن التفكير في هذه الخطة ملئ بالحيطة والدهاء • ولكن الأمير روبرت سيد أرتوا أخا الملك لويس المندفع في آرائه عارض الخطة • ان الهدف يجب أن يكون القاهرة • وقد قال « لنحطم رأس الحية » وقد اتفق معه أخوه الملك لويس في رأى • واستقر الرأى على اتباع طريق الحملة الصليبية السابقة وعبور البحر الصغير ثم التقدم نحو المنصورة •

وبدأت الاستعدادات في الحال • وتهلل لويس الذى كان ثائرا غاضبا للتأخير في الاشتباك مع المسلمين • ولكن زوجته الشابة مرجريت أميرة بروفانس كانت تساعد في الاستعداد للحرب ، وهى منقبضة القلب • لقد كانت حاملا وكان الجو يؤذى صحتها ولسوف تكون أكثر أمنا لو أنها عادت الى عكا أو قبرص لتتظر هناك نتائج الحملة ، ولكنها رفضت أن تغادر دمياط في الوقت الذى كان فيه زوجها الذى

تعبه يحارب على أرض مصرية • وكان لويس عنيدا عندما كان يريد ذلك ولكن مرجريت كانت عنيدة أيضا • وقد نالت بغيتها وبقيت في دمياط وكان كل ما يستطيع أن يعملهُ لويس من أجل سلامتها هو أن يضعها تحت رعاية بطريرك بيت المقدس الذي صاحب الحملة الصليبية ليشد من أزر المحاربين •

وفي منتصف شهر نوفمبر كان كل شيء معدا • وقد ودع لويس ومرجريت ، اللذان كانا يتبادلان الحب ، بعضهما البعض • وفي الصباح الباكر من يوم ٢٠ نوفمبر خرج لويس من دمياط على رأس الحملة الصليبية السادسة على الطريق الجنوبي قاصدا المنصورة •



وبعد ثلاثة أيام ، وفي يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ على وجه التحديد ، ودع زوجان آخران كانا يتبادلان الحب بعضهما البعض الوداع الأخير • فقد انتهت آلام السلطان الصالح ولفظ آخر أنفاسه بين ذراعي شجرة الدر • ولم يكن هناك أحد آخر حاضرا هذا الوداع • لقد سهرت عليه ورعته وحدها منذ رجع الى مصر • ونحن لا نعرف شيئا عن أفكارها ومشاعرها فهي خافية عنا ولم ينقلها إلينا أحد كما سكت صوتها الى الأبد • وما من شك في أنها وهى المسلمة المؤمنة ، قد تمتت بآيات من القرآن ترحما عليه ، ولكن ما عدا ذلك فإن ما نعرفه هو ما عملته بالفعل ، وعلى خيائنا أن يقتنع بذلك •

لقد فقدت شجرة الدر زوجها ، ولكن مصر فقدت سلطانا في ساعة شدتها • وها هم الصليبيون قد غادروا معسكرهم في دمياط وكان جيشهم يسير متقدما في زحفه وقد أبلغها الجواسيس

أن الجيش الصليبي كان يتألف من الألوف من المحاربين تحت قيادة قائد يحبونه ويجلونه كقديس وكانوا مستعدين للموت من أجله الى آخر رجل فيهم • فلو عرف الفرنجة أن سلطان المسلمين الذي كانوا يخشونه قد مات لازدادوا جرأة ووحشية في هجومهم ، ولو عرف المماليك ذلك لنشبت بينهم حرب أهلية وينتهي أمر مصر ، ووضعت شجرة الدر كامرأة أحزانها جانباً وأخذت تفكر • فكرت قبل كل شيء فيمن يتولى السلطنة • وكان زوجها قد أرجأ تسمية ولي عهده ، على خلاف العادة التي كانت متبعة في العالم الاسلامي بأن يسمى السلطان ولي عهده في حياته وكان ذلك راجعاً الى أن كان يحتقر ابنه توران شاه ولا يثق فيه • أما ابنها خليل فهو مجرد طفل • ولكن بالرغم من سوء أخلاق توران شاه ، وكانت شجرة الدر تشارك زوجها رأيه فيه ، فقد كان واجبها واضحاً • كان هو الوارث الطبيعي لعرش والده • وكان ينبغي عليها أن ترسل أحد رجالها الى سورية سر وترجو توران شاه الحضور في الحال ليستولى على حقه في تولي العرش فقد كان على الأقل من سلالة صلاح الدين الكبير ولسوف يرضى به المماليك سلطاناً عليهم دون جدال •

ومهما يكن فإن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً ليتسلم الرسالة ويعود الى القاهرة وقد يستغرق ذلك شهرين أو ثلاثة • وربما أكثر من ذلك اذا كان عاكفاً على الشراب • فهل يمكن أن تتفادى الكارثة قبل ذلك ؟ •

واذا حدث وتسربت الأخبار •• فماذا ستكون النتيجة ؟ ولا بد أنها ارتجفت قليلاً عندما تطرقت أفكارها بشكل لا ارادى لذكرى الكابوس القاتم ، ذكرى المذبحة والنهب والعبودية التي أتت في

أعقاب غارة الغزاة الذين أخرجتها من بلادها ، كلا يجب ألا يلاقى خليل هذا المصير ولا حتى أهل مصر الأبرياء شعبها الآن • يجب أن تخفى خبر موت الصالح الى أن يصل توران شاه ليتولى عرشه •

حسنًا ، ولكن كيف يكون ذلك ؟ من ذا الذى تستطيع أن تثق به ؟ وكان ينبغي أن يعرف ذلك كبير حجاب القصر وكبير الأغوات جمال الدين محسن اذ من المستحيل اخفاء موت الصالح عنه • ولكنها كانت متأكدة من أنه يعرف مدى ثققتها في مساعدة رجال القصر وسوف يحفظ السر لمصلحته الخاصة على أى حال • ثم انها كانت لا تستطيع أبدا أن تشك في ولاء فخر الدين وسوف يسلم في الحال بأهمية مثل هذه الخطوة الفعالة • كان يجب عليها أن ترسل في الحال رسولا ليحضره من معسكره • وكان من الضروري أن يحمل هذا الرسول رسالة مضاة ومختومة بخاتم السلطان والا فانه لا يمكن لفخر الدين أن يأتى الى القصر ويترك الجيش في هذا الوقت الحرج من الحرب •

وكان ينبغي أن يقوم شخص ما بتقليد امضاء الصالح ، ويعد الوثائق الرسمية وهناك شخص واحد فقط هو الذى يستطيع ذلك وهو الطواشى الرقيق سهيل الذى غالبا ما كان يتولى منصب السكرتير الخاص للسلطان في أثناء مرضه وكان يمكن أن تشتري خدماته لها • فهل كان هناك شخص آخر لتشركه في معرفة السر ؟ كلا فانه كلما قل عدد من يعرف السر كان ذلك أفضل وأمن •

واجتمع حلفاء شجرة الدر الثلاثة في القصر في اجتماع خالص وأقسموا على أن يحتفظوا لأنفسهم بسر موت السلطان ومن يفشي من بينهم يحق عليه الموت • • وأعدوا أمرا سلطانيا وختموه بالخاتم السلطاني ومهروه بامضاء الصالح الذى قلده سهيل باتقان ، وكان الأمر

يقضى بتعيين فخر الدين قائدا للجيش ونائبا للسلطان في فترة توعكه .
كما جاء فيه حض الجيش على أن يقاتل في سبيل الله ورسوله بكل
ما يستطيعه من بأس وأن يلقي بالكفار الى البحر . وترك فخر الدين
القصر وقد تسليح بهذا الأمر السلطاني وكر راجعا الى المعسكر لينظم
عرقلة جيش الصليبيين الزاحف - واعدة بجائزة مقابل كل رأس من
رءوس الغزاة - ويقوى تحصينات « البحر الصغير » .

وكانت المشكلة الثانية أمام شجرة الدر ، هي كيف تتخلص من
الجثة . وكان من الميسور أن تربط بحجرة وتلقى في النهر ، ولكن
ربما يجرفها التيار في مجرى النهر ويكتشفها أحد الفلاحين ويتعرف
عليها . وفضلا عن ذلك فقد كان الصالح زوجها وكانت تحبه ، وكان
سلطانا من سلالة نبيلة ، يجب أن يدفن باحتفال مهيب وأن يشيد له
ضريح لائق .

ثم فكرت في خطة جريئة وهي أن تأخذ الجثة سرا بطريق النيل في
مركب شراعى الى قلعة المماليك البحرية بجزيرة الروضة بالقاهرة وأن
تخفيها هناك حتى يصبح الوقت آمنا لخراجها ودفنها بكل مظاهر
الأبهة والفضامة في ضريح يليق بمقامه ومكاته . وسوف تجعل أمهر
البنائين يعملون في تشييد ذلك الضريح في الحال وتختار أحسن موقع
في القاهرة على مقربة من الجامع الأزهر وتدعى بأن تشييد هذا
الضريح يتم بناء على أمر السلطان . ولما كانت العادة المتبعة هي أن
يبنى السلطان جامعا وفيه الضريح الذى يدفن فيه أبان أيام حياته ،
كما بنى الفراعنة أهرامهم في أثناء حياتهم فسوف لا يتشكك أحد فيما
تفعله شجرة الدر .

وكان لابد من أن تغسل الجثة أولا وتكفن وتوضع في صندوق ،
ونستطيع أن نستشف من قصص ألف ليلة وليلة جو الرعب والدسائس

الغامضة الذى كان يتم فيه تهريب العمال الى القصر لينجزوا مثل هذه الأعمال المحفوفة بالمخاطر فهل كانوا معصوبى الأعين ، وكانوا يدورون بهم حول ممرات أشبه بممرات قصر التيه ، أم أنهم كانوا يلقون بهم بعد انتهاءهم من العمل فى غياهب جب عميق أم أنهم كانوا يشنفونهم حتى لا يذيعوا سر ما فعلوه ؟ ومهما كان مصيرهم فقد لعب هؤلاء المصريون البسطاء دورهم فى تمثيلية بلادهم وقت الحاجة ثم اختفوا بعد ذلك من المسرح .

ولكى تخلق شعورا بأن كل شىء يسير فى مجراه العادى أصدرت شجرة الدر تعليمات ليقوم أحد المغنين وجوقة من الموسيقيين بالعرف فى لحظات معينة خارج جناح الرجل المريض لتسلية . وكان على سهيل أيضا أن يرتب الوجبات فى أوقاتها المنتظمة من الأصناف التى يجبها وأن تجهز أطباقه المفضلة وتتخذ كالعادة الى باب جناحه . وهناك يجيزها ذواق السلطان الرسمى خشية السم ثم يحملها سهيل الى الداخل ليأكل منها سيده .

وأخيرا تم اعداد كل شىء . وفى سكون الليل جاء جمال الدين محسن ليخبر شجرة الدر بأن قاربا يوجد تحت تصرفها تحت أسوار القصر . وعندما كان الجميع يغطون فى نومهم ، وتم ابعاد الحراس الى مكان آخر ، نزلت الى القارب سيدة محجبة فى ثياب سوداء وتحمل طفلا بين ذراعيها واتخذت مكانها الى جانب صندوق كبير مغطى بالقماش وموضوع فى قاع المركب وكأنه بضاعة . وحلوا الجبل الذى يربط القارب الى البر ونشروا القلوع وابتعدوا عن الشاطئ .

وفى جميع أنحاء العالم ، يتشاءم الملاحون من حمل جثة ميت على ظهر سفنهم . ومما لاشك فيه أن هؤلاء الملاحين من أبناء النيل لم يشذوا عن القاعدة ولكن محسن كان قد أجزل لهم العطاء حتى

لا يكثر من الجدل • وبينما كانوا في طريقهم بقاربهم الصغير نحو جزيرة الروضة تدفعهم الرياح الشمالية القوية كان الليل المصري الهادئ يزهر بالنجوم في سماءه الصافية • ولا بد أن هذه النجوم قد بدت للسيدة التي كانت تجلس الى جانب جثة زوجها وقد أخذت طفلها بين ذراعيها ، وتدثرت بأردية ثقيلة وتحجب عن العيون المتلصصة بدت بعيدة عنها ولا شأن لها بها وبدت الدنيا في عينيها مكانا موحشا • •

هل هو ذئب صغير أم ثعلب ذلك الذي يتسلل بجانب الشاطئ ؟ أم أن ذلك الخفيف هو صوت الأوراق الجافة من جريد النخيل ؟ أم أن هذا الخفيف يعنى تمساحا ، أم أنه ثعبان الماء ؟ • • وربما سمعت صوت أتان تنهق متألمة وهى تضع مولودها ، أو بكاء طفل في إحدى القرى الهالكة وهو يكي من الألم أو الحمى • • ما الذى كانت تفعله الآن ؟ وما الذى كانت تستطيع أن تعمله لتوقف تيار القدر ؟ • • وعندما مد الفجر خيطا أبيض في ستار الظلمة وسمعت أذان الصلاة يصل خافتا الى أذنيها من مئذنة بعيدة ثم تبعه أذان ثان وأذان ثالث • • أحست شجرة الدر عند ذلك بشئ من الراحة • لقد كانوا جميعا هم وخليل ، وسكان هذه البلاد جميعا بين يدي الله الرحمن الرحيم • وهو وحده الحاكم القهار •

وبعد بضعة أيام من تلك الليلة قامت السيدة المحجبة ، ذات الرداء الأسود برحلة الاياب ، وقد وضعت الطفل بين ذراعيها ولكن دون أن يكون معها في هذه المرة صندوق كبير في قاع القارب • وتحت ستار الليل أيضا ربط الملاحون القارب تحت أسوار القصر ، ونزلت من السيدة ولاشك أنها إحدى الجوارى في إحدى مهمات السلطان • الغرامية التى ينبغى ألا تعرف عنها السيدة شجرة الدر شيئا : انهم

يعرفون سلاطة لسان النساء • ثم أقلع المركب بعيدا ، وهكذا أدى أولئك الملاحون دورهم وتركوا المسرح كما فعل المحنط وصانع التابوت من قبل •

وكانت لاتزال هناك أشياء لا بد من إنجازها • فقد أرسلت فعلا الرسالة العاجلة لاستدعاء توران شاه ولكن كان لا بد من اعداد وثيقة يعينه فيها الصالح وريثه الرسمي • وكان لا بد من توقيعها بامضائه وختمها بخاتمه السلطاني • وكان على شجرة الدر أن تحفظ هذه الوثيقة في حوزتها الأمانة لكي تنشر على الملأ عندما يعود توران شاه، فمن المحتمل أن تحتاج إليها أيضا قبل ذلك اذا ما ذاع السر عرف الناس أمر موت السلطان •

ولكن السر ظل محفوظا حتى الآن • وكان المغنى يعنى والموسيقيون يعزفون ويأتون بالوجبات ويتذوقها ذواق السلطان ثم يحمل الطعام الى الحريم حيث كان الصالح مريضا وتقوم زوجته المخلصة بالسهر عليه • وكان الأمراء وقواد المماليك وشيوخ البدو يحضرون للمثول بين يدي السلطان ، كما كانت العادة في العالم الاسلامي • ومن المؤكد أن شجرة الدر قد عقدت هذه الاجتماعات بنفسها من وراء ستار باسم زوجها • وأعلن كبير حجاب القصر أن مرض السلطان كان يضطره الى الراحة الكاملة في ذلك الوقت ، وأنه قد عين بدلا منه السيدة شجرة الدر نائبة له • وسوف تستقبل مقدمي العرائض • وتستمع الى قضاياهم وأن الصالح سوف يصدر فيها قراراته وبراءاته من فراش مرضه بعد أن تعرضها عليه • وسوف تنقل كل أوامر السلطان عن طريقها الى أن يحين اليوم الذى يمن فيه الله عليه بالشفاء •

هل اضطربت شجرة الدر قليلا عندما أذيع هذا الاعلان ؟ هل

شكت فى قدرتها على تضييع شكوكهم ؟ وتقوم فى الوقت نفسه بحكم البلاد وتنظيم دفاعها ضد المسيحيين الغزاة وأن تبقى على استمرار الجيش على نظامه وشجاعته وتنام الاستعداد لملاقاة الأعداء ، قلمسا يعرف أهل الغرب الآن شيئا عن شجرة الدر • ولكنها بالنسبة للعرب ، احدى بطلات العالم وامتلات قصصهم بمدائحها : شجرة الدر الجارية السابقة والزوجة والأم المخلصة ، ومنقذة مصر ، وملكتها المسلمة الوحيدة •

ولكن ذلك سبق لحوادث قصتنا •••••

كانت شجرة الدر فى نظر الشعب هى زوجة الصالح وفأبة السلطان المؤقتة ولكنها كانت بينها وبين نفسها أرملة الصالح الحزينة • ولمدة ثلاثة شهور من نوفمبر الى فبراير ظلت الخدعة مستمرة ولم يشك أحد من رجال القصر أو من المماليك • وظل الجيش مخلصا حتى وصل توران شاه واعتلى العرش فى شهر فبراير •



كان الصليبيون فى ذلك الوقت يلاقون مشقة فى الوصول من دمياط الى المنصورة بسبب شبكة قنوات الرى المتقاطعة • وكان تقدم الملك لويس بطيئا ويتسم بالحذر ، وخاصة عندما أصبح فى مقدور الفرسان المصريين ، الذين أرسلوهم ليعرقلوا جيشه وهو يعبر الطرق المائية ، أن يحصدوا زهرة رجاله • وفى أحد المواقع خالف الفرسان الداوية أوامر لويس وطاردوا المسلمين بعيدا ليجدوا أن التفهقر صعب وغالى الثمن • وكان ذلك قبل عيد الميلاد بأسبوع عندما تمكن الجيش الصليبي من الوصول الى المكان الواقع على شاطئ « البحر الصغير »

فى قبالة المكان الذى كان المسلمون يعسكرون فيه على بعد ميلين
شمال المنصورة •

وبقى الجيشان المتحاربان لمدة ستة أسابيع بعد ذلك يواجهان
بعضهما البعض على جانبى « البحر الصغير » وكل منهما يتساءل
ما الذى سوف يفعله الآخر • لقد كانت حرب أعصاب • وذهبت
سدى كل المحاولات التى بذلها الجانبان لانهاء تلك الحرب • وحاول
لويس أن ينشئ خندقا يوصل الى جسر يعبرون القناة فوقه ، ولكن
نيران المسلمين أجبرته على أن يتخلى عن ذلك وأرسل فخر الدين
فرسانه عبر برزخ دمياط من الناحية الجنوبية ليفاجئوا مؤخرة الفرنجة،
ولكنهم عندما أصبحوا على مشارف المعسكر تقريبا حاصروهم فرسان
الصليبيين بقيادة شارل أنجو وقهروهم •

وبعدئذ ، وفى أوائل فبراير ، جاء الى معسكر الفرنجة رجل من
قرية السلامون متخفيا وعرض على لويس أن يبيعه معلومات عن وجود
مخاضة عبر « البحر الصغير » وفى فجر يوم الثلاثاء خرج لويس
بعد أن ترك حامية قوية لتحرس المعسكر تحت قيادة دوق
بورجاندى ، ليعبر النهر عند هذه المخاضة وقد أرسل أخاه المتحمس
روبير دوق أرتوا فى المقدمة ومعه قائد الفرسان الداوية ، ووليم
لونجسورد إيريل سالبورى ، ولديهم أوامر مشددة من الملك
بألا يهاجموا المسلمين الا اذا أمر هو بذلك •

وكانت خطته هى اقامة مركز قوى على جانب القناة من ناحية
المنصورة وأن ينشئ جسرا من القوارب عبر القناة ليضمن وسيلة
التفكير والاتصال بمعسكره وبقوة دوق بورجاندى التى تركها وراءه
فى المعسكر • وعندما يتم ذلك كله ، وليس قبل ذلك بأى حال من

الأحوال ، يصدر أمره بالهجوم العام على جيش المسلمين ويصدر أمره باحتلال المدينة .

ووجدت جماعة المقدمة أن المخاضة صعبة وتتطلب التأني في عبورها ، وعندما أتم رويير عبور المخاضة أصابه الخوف من أن يباغته المسلمون ويقتلوه وقال لمن معه : « فلنفاجئهم ولنركب الى المنصورة رأسا » . ولكن قائد الفرسان الداوية ، ووليم لونجسورد اختلفا معه . وقالوا له « تذكر أوامر الملك يتحتم علينا أن ننتظر وألا نهاجم حتى يصدر الأمر » فرد عليهم « هل أنتم جبناء فتتركوني أهاجم المسلمين بفردى ؟ وكان ذلك أكثر مما يحتملونه . وخطوا الخطوة الخطيرة ، والمهلكة في تيجتها لأنفسهم وللكثيرين غيرهم .

ولم يكن لدى أى فرد في المعسكر الاسلامى شمالى المنصورة ، عندما استيقظوا في الصباح من نومهم أية فكرة عما كان يجرى بين الآخرين . لقد كانوا هم وجيش الفرنجة في حالة سكون منذ فترة طويلة ، ولهذا كان أول شيء قاموا به هو ما اعتادوا عليه كل يوم من الاغتسال والصلاة والأكل واللبس . ولما كان الجميع لا يتوقعون شيئا ، فقد ذهب فخر الدين في الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ، ليأخذ حمامه المعتاد وليصنع لحيته الرمادية بلون الحناء الأحمر ، وعند ذلك سمعوا وقع حوافر خيل وصياح وصوت أسلحة معدنية .

اخترق رويير وقوته المعسكر العربى وهم يجرون بخيولهم ويصرعون الرجال العزل من السلاح والذين لم يكونوا قد أكملوا ارتداء ملابسهم بعد . ووثب فخر الدين فوق جواده دون أن يرتدى زرده ودخل غمار المعركة ليصرعه في التوأحد فرسان الداوية (فرسان هيكل سليمان) . أما هؤلاء الذين نجوا من المذبحة فقد فروا الى المنصورة وأبلغوا أخبار الكارثة الى القصر . يجب احاطة السلطان

علما في الحال • لقد مات القائد • فما الذي ينبغي على الجيش أن يعمله الآن ؟

كانت هذه اللحظة أعظم اختبار لشجرة الدر • إذا عرفوا في هذه اللحظة أنه ليس لهم سلطان ، فإن حالتهم النفسية ستتهار في الحال ، وسوف يتحول الممالك لمحاربة بعضهم البعض من أجل الوصول الى السلطة • وكانت الأمور تزداد تعقيدا وأصبح استمرار الخدعة طويلا من الأمور الصعبة • لماذا لا يستطيع أى شخص أن يرى السلطان ؟ ما هى حقيقة أمر صحته ؟ وكانت شجرة الدر تعرف أن كلمات الهمس أخذت تنتشر في كل مكان • ولكن لم يجرؤ أحد بعد على المجاهرة علانية بذلك الهمس •

ولم يكن هناك غير شيء واحد يجب عمله : أن تصدر النشرة اليومية مهورة ومختومة باسم زوجها ، تحض الجيش على الثبات وأنه تجب عليهم بالرغم من استشهاد قائدهم ، أن يستمروا في القتال حتى الموت في سبيل الله ورسوله تحت قيادة أمرائهم الممالك وأنه يجب الاحتفاظ بالمنصورة وانتاخذ بلاد مصر المباركة •

وبموت فخر الدين فقدت شجرة الدر صديقا وفيما ووزيرا مخلصا ، ولكن لم يكن هناك وقت للأحزان الشخصية • لقد كانت المدينة وطفلها الصبي في خطر • وبالرغم من أنها كانت لا تستطيع أن تقاتل من أجلهما بالسلاح كما يقاتل الرجال فقد كانت لديها أسلحة أخرى وكان ينبغي عليها أن تحسن استخدامها الى أبعد الحدود •

وأصدر روبرت كونت أرتوا ، وقد استشاره نجاح هجومه المفاجئ ، واندحار الجيش الاسلامي الذي سالت دماؤه حارة ، أصدر القرار المفاجئ بأن يسيروا وراء الفارين الى المنصورة ، فربما استطاع الاستيلاء عليها بنفسه دون انتظار أخيه والجزء الأكبر من الجيش •

ومرة أخرى اعترض عليه كل من قائد الفرسان الداوية ووليم
لونجسورد . لقد خالفوا من قبل أوامر الملك لويس : وربما كان هناك
ما يبرر اندفاعهم ، ولكن من الرعونة أن يتقدموا بمفردهم . فالمدينة
لا بد أنها محصنة تماما بكل تأكيد وملأى بجنود المسلمين ولا يمكن
أن تهاجم المنصورة بنجاح إلا بجيش الصليبيين الرئيسى بكل
عدته وعدده .

وعنفهم روبر « أيها الجبناء انى أتقدم مع هؤلاء الذين هم
رجال » ومع أن الفرسان الداوية والفرقة الانجليزية كانوا يعرفون
حق ما كانوا يفعلون ونظرا لأنهم كانوا يشعرون بعجزهم عن منعه
فقد تبعوه على مضض وبهذا حكموا على أنفسهم بالموت .

لقد كان صحيحا أن المصريين والجنود العرب الذين استبد بهم
الذعر قد هربوا وأن أمراء المماليك وقواتهم انسحبوا في غير نظام الى
داخل أسوار المدينة . ولم يكن هناك قائد جديد يلم شعثهم وبدا
لروبير كما لو أن الطريق أصبح خاليا . ولكن الأمر الذى لم يكن
روبير يعرفه هو أن قائدا جديدا قد ظهر من بين صفوف المماليك :
يبرس البندقدارى الفارع الطول ، ذو الصوت الجهورى الحركسى
المحمر اللون ، الرقيق السابق ، ذو العين الواحدة الزرقاء التى تشوبها
سحابة بيضاء والذى يصفه المؤرخون الفرنسيون بذى العين الواحدة
البندقدارى الجبار المخيف . وتنفذا للأمر اليومى الذى أصدره
السلطان تولى يبرس القيادة . فوضع الرماة المختفين فوق الأسوار
وفى البيوت ووزع قوات المماليك المدججين بالسلاح على الأزقة
والشوارع الجانبية وترك بوابة المدينة مفتوحة على مصراعها عمدا .

واندفع روبر وفرسانه من خلال البوابة رأسا الى داخل الكمين .
وأمطروهم الرماة المختفون بالسهم من فوقهم ومن حولهم وهاجمهم

الممالك في الشوارع الضيقة وأصبحت جيادهم لا جدوى منها في ذلك المكان المحصور ولم تستطع فرارا وهكذا قتلوهم كما يقتل الانسان الذباب • وقد استدار بعض الفرسان محاولين الهرب من البوابة سيرا على الأقدام ولكنهم طاردوهم في القناة وأغرقوهم •

وتحصن روبر وحرصه داخل أحد البيوت ولكن المسلمين اقتحموا البيت وقتلوهم عن آخرهم • وسقط جميع الفرسان الداوية ولم يتبق من عددهم الذي كان يبلغ ثلاثمائة فارس تقريبا سوى خمسة فقط • وثبت وليم لونجسورد وفرسان الانجليز في مكانهم بشجاعة واستمروا يقاتلون حتى النهاية • وأييد الفرسان الرماة من الافرنج عن آخرهم وقضى قضاء تاما على خيرة فرسان الصليبيين • وقد ذكر المؤرخون العرب أن ألفا وخمسمائة من زهرة فرسان المسيحيين قد قتلوا •

وبالرغم من أن بيتر فارس بريتاني جرح في رأسه جرحا شديدا فقد هرب وعدا الى خارج المدينة ليحذر الملك لويس ، الذي كان قد عبر المخاضة وأخذ يتقدم في طريقه نحو المنصورة على رأس الجزء الرئيسي من جيشه وأنذره بأن الممالك كانوا يستعدون للهجوم عليه • وأصدر لويس بسرعة أمره بالاسراع باقامة جسر القوارب الذي كان قد فكر في تشييده خلفه وأعد قواته لتقاوم الهجوم • وأسرع الممالك يقودهم بييرس ، الى خارج المدينة وهم يلوحون بأعلام ورايات القاهرة الحربية الصفراء مع شارات أسلحتهم الخاصة بهم ، وقد أخذت دروعهم وسيوفهم تلمع في ضوء الشمس ، وهاجموا الجيش الصليبي مطلقين سهاماً متتابعة كانت تقابل سهام تطلق عليهم • وقاد لويس الذي أظهر شجاعة شخصية فائقة ، هجوما مضادا مما أدى الى تدهور المسلمين • ولكن ذلك التدهور لم يطل بل كان لتنظيم أنفسهم ومعاودة الهجوم مرة أخرى •

ودفعوا بلويس الى « البحر الصغير » تقريبا . وحاول بعض
الفرسان الصليبيين أن ينجوا بأنفسهم بالنزول بجيادهم في الماء
ولكنهم غرقوا عن آخرهم هم وجيادهم . وكيفما كان الأمر فإن
تقهقر لويس ، قد أُنقذ حياته . وتم اعداد الجسر العائم .
وبواسطته استطاع ذوق بورجاندى أن يرسل رماة السهام المسيحيين
الفرنسيين الذين كانوا منتظرين في المعسكر لمساعدة اخوانهم وذلك
بعبورهم من فوقه . وقد شتت سهامهم المتتابعة صفوف الممالك الذين
ارتدوا الى المنصورة وأغلقوا في هذه المرة البوابة وحصنوها بالمتاريس
الحديدية .

وعسكر الجيش الصليبي حيث كان الجيش الممصرى معسكرا في
الليلة السابقة وشرع لويس في الحال في تحصين مراكزه آملا أن تقوم
الاضطرابات بين الامراء المتنافسين الذين كان يدعى كل منهم أنه أحق
بالقيادة منذ وفاة قائدهم وربما يطلبون هدنة حربية . . وانتشرت
شائعات غريبة . . أن ما يقال عن مرض السلطان الذى لا يراه أحد ليس
الا حيلة . . فلو أنهم عصوا أوامره الصادرة الى الفرقة المتقدمة
وفي الوقت الذى كان لويس يبحث فيه عن شىء من الراحة ، حضر
قائد فرسان الاسبتارية ليخبره بوفاة أخيه روبر في المنصورة فانهار
لويس وبكى .

وكانت شجرة الدر تستطيع أن ترى وتسمع كل ما دار في المعركة
وتتبع الهجوم الشديد والهجوم المضاد لكلا الجانبين من نوافذ الطابق
العلوى للحريم في القصر . وتقل اليها عبيدها بأن يبرس هو الذى
أخذ على عاتقه مهمة القيادة ، وقاد الهجمات التى ردت جيش الفرنجة
الى شاطئ القناة فلو لم يتول القيادة لاستطاع الغزاة أن يحرقوا
المدينة وأن ينهبوا (ولم تكن تعرف أن القديس لويس لم يكن يسمح

لرجاله أن يتصرفوا كما تصرف الصليبيون في الحملات الصليبية الأخرى مما جلب العار على المسيحيين) ولكن كم سيمضى من الأيام قبل أن يصل توران شاه ؟ والى متى يمكن الاحتفاظ بالسر ؟ * ولكن يجب ألا تضعف وألا تتردد * وكان لابد من اصدار نشرة يومية أخرى باسم السلطان ، يثنى فيها على همة الجيش ويلوح له بالمنح والعطايا السخية عندما يتم اكتساح الغزاة ليس من المنصورة والطريق المؤدى الى القاهرة فحسب ، بل من كل أنحاء مصر * .

وبعد ثلاثة أيام قاد بيبرس المماليك ، وقد شجعت تلك الوعود وعزز جيشه بقوات أتت من الجنوب ، وقام هو بهجوم ثان فخرج من المدينة بقوة وشجاعة أكثر من ذي قبل وحمل على الأعداء مطلقين سحباً من السهام على معسكر الصليبيين وحافظ لويس على ثبات جيشه وحارب جيش المسلمين وشن عليهم هجوما مضادا * وشن المماليك هجوما ثانيا ولكن ليصدهم الملك لويس ورماته * .

ولكن بالرغم من أن الصليبيين ثبتوا في مواقعهم فإن خسائرهم كانت باهظة حتى أن بيبرس ، وقد عرف أنه قد انقذ المدينة من الاستيلاء عليها ، أوقف الهجوم وارتد في نظام تام الى داخل أسوار المنصورة * .

ومما يدعو الى العجب قلة عدد المؤرخين من الجانبين الذين كتبوا عن الأيام الخمسة عشر التي تلت تلك الحوادث ، فمن المحتمل أن هذين الأسبوعين كانا من أخطر الأوقات كلها بالنسبة الى مصر * .

واستحقت المنصورة مرة ثانية أن تسمى « مدينة النصر » وأن يحيى الناس بيبرس ومماليكه لأنهم أنقذوها * ولكن الحقيقة التي

لا يمكن غض النظر عنها هي أن لويس والجزء الأكبر من جيشه ظلوا معسكرين على بعد ميلين منها وظلوا أيضا محتفظين بجسرهم العائم خلفهم دون أن يمسه أحد وظلت امدادات الأطعمة والذخيرة تأتي اليهم في حرية تامة من دمياط .

وبالرغم من أن بيبرس قد أثبت في الحرب أنه كان جنديا وقائدا عظيما فانه كان أقل نفوذا من أمراء آخرين من أمراء المماليك مثل عز الدين أيبك أو فارس أقطاي . وأخذت الغيرة والدسائس تبرز برأسها ، وبدأ الناس يجاهرون بشكوكهم الهامسة عن عدم ظهور السلطان . ولو علم الصليبيون بذلك ، وكانت لديهم القوة الكافية لأن يهجموا مرة أخرى .

كان الموقف متوترا ، وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط كيف كانت تتصرف شجرة الدر ، فانا نعرف أنها كانت تصرف الأمور دون مساعدة فخر الدين ولاشك في أنها أخذت تغدق الخلع والذهب والجواهر والاقطاعات على قواد المماليك كما قامت بتصرف جميع أمور القصر بكل ما لديها من شجاعة ومهارة . وظل يعزفون خارج باب السلطان المريض ، وكذلك ظل طعامه يجهز يوميا ويجيزه ذواق السلطان ثم يحمله سهيل بعد ذلك اليه .

ولابد أن شجرة الدر لم تكن تصلي فقط الصلوات الخمس المفروضة ولكنها كانت تدعو مئات المرات في كل يوم وتذكر أنها — حقا — بين يدي الرحمن الرحيم .



وفي آخر يوم من شهر فبراير من تلك السنة وصل توران شاه وكانت المحنة الطويلة قد انتهت ، وقد أسرع توران شاه ، بمجرد استلامه رسالة شجرة الدر ، الى دمشق حيث أعلن نفسه سلطانا . والآن وقد أصبح في الاستطاعة اذاعة نبأ وفاة الصالح ، فقد أعلن نبأ اعتلاء توران شاه العرش في القاهرة وجميع أنحاء مصر . وقدمت اليه الوثيقة المزورة باختيار والده له وريثا ، ولكنه لم يكن بحاجة اليها . وكان الفرح عظيما . وأسرع أمراء المماليك الى قاعة الاستقبال بالقصر ليقسموا يمين الولاء ويهللوا له .

وحيث شجرة الدر ابن زوجها بسرور وسلمت اليه في الحال كل تبعاتها . لقد كانت مخلصه حقا من البداية الى النهاية وحفظت له عرشه مصونا . ولكن ما الذي نالته في مقابل ذلك ؟ انه لم يعترف بالجميل لأماتتها وانكارها لذاتها في سبيل قضيته ، بل قابل ذلك بوقاحة وازدراء وشك . وانقلبت لحظة انتصارها وفرحها الى مرارة وانضح لها في تلك اللحظة أنها وحيدة حقا .

وكان توران شاه برغم كل عيوبه وعنفه وانغماسه في الملذات وما هو عليه من خلق غير كريم ، كان قائدا قديرا . أدرك أنه لو تمكن من أن يقطع امدادات الجيش الصليبي من دمياط فانه سوف يقع في مأزق حرج لأن سكان القرى لن يبيعونهم شيئا . وفي الوقت الذي ترك فيه لويس مشغولا بمناوشات صغيرة ، حمل هو ، على ظهر الجمال أجزاء أسطول من القوارب الخفيفة ، الى فروع النيل السفلى . وهناك جمعت أجزاءها وأنزلت الى الماء وسرعان ما كانوا يهاجمون ويفرقون المراكب المسيحية ، حتى أصبح لويس وجيشه معرضين للمجاعة والأمراض . وانتشرت الدوسنتاريا والتيفود انتشارا وبائيا وأخذ الجنود يموتون ، ويصف دى جوانفيل ما حدث له عندما كان

مريضا في خيمته ، وكان قسيسه يقيم قداسا خاصا له فاتتاب المرض
فجأة هذا القسيس • ونهض جوارقيل من فراشه ليسعفه وهكذا
» أنهى القسيس قداسه ولكنه لم يصل أبدا مرة أخرى ،
لأنه مات » •

وكان لويس في مركز ميثوس منه • لقد أضعفت موقعة المنصورة
قواته الى حد أنه لم يعد يمكنه أن يفكر بعد ذلك في شق طريقه عنوة
الى القاهرة • ورأى أنه كثير على نفسه أن ينسحب عبر الجسر العائم
الى معسكر دوق بورجاندى وأن يحاول من هناك أن يسير راجعا الى
دمياط • وكان السبيل الكريم الوحيد الذى يمكنه أن يسلكه هو أن
يحاول التفاوض مع المسلمين • لقد رفض منذ عدة شهور مضت
عرضهم بتسليم بيت المقدس له مقابل دمياط ، فهل فات الأوان لقبوله
لهذا العرض ؟

نعم لقد تأخر الوقت جدا • جاءت الاجابة بالرفض القاطع • •
وكان لا مناص من الانسحاب ولكن كبريائه العنيد ظل يلح عليه ،
فأصدر أوامر بأن ينقل الجرحى والمرضى وحدهم بطريق النيل ،
أما الرجال القادرون فعليهم أن يسيروا في نظام تام عائدين في الطريق
الذى أتوا منه •

وفي الصباح الباكر من يوم ٥ ابريل هدم لويس المعسكر الصليبي
وأخذ مكانه في مؤخرة رجاله ليشجع الضعفاء في رحلتهم الشاقة •
وكانت هذه فرصة المسلمين ، فهاجموهم ، ومع أن الفرنجة قاوموا
بشجاعة كافية وكان لويس نفسه يقاتل بعنف ليعيد المسلمين عن رجاله ،
فقد قتل وجرح مئات من الفرنجة • أما هؤلاء الذين عبروا الجسر
العائم فقد نسوا - كما نسي رجال بنى كنانة - أن يدمروه بعدهم
وترتب على ذلك أن المماليك تبعوهم وحاربوهم حتى وصلوا الى

معسكر . ولم يمض وقت طويل حتى استسلموا وسلموا أسلحتهم
بدون علم الملك .

ووقع لويس فريسة للمرض ولم يستطع أن يمتطي صهوة جواده
بعد ذلك . وحمله أحد فرسانه الى داخل كوخ في إحدى القرى
المجاورة وهناك وجده المماليك وجذبوه من فراش مرضه وصفدوه
بالأغلال وأخذوه أسيرا ووضعوه في منزل خاص بالمنصورة . وكان
عدد الأسرى المسيحيين كبيرا جدا لدرجة أن توران شاه أحس بأنه
لن يستطيع اطعامهم وأمر بقتل كل الضعفاء والذين أوهنتهم الجراح
والحمى . واستبقى الباقين من جيش الملك لويس طلبا للفدية . وكانت
شروطه قاسية . كان على لويس أن يتنازل عن دمياط في مقابل
حياته ، وأن يدفع فدية لجيشه نصف مليون من الجنيهات . وكان
هذا مبلغا كبيرا ولكنه وافق عليه من أجل رجاله . وبعث في الحال
برسالة الى الملكة مرجريت بدمياط بأى ثمن حتى يمكن التنازل عنها
الى توران شاه كفدية له .

وكانت أنباء هزيمة الصليبيين الفادحة قد وصلت دمياط فعلا
وبعد ثلاثة أيام من وصولها ، وضعت مرجريت طفلها وكان ولدا ،
وكان يرافقها عجوز فقط ، وقد عمدته باسم جون ترسترام « طفل
الأحزان » وكانت مريضة وضعيفة ، ولكن ما أن سمعت أن
الايطاليين كانوا يعزمون مغادرة الميناء حتى استدعت في نفس ذلك
اليوم ، قوادهم الى جانب فراشها . انهم اذا رفعوا مراسيهم وتركوا
المدينة الجائعة غير المحصنة فان لمدينة تسقط لا محالة وسوف يفقد
لويس حياته مقابل فديته . وقد سألتهم لو أنها استطاعت أن تشتري
كل الطعام الباقي في المدينة وتوزعه بالتساوى على الجميع ، فهل
يقفون في هذه الحالة ؟ . ونجحت توسلاتها واستمالت باقتراحها

العملى أهل ييزا وأهل جنوا العنيدى فوافقوا على البقاء • وبلغ الثمن الذى كان على مرجريت ، أن تدفعه ثمنا للطعام ثلاثمائة وستين ألفا من الجنيهات ، ولكنها أنقذت حالة المدينة النفسية وحياة زوجها • وما أن أصبحت حالتها الصحية ملائمة للسفر حتى أبحرت الى عكا لتجمع الفدية النقدية للجيش •



لقد أنقذت شجرة الدر مصر من الغزو الأجنبى ولكنها كانت أبعد ما تكون عن السعادة • لقد أحضر توران شاه معه محاسبيه ، ونحاهما هى وخليل جانباً كما لو أصبحت جارية مرة أخرى • وأصبحت ،هى التى لم تطق صبرا فى يوم من الأيام على أن تكون لها منافسة فى الحريم تعامل بازدراء من نسوة حمقاوات يأخذن مثالهن من الموقف الوقح الذى كان يقفه منها السلطان الشاب • وقد ازداد خوفها على نفسها وعلى ابنها الصغير • وأخيرا وصلت الأمور الى ذروة السوء عندما اتهمها توران شاه بتبديد ثروة أبيه • وكانت الاتهامات رغم كونها أبعد ما تكون عن الحقيقة تحمل تهديدا صريحا • وكان الوحيدون الذين تستطيع شجرة الدر أن تتجه اليهم لنجدها هم رفقائها القدامى فى الاسترقاق ، المماليك البحرية ، الذين كانوا يدينون بمركزهم وولائهم لزوجها فأرسلت اليهم رسالة سرية طالبة حمايتهم ، وكانت تعلم أيضا بأنهم أصبحوا يكرهون سيدهم الجديد لطبعه المتقلب وسلوكه المهين لهم •

وبعد ذلك بضع ليال ، وبينما كان توراه شاه لا يكاد يستطيع أن يقف على قدميه مترنحا من سكره فى احدى اللوائم ، اقتحم الغرفة عليه جماعة من المماليك البحرية يقودهم بيرس وسيوفهم مشرعة فى أيديهم • وضرب بيرس السلطان الضربة الأولى فجرى

توران شاه وهو ينزف دما بعد أن أثخنه الجراح وألقى بنفسه في النيل بجانب البرج الخشبي الذي كان الملك لويس مأسورا فيه في ذلك الوقت ، وقد رآه الملك بنفسه وهو يحاول عبثا أن يسبح التماسا للنجاة ، ولكن المماليك تبعوه وقتلوه في الماء .

ومات السلطان الشاب الذي اكتسب كراهية الجميع ، واتفق المماليك على أن يولوا شجرة الدر ملكة عليهم . وهكذا انضمت أخيرا شجرة الدر الى جماعتنا من ملكات مصر .

وبعد ذلك حكمت شجرة الدر البلاد وحدها لمدة ستة شهور ملقبة نفسها في وثائق الدولة الرسمية باسم « أم خليل » مملوكة الصالح وخادمة الخليفة (١) (الزعيم الروحي للعالم الاسلامي في بغداد) وتحوى مقتنيات المتحف البريطاني قطعة من عملتها النادرة وتقرأ عليها أن خليلا كان مشتركا معها باعتباره ملكا .

وكانت تعرف كل شيء من الحكم اذ أنها حكمت مصر في الواقع فترة من الزمن ، بالرغم من أنها لم تكن تحكم باسمها . ولكنها واجهت في الحال أزمة حادة غير عادية . فقد أطارت الجماسة والنصر بمقتل توران شاه عقول المماليك . وصاحوا « لنقتل الآن الملك الكافر » وكان من أبسط الأشياء أن تضرع النيران في سجن لويس ، في البرج الخشبي !! ولكن رغب ممالك آخرون في الحصول على

(١) سكت النقود باللقابها هكذا « المستصمية » (مملوكة الخليفة المستعصم بالله قبل أن يهبها للصالح) الصالحية (أى مملوكة الصالح أيوب) ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين (و خليل هنا تلاعب باللفظ فيما بين اسم علم واسم فكرة بمعنى صدق) . وكانت تكتب على المراسيم في العلائة بخطها « والدة خليل » . ويخطب باسمها على منابر مصر فيقول الخطباء « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

المال • واندفع اليه بعضهم في داخل غرفته ملوحين بسيوفهم المملوطة بالدم وهددوه قائلين انهم قد قتلوا عدوه توران شاه وأنهم يجب أن يكافأوا ... والا !! •

وواجههم لويس بهدوئه وبوقاره المعتاد وكان قد بدأ أكثر شحوبا ونحافة وضعفا بسبب مرضه السابق وبقائه في السجن • وأخيرا نكسوا سيوفهم وهم خجلون من أنفسهم •

وفضلا عن هؤلاء الأمراء المتهورين كان هناك آخرون يرغبون في قتل لويس اذ أخذ بعض المتعصبين من المسلمين ، ومن الشيوخ والفقهاء يشجعون الممالك على قتل جميع الأسرى الفرنجة الذين في قبضتهم • ولكن الملكة شجرة الدر أيدت الاتفاق الذي كان قد عقد مع لويس • ان الشهامة الاسلامية وحفظ العهد أصبحت في خطر ، فهم ملزمون بالمحافظة على المسيحيين الذين كانوا تحت رحمتهم الى أن توفي شروط الفدية •

وكانت الفدية متوقفة على الملكة مرجريت • ولهذا السبب فبالرغم من أنهما لم يلتقيا أبدا فان مصيرى الملكتين الشابتين كانا متشابكين • واعتمادا على نبل وشرف وشجاعة احدهما كانت تتوقف حياة الرجل الذي تحبه الأخرى • وكانت سعادة مرجريت أميرة بروفانس وابنها جون تريسترام « طفل الأحرار » موضوعة في أيدي شجرة الدر « أم خليل » المرأة المحجبة في الحريم ولكنها مع ذلك كانت ملكة مصر •

وأخيرا جاءت الأنباء بأن الفدية النقدية قد وصلت الى دمياط وأنها سوف تدفع ، وأن المدينة سوف تسلم الى المسلمين عند وصول الملك لويس وفرسانه • أما باقى الجيش فسيطلق سراحه وسيسافر فيما بعد •

واستخدمت شجرة الدر نفوذها ، فقبلوا تخفيض جزء من القدية
اذ اكتسب الملك لويس خلال فترة أسره ، بصيره الرائع ووقاره
الهادىء احترام أعدائه فلم يناقش القرار حتى أشد الممالك قسوة
وسلمت دمياط رسميا الى السلطات المصرية وأبحر الملك لويس الى
عكا ومعه أخواه الباقيان والفرسان والنبلاء الآخرون بعد أن أطلق
سراحهم أخيرا • و انتهت بذلك الحملة الصليبية السادسة المشنومة •

انتهت الحملة الصليبية وأصبح القديس لويس والملكة مرجريت
سالمين والى جانب بعضهما البعض ، ولكن شجرة الدر التى كانت
ذات أثر ، فى كل من هزيمتهما وفى الإبقاء أيضا على حياتهما
وسعادتهما ، كانت قد بدأت حكمها الرسمى باعتبارها سلطانا
(لا سلطنة اذ لم يكن هناك مثل هذا اللقب فى الاسلام) واستغرقت
القاهرة ومدن مصر فى فرح مضاعف : لنجاتهم من الغزاة الأجانب ،
ولاغتلاء حاكم جديد العرش ، حاكم تفادى نكبة حرب أهلية • ولأول
وآخر مرة فى مصر الاسلامية نوى باسم سيده باعتبارها سلطانا
على البلاد •

وكانت الشوارع التى يتدلى من نوافذها شقق الحرير والأطلس
النقية*فرحة وغاصة بالمشعوذين والحواة ومروضى الحيوانات
والراقصين وبائعى الأطعمة والسقاين ولاعبى الأراجوز الشرقى
وجماعات الفلاحين الكثيرى الضوضاء من أهل القرى الذين كانوا
يتنزهون فى الشوارع وهم يتزاحمون بالمناكب فى خطوات تقليدية
مثل الرقصات (١) التى نراها على جدران مقابر أجدادهم الفراعنة

(١) حددت الكتابة رقصة العمود ، ولكن لم تكن فى مصر القديمة رقصة بهذا
الاسم وانما نرى على جدران بعض المعابد صورة لعمود يتسلقه افراد فى أحد الاحتفالات
الدينية •

فى طيبة • وكان الرواة يقصون قصصا حماسية عن أعمال صلاح الدين العظيمة ويمتدحون ملكتهم وفى المساء عبر الدراويش من أصحاب الطرق الصوفية فى الصحراء عن امتنانهم وولائهم لله العلى القدير ، بطرقهم الغربية الخاصة فى الرقص وعمل الذكر وأضيئت المساجد بمئات من المسارج وتلاأت مآذنها بالأضواء •

وعين قائد جديد للجيش • ولم يكن يبيرس فانه كان لايزال صغيرا ولم تكن أيامه فى تولى السلطة باعتباره واحدا من أعظم سلاطين المماليك فى مصر قد أتت بعد • ووقع الاختيار بالاجماع على رجل أكبر منه مركزا ، وهو قائد المماليك البحرية عز الدين أيبك الجاشنكار أى ذواق الطعام • وكان أيبك فى الثالثة والخمسين من عمره وكان تركمانى الأصل وكان فى الأصل رقيقا مملوكا للصالح أيوب • وقد قال عنه المقرئى المؤرخ العربى بأنه كان لأيبك منزلة سامية بين الأمراء لحميته الدينية وكرمه وفطنته •

وكانت شجرة الدر تعرف عنه أنه طموح ولكنها أحست أنه الرجل المستقيم الذى تستطيع أن تثق به • وكان صديقها الوفى كبير الأغوات ، جمال الدين محسن لايزال الى جانبها وكان يعمل سكرتيرا لها وموضع ثقته بالإضافة الى وظيفته الرسمية باعتباره كبيرا لحجاب القصر ، كما كان معها أيضا « سهيل » الذى كانت تستطيع دائما الاعتماد عليه •

وكان من أول الأشياء التى ينبغى عليها أن تهتم بها عند عودتها الى القاهرة الاسراع فى اتمام بناء ضريح زوجها حتى يمكن اخراج جثته من مخبئها الأمين فى قلعة المماليك البحرية بالروضة وأن تقيم له جنازة ملكية تتسم بالعظمة والروعة اللائقين به • كما فكرت أيضا فى بناء مدرسة مجاورة باسم الصالح ، ويجب أن تكون مبنى جميلا

يُقدر ما يستطيع أن يبتكر المهندسون ومن الممكن أن يستخدموا
الكساء الخارجى لأحد الأهرام الصغيرة كما سبق أن فعل صلاح عند
بناء أسوار القلعة •

والى هذه المدرسة يستطيع أبناء الأسر المتدينة أن يحضروا
ليتعلموا قراءة وتلاوة القرآن الكريم ، كما سيفعل ابنها خليل • انه
يتحتم عليه قراءته وتلاوته عندما يكبر •

وكانت هناك أعمال كثيرة لابد من عملها من أجل البلاد بعد
انتهاء الحرب • يجب المحافظة على نظام الرى الجوى للبلاد حتى
تتمكن الحقول من انتاج الحبوب الغذائية التى تمنع المجاعة ، كما
كان ينبغى إعادة فتح طرق التجارة الخارجية وأن يؤمن التجارة
والمستوردون وخاصة هؤلاء الذين كانوا يتعاملون مع الشرق ، كما
ينبغى أن يطمئن كل فرد الى العدالة طبقا للشريعة الاسلامية وكذلك
يجب أن تكون الضرائب التى يدفعها الناس ضرائب عادلة • لقد
أنقذت القاهرة من مصير القسطنطين وكان ينبغى عليها أن تتأكد من أن
القاهرة تسودها السعادة والرخاء •

والآن وقد وجدت شجرة الدر نفسها وقد أصبحت لديها السلطة
لتعمل كل هذه الاصلاحات لشعبها ، ان هذا الوقت كان أسعد أوقات
حياتها - اللهم الا الفترة الأولى من زواجها بالصالح - ومع أنها
كانت دائما تخفى نفسها وراء حجاب وستارة حريرية ، فقد جلست
لل قضاء بين الناس فى قاعة العدل عند سفح قلعة الجبل وقد أحاط
بها كبير القضاة - القاضى - وفقهاء الشريعة الاسلامية • كما كانت
تعقد المجالس فى قاعة الأعمدة ، التى ظلت موجودة الى أن تخرب
القصر بعد ذلك بسنوات كثيرة ، وكانت توجد فيه منصة عالية
تعرف باسم « منصة الأميرة » ، كما أقامت فى القلعة جوقة موسيقية

عسكرية تعزف ليلا وكانوا يعزفون على آلة خاصة تسمى الخليلية
تكريما لاسم ابنها الصغير

ولكن سرعان ما جيم ظل قاتم على حياتها ، ظل لم يستطع أى
شئ أن يزيله • لقد فقدت ابنها الوحيد خليل • ولا تعرف كيف
فقدته ، فمن المحتمل أن موته كان نتيجة لأحد أنواع الحمى المفاجئة
التي تأتى بها الرياح المترية في مصر •• مثل الجدري والدوسنتاريا
والطاعون • وكيفما كان المرض الذى قضى عليه فان دليلنا على
ما أصابها أن اسمه لم يظل طويلا مقترنا باسمها على عملتها باعتباره
الملك المنتصر ، من أنها ظلت تلقب نفسها بلقب « أم خليل » •

وعند ارتقاءها العرش بعثوا برسالة رسمية بذلك الى الخليفة
« أمير المؤمنين » في بغداد • ونظرا لأنه كان الزعيم الروحي للعالم
الاسلامى فان مباركته للسلطان الجديد كانت أمرا يجب الحصول
عليه • ولكن بعد ستة شهور جاء الرد الذى نزل كالصاعقة على قلب
كل انسان « اعلمونا ان كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال من
يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها •• » كما روي في
الأثر بأن البلية تنزل بالبلد الذى تحكمه امرأة ولهذا فان الاسلام
الصحيح لا يقر ذلك •

وظهرت أزمة بسبب ذلك ، لم يكن هناك من يرغب في أن يطمأ
أى جيش أجنبى آخر بقدمه أرض مصر مرة أخرى ولو كان جيشا
اسلاميا • وعلاوة على ذلك فان خطر الحرب الأهلية بسبب ارتقاء
العرش قد برزت برأسها الكئيب مرة أخرى • وقامت مناقشة حامية
بين الأمراء القواد وكانت تتيجهما أنه يجب أن يطلب من شجرة الدر
أن تتزوج من أيبك الذى يمكن أن ينادى به سلطانا بدلا منها •

وبالرغم من أنها سوف تستمر تحكم البلاد ، فإن الحكم يكون باسمه
وبذلك ترضى التقاليد •

ما الذى كان تشعر به الملكة نحو ذلك ؟ من العسير أن نخمن
احساسها وقد زعم بعض المؤرخين أن أيك كان حبيبها وأن الممالك
اختاروه اكراما لرغباتها وذكر آخرون بأنها وافقت على أن تتزوجه
من أجل ايحاد حل ، ولا شئ غير ذلك • والحقيقة هى أنه ما من أحد
يعرف خبيثة نفسها ولكننا نعرف فقط ما الذى تم فعلا • وعلى
أى حال فمن أجل مصر ، وافقت شجر الدر على ذلك التدبير ، وكان
شرطها الوحيد هو أن يطلق أيك زوجته التى كان له ولد منها •

وربما كانت الوحيدة فى حياة الحريم التى لم تكن تطيق أبدا
وجود منافسة لها فى عواطف زوجها أو أن تصبر على المكائد والغيرة
التى تنشأ من جراء الزواج بأكثر من واحدة • ولكنها بعملها هذا
خلقت لنفسها عدوة لدودة أخذت تنتظر فرصتها لتضرب يوما ما •

وهكذا وبعد ستة شهور ، حل بدلا من شجرة الدر زوجها
الجديد وتودى به سلطانا فى جميع المساجد فى كل أنحاء البلاد ،
وتسمى باسم السلطان الملك المعز الدين أيك ، وبعثوا الى الخليفة
رسالة جديدة تنبئه بما حدث وتطلب منه البركة مرة أخرى ، ولم تقابل
الرسالة فى هذه المرة بالرفض •



واستمرت شجرة الدر تحكم باسم زوجها من وراء الستارة
الحريرية وخمارها الذى تضعه فوق وجهها مدة ثلاثة أعوام ، ونحن

لا نعرف مشاعرها تجاه زوجها ، كما خفيت علينا معظم أعمالها خلال هذه الفترة فقد ذهبت الى مكة لأداء فريضة الحج •

وكانت نهاية شجرة الدر نهاية مفاجئة • فقد ازداد أيبك طموحا بمرور الوقت ، وأرسل في طلب يد ابنة أمير الموصل ليتزوجها • وعندما سمعت شجرة الدر بذلك صممت على قتله • وشك أيبك في نياتها وذهب ليعيش خارج القصر • ولكن رسالة غرامية منها أعادته الى القصر ولكن ليهاجم عليه من أعدتهم لقتله وهو في الحمام • وعندما استنجد بها لتنقذه جاشت في نفسها بعض عواطفها القديمة وصاحت في القتلة أن يتوقفوا ، ولكن بعد فوات الأوان • وقد قال لها جمال الدين محسن اننا اذا لم نقتله فانه سيقتلنا جميعا • وهكذا مات أيبك •

وحاولت شجرة الدر أن تنقل خبر وفاته الى الأمراء بأنه مات ميتة طبيعية ولكن أصدقاء أيبك وقفوا على الحقيقة من عبيدها • وكان أولئك الأمراء على درجة كافية من القوة جعلتهم يهتمونها ويسجنونها في البرج الأحمر بالقلعة • وكانت تعرف أنها لن تغادره وهي على قيد الحياة ، ولهذا سحقت في هاون كل عقود لآلئها الثمينة والجواهر الأخرى التي أهداها اليها الملك الصالح فأحالتها الى ذرات حتى لا يستفيد منها أحد ولا يتاح لأي امرأة أن تتزين بها •

وكانت لحظة سقوط الملكة هي اللحظة التي كانت تنتظرها مطلقة أيبك ، فأرسلت جواربها الى البرج ليحضرنها الى المكان التي كانت فيه وهناك قتلنها ببقايب الحمام الخشبية •

وهكذا ماتت شجرة الدر التي كانت دائما سيدة وملكة الحريم والتي لم تقو عليها دسائسه ومؤامراته ومنافساته العادية ، ماتت في

النهاية بأيدي الحريم • ولكن بالرغم من أن مطلقه أيبك قد قتلت جسدها
فانها لم تستطع أن تقتل شهرتها ومن الممكن زيارة مقبرتها الفاخرة
التي تشبه اللؤلؤة في جمالها بين مقابر المماليك تحت القلعة ،
كما تغنى الشعراء العرب بقصة حياتها واخلاصها لمصر •

وعندما تزهـر أشجار نار الغابة • المزروعة على جانبي الشارع
الموجود في القاهرة والمسمى باسمها وتبدو كشعلة مضيئة ذات لون
برتقالي أحمر ، فإن قصر وقت تزهيرها البديع مناسب كل المناسبة
لحياتها القصيرة وقصتها النضرة •

الفهرس

الصفحة

٩ مقدمة المراجع
١٣ المقدمة
١٧ حتشبسوت زعيمة النبيلات
٦٩ نفرتيتى الجميلة قد أتت
١٢٣ كليوباترة العظمى
١٨٥ شجرة الدر

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٦٩٩ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5875 - 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب